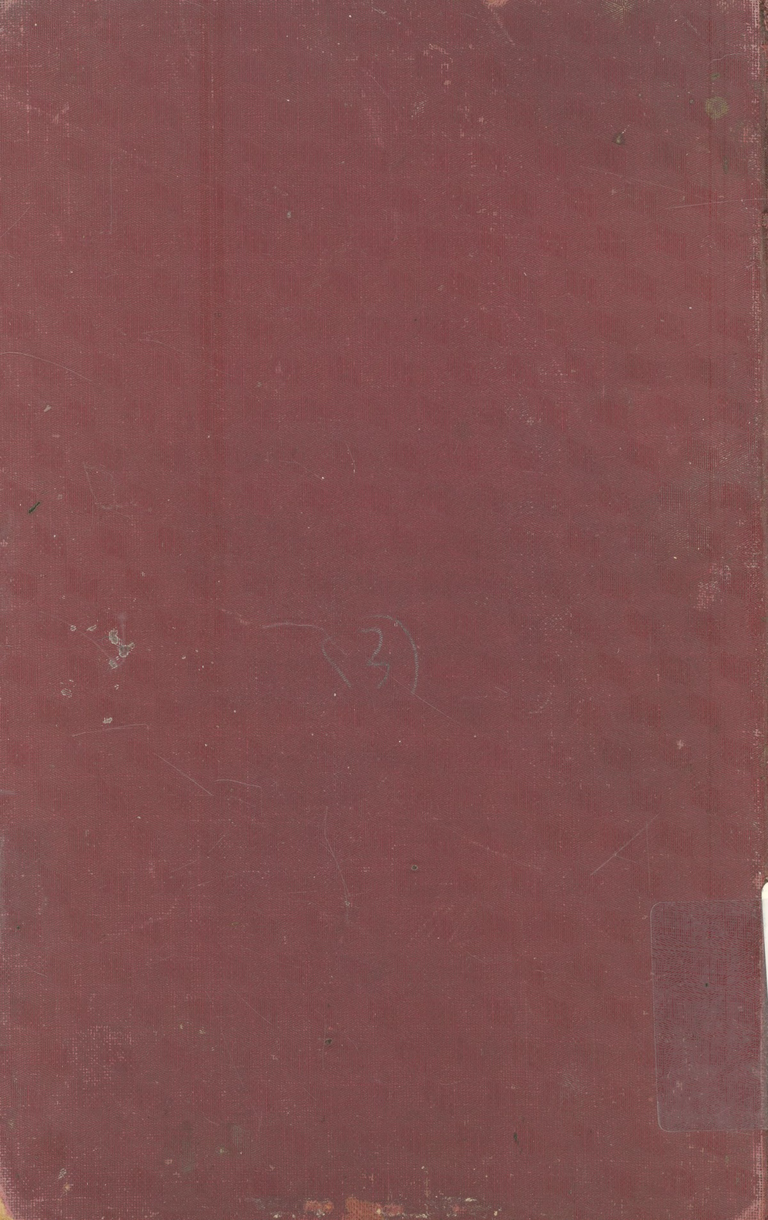
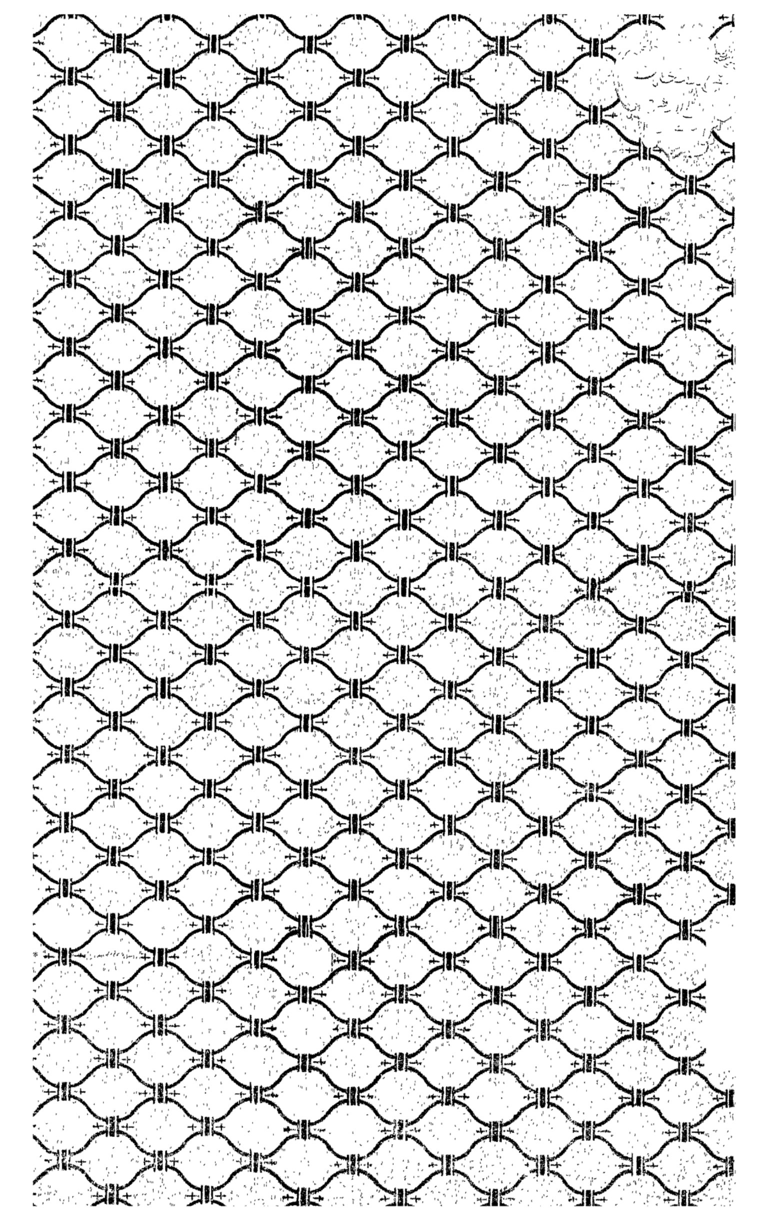
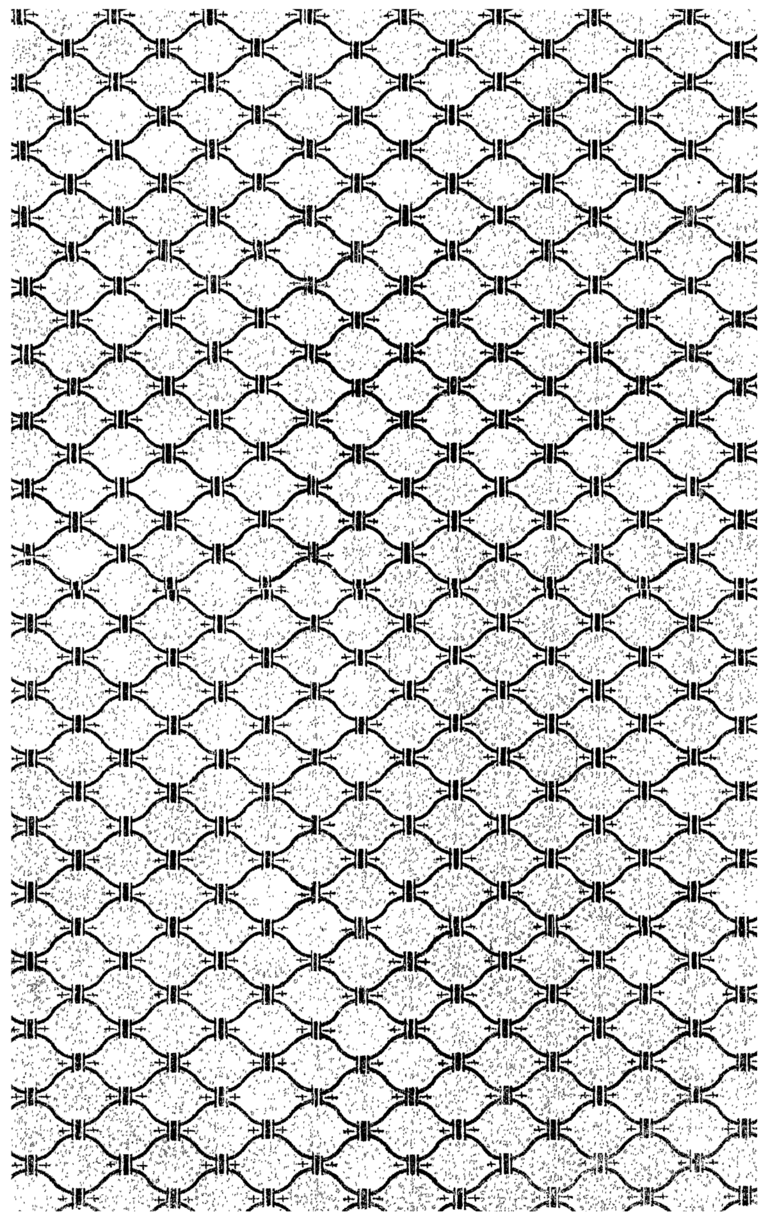






التربية في العصور الوسطى

تأليف الأستاذ

شرف الدين محمود خطاب

المدرس بدار العلوم العليا

الطبعة الثالثة

١٣٥٢ هـ — ١٩٣٣ م

مطبعة الاستقامة

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنـا عليك توكلنا و إليك أنبنا و إليك المصير . لك الحمـد والمنة ومنك الهداية وبك الاستعانة . وعلى نبيك المصطفى ورسولك المجتبى صلاة وسلام من عباده المخلصين ، دائمـان إلى يوم الدين

وبعـــد فقد أصبح تاريخ التربيـة من مواد الثقافة لطلاب مدارس المعلمين على اختلاف درجاتها . وقد عنى به الفرنجة أيمـا عناية . فكثرت مؤلفاتهم فيه . ولـكنه لم يحظ من كتاب العربية بمـا حظى به سواه من مواد الثقافة . فلم ينشطوا للتأليف فيه كما نشطوا لسائر العلوم . ومع قلة ما كتب فيه بالعربية ، تجد التربية فى العصور الوسطى أغفل أمرها أو كاد .

وقد أتيحت لى فرصة تدريس التربية فى تلك العصور لطلاب دار العلوم فألفت لهم فيها مذكرة وجدها من اطلع عليها من أساتذة التربية كافية لسد الثلمـة ولو إلى حين . فنقحتها وأضفت إليها زيادات رأيتها هامة ، واستعنت الله فى نشرها باسم (التربيـة فى العصور الوسطى)

وقد جزأتها جزأين :ـــ الأول فى التربية الإسـلامية ، والثانى فى التربية بأوربا فى العصور الوسـطى

فأما الجزء الأول فمراجعه مذكورة فى تضاعيف البحوث . والفضـل فى الإرشاد إليها وتسهيل العثور عليها للبحاثة المفضال خليـل طوطح صاحب كتاب (حظ العرب من خدمة التربية)

(Contribution of the Arabs to Education)

وأما الجزء الثانى فأساسه بحوث التربية بالعصور الوسطى بكتابين من الكتب المعتمدة فى تاريخ التربية :—

(١) مختصر تاريخ التربية ؛ تأليف منرو

(٢) آراء المربين ، تأليف أوسكر براونج

وأنى لأرجو أن يجد فيه طلبة التربية مايطفىء ولو قليلا من غلتهم ويروى ولو شيئا من ظمئهم ، وبخاصة فى حال التربية والتعليم بالبلدان الإسلامية ؟

المؤلف



وفيه مقدمة لبيان البيئة الفكرية التى عاش فيها المسلمون . ثم بحوث فى غايات التربية لديهم ومناهجها ومدارسها وأساليب التعليم والتعلم بها والنظام المدرسى أو وسائل التأديب . ثم حظ البنت العربية فى العصور الإسلامية من التربية . ثم آراء طائفة من رجالات العرب فى التربية والتعليم كالفارابى وابن سينا والغزالى و إخوان الصفاء وابن خلدون

المقـــــدمة

البيئة الفكرية فى العصور الإسلامية

البيئة الفكرية لدى أية أمة هى علومها وثمار عقول أبنائها ونتائج قرائحهم فى عصورها المختلفة .

والبيئة الفكرية كالبيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية : لهـا ما لها من الأثر الفعال فى تربية الأمم ونشأتها .

فمعرفة بيئات أية أمة ضرورية لطالب التربية . إذ أنها تساعده على إصدار حكم قريب من الصحة فى حال التربية والتعليم لدى تلك الأمة .

فأما البيئات الطبيعية والاجتماعية فتعرفان بالرجوع إلى علم تقويم البلدان والتاريخ . وأما البيئة الفكرية فتعرف بالاطلاع على الأدب وتاريخ آداب اللغة . ولكنا ألفنا أن نرى ونسمع عند الكلام على التربية لدى أية أمة مقدمة مقتبسة من تاريخ الأدب لبيان البيئة الفكرية . وهذا هو المبرر الوحيد لإثبات الفذلكة الآتية هنا لبيان علوم العرب ومعارفهم فى العصور الإسلامية : —

(١) فى صدر الإسلام وما بعده إلى سقوط الدولة الأموية

قضى النبى صلى الله عليه وآله وسلم أيامه الغر ، وهو يُلَقَّى علومه ومعارفه من لدن حكيم عليم : كان الوحى مرجعه فى الحيرة ، وسراجه فى ظلمات الشبهة وكان العرب يختلفون إليه ، ويغشون مجالسه ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم .

ولما اختاره الله لجواره ، اشتغل العمران من بعده بمدافعة الأعداء ، وجمع كلمة الأولياء ، ونشر الإسلام فى سائر الأرجاء .

ثم كان من بعد ذلك ما كان من كيد عبد الله بن سبأ وأضرابه للإسلام والمسلمين ، حتى انتهى الأمر بقتل سيدنا عثمان رضى الله عنه بلا حكم شرعى ثم تلا ذلك ما كان بين على ومعاوية وأنصارهما من الخلاف على الخلافة ،

والوقائع التى انتهت بتفرق المسلمين شيعا وأحزابا ، وبما شهده العصر الأموى من حروب الخوارج وغير الخوارج .

كل ذلك ، مع غلبة الأمية على العرب وقلة القراء والكتاب من المسلمين ، عاق المسلمين عن التأليف والتصنيف . فكانت علومهم شفوية تحفظ فى الصدور ويتناقلها الرواة . فلم يحاولوا سوى تدوين القرآن الكريم ثم جمع صحفه فى عهد أبى بكر بإشارة عمر رضى الله عنهما . ثم كتابة ما بتلك الصحف فى المصاحف على عهد عثمان رضى الله عنه .

وكذلك لم يضعوا إلا قليلا من مبادئ علم النحو : وضعها أبو الأسود الدؤلى بإرشاد على رضى الله عنه . وكذلك دونوا بعض الأحاديث : دونها الزهرى بأمر من عمر بن عبد العزيز . يعلم ذلك من له إلمام بالتاريخ

(٢) فى الدولة العباسية

لما آلت الخلافة للعباسيين وفرغ الناس من الحروب وكثر القراء والكتاب فى الدولة ، اشتغل الناس بتحصيل العلم وتدوينه . وشجعهم على ذلك الخلفاء . فقد كانوا يقربون منهم العلماء ويجزلون لهم العطاء . فكان من تلك النهضة المباركة علوم جمة خدموا بها القرآن والدين الإسلامى

منها العلوم اللسانية : وهى النحو والصرف والعروض وعلوم البلاغة ومتن اللغة . ومن أئمتها سيبويه ، والخليل بن أحمد ، وأبو عبيدة[١] والكسائى وعبد القاهر الجرجانى صاحب كتابى دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة

ومنها العلوم الشرعية . وهى الفقه وأصوله ، والتفسير ، والحديث ، وعلم الجدل . والكلام ، وممن اشتهر بها ، بعد الأئمة أصحاب المذاهب الأربعة ، أبو الحسن الأشعرى[٢] ، والغزالى ، والفخر الرازى

---

(١) هو أجمع سائر الرواة لعلوم العرب وأخبارهم وأنسابهم ، واسع المعرفة باللغة ولد سنة ١١٠ وتوفى سنة ٢٠٩

(٢) من علماء الكلام فى القرنين الثالث والرابع الهجريين . توفى سنة ٣٢٣

ولم تكن عناية العرب بالتاريخ وتقويم البلدان أقل من عنايتهم بالعلوم اللسانية والشرعية ، حتى لقد قال بعض المؤلفين : إن العرب يحسبون من الطراز الأول بين الجغرافيين . والذين اشتهروا فى هذا الميدان من عرب الإسلام كثير . منهم الطبرى صاحب التاريخ المشهور ، وابن الأثير . ومنهم المسعودى المتوفى بالقاهرة سنة ٣٤٦ ﻫ ، وابن حوقل صاحب كتاب المسالك والممالك والمفاوز والمهالك . كتبه سنة ٣٦٧ ﻫ . وقد ترجم إلى الفارسية ثم إلى الانجليزية . والشريف الإدريسى الذى ألف لصاحب صقلية لعهده كتابا سماه نزهة المشتاق (٥٤٨ ﻫ) ، وابن جبير ثم ابن بطوطة الذى ساح بافريقية والهند والصين وروسيا وغيرها (القرن السابع الهجرى) . وأبو الفداء سلطان حماة صاحب تقويم البلدان (توفى سنة ٧٣١ ﻫ)

ولم يقتصر المسلمون على الاشتغال بتلك العلوم بل نقلوا إلى لسانهم معظم ما كان معروفا لدى الأمم قبلهم ، ودرسوه حتى فهموه ، ومحصوه حتى خلصوه من الأخطاء . وزادوا فيه . واستخرجوا منه ما نسميه بالعلوم الدخيلة .

فما اقتبسوه من تلك الأمم ، ولم يلبثوا أن حذقوه ، فن البناء . لم يلبث العرب أن هيأ لهم الإسلام حياة الاستقرار حتى بنوا البصرة والكوفة وواسط ، ثم بغداد ، ثم القاهرة وسواها . وقد حاكوا الاغريق فى تشييد المبانى الفخمة والقصور الشامخة .

فمسجد عمر ببيت المقدس ، والمسجد الأموى بدمشق ، وقصر الحمراء بالأندلس ، والأبراج ، والجسور ، والفوارات ، والقصور التى لا تزال ماثلة بسورية ، وفلسطين ، ومصر ، وشمالى أفريقية ، وبلاد الأندلس — كلها تدل على براعة العرب فى فن هندسة المبانى

وكذلك ورثوا عن الاغريق والهنود والفرس فنّ الطب . فبرع فيه منهم ابن التلميذ الذى كان يدعى جالينوس زمانه . ، وسنان بن ثابت رئيس اللجنة التى كان يتقدّم للامتحان أمامها كل من يرغب فى الحصول على براءة

لمزاولة تلك المهنة .

وابن سيناذو الصيت الذائع وصاحب كتاب القانون الذى بذّ كتب ابقراط وجالينوس ، وبقى عماد أساتذة الطبّ بجامعات أوروبا حتى القرن السابع عشر الميلادى ، كما شهدت دائرة المعارف الانجليزية .

والرازى[1] رئيس دور الشفاء بالرّى وبغداد ، وصاحب كتاب الحاوى الذى دعاه سديو « مجموعة طبية ذات قيمة عظيمة » . وأخـذوا عن المصريين والـكلدان والفرس والاغريق علم الـكيمياء فخلصوه من الأوهام ، وباعدوا مابينه وبين السحر والشعوذة ، وأجروا فيـه التجارب بآلات ابتـدعوها وسموها . وعنهم أخذها الفرنجة بأسمائها . وحللوا المواد بمالك الطبيعة الثلاث ، وميزوا بين الحوامض والقلويات ، وحولوا سموم الطبيعة شفاء للأمراض وبلسما للجراح .

وممن برع من العرب فى الـكيمياء جابر بن حيان الـكوفى (القرن ٨ و٩) فنى مكاتب لنـدن وباريس مخطوطات باللاتينية هى ترجمـة لبعض مؤلفات جابر فى الـكيمياء . هذه المخطوطات شاهدة بفضله ، دالة على علوّ كعبه ، سواء أذهبنا إلى صحة نسبتها كلها إليه ، أم جارينا من يزعم من علماء الفرنجة أن بعضها لاتينى الأصل ، وأنه إنمـا نسب إلى جابر لترتفع قيمته فى أعين الناس وتعظم ثقتهم به . فإن فى ذلك شهادة من أولئك العلماء صريحة فى دلالتها على صيته الذائع وعلمه الواسع .

وكذلك نقـل العرب عن الإغريقية علم الطبيعة نقلا صحيحا وبذلوا فى خدمته تنقيحا وتنظيما وابتكارا ، من الجهود مايجعلهم فى مصاف فحول العلماء المقدمين فى العصور الحديثة أمثال نيوتن وفراداى

---

(١) هو أبو بكر محمـد بن زكريا الرازى ، أشهر من نبغ من الأطباء فى القرن الثالث الهجرى . توفى سنة ٣٢٠ هـ . وهو غـير فخر الدين الرازى صاحب التفسـير الـكبير . فان هذا متأخر عن ذاك بكثير . إذ توفى سنة ٦٠٦ هـ

ولما اتصل العرب بالفرس والاغريق أضافوا علومهم فى الفلك إلى معارفهم فى التنجيم . فقد ترجموا المجسطى لبطليموس . واختار المأمون سلما ليحل نظرياته الفلكية ويشرحه ويوضح معمياته . وأنشئوا المراصد ببغداد ودمشق والقاهرة واشبيلية ، واستخدموا الآلات الفلكية . وكانت لهم خبرة بالتنبؤات الجوية . وللكندى منهم (٨٥٠ م) كتاب فى ذلك . وأصله المخطوط لايزال باقيا . وقد طبع بالبندقية سنة ١٥٠٧م وفى باريس سنة ١٥٤٠م

هذا إلى عنايتهم بالرياضة ، والفلسفة ، والمنطق ، والموسيقى . فقد استعاروا من الهنود الأرقام ونظام العد . وعنهم أخذه الفرنجة فكفوا عبء العد على الطريقة الرومانية

وعن الإغريق أخذوا الهندسة .

أما الجبر فمن اختراعهم . وعنهم أخذه الفرنجة مادة واسما . وممن لهم الصيت الذائع فيه من رجالات العرب الخوارزمى [1] . فله فيه كتاب مخطوط سنة ٧٤٣ هـ (١٢٤٢ م) . وهو محفوظ مع كتب له فى الحساب بمكتبة اكسفورد بانجلترا . وقد طبع وترجم بلندن سنة ١٨٣١ م

وكانت فلسفة أفلاطون وارسطو معروفة للعرب منذ أوائل القرن التاسع الميلادى . وقد أحبها المأمون وشجع على نشرها ، لميله إلى حرية الفكر وهى روح الفلسفة الاغريقية . ونجد فى أواخر القرن العاشر وما بعده مبرزين فى الفلسفة أمثال الفارابى ، وابن سينا ، ثم ابن رشد ذى الفضل الأكبر فى بسط فلسفة أرسطو ونشرها حتى وصلت إليها أيدى الفرنجة بالعصور الوسطى فكانت من عوامل النهضة الأوربية .

ورث العرب تلك العلوم عن الأقدمين ورقوها وزادوا فيها . ومازالت

---

(١) هو أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمى . شهد المائة الثالثة من الدولة العباسية . أول من نقل الحساب الهندى والأرقام الهندية . وهو غير أبى بكر الخوارزمى الكاتب المشهور ، وإن كانا من أهل عصر واحد

أمانة بأيديهم حتى ورثها عنهم الفرنجة لما اتصلوا بهم فى الأندلس والحروب الصليبية ، إذ تعلموا العربية ، وأكبوا على ترجمة كتبها الزاخرة بالعلوم والمعارف إلى اللاتينية لسانهم المنتشر بينهم فى تلك الأيام . وإليك مثالا جرار كريمونا . فقد كان منذ فتوته ضليعا فى العلوم اللاتينية . وكان ذا شغف بعلوم الأقدمين . فساقه ذلك إلى طليطلة حيث عثر على المجسطى الذى بحث عنه على غير جدوى بين اللاتينيين . وكذلك عثر على مئات من الكتب العربية فى شتى العلوم والفنون . فرثى لحال اللاتينيين وفقرهم فى العلوم والمعارف . وتعلم اللغة العربية ليترجم تلك الكتب . فكانت ترجمته للمجسطى سنة ١١٧٥ الميلادية ولم توافه منيته سنة ١١٨٧ م حتى ترجم حوالى مائة كتاب من العربية إلى اللاتينية .

وأنه لا يسعنا أن نختم هذا الفصل دون أن نثبت ماشهدت به إحدى الصحف الانجليزية للعرب ، إذ قالت : — « إنا لمدينون للعرب كثيرا . فإنهم الحلقة التى وصلت مدينة أوربا قديما بمدنيتها حديثا . وبنجاحهم وسمو هممهم تحرك أهل أوربا لإحراز المعارف ، واستيقظوا من النوم العميق الذى كانوا فيه أيام العصور المظلمة . ونحن مدينون لهم كذلك بترقية العلوم الطبيعية والفنون النافعة وكثير من المصنوعات والمخترعات التى نفعت أوربا وقدمتها فى الحضارة والمدنية » .

غايات التربية الإسلامية

كان النبى عليه الصلاة والسلام قدوة الدعاة إلى التربية والتعلم قولا وفعلا . فمن أفعاله فى ذلك تحريره أسرى الحرب على شرط أن يعلموا طائفة من المسلمين القراءة والكتابة . وكذلك طلبه من الشفاء العدوية أن تعلم زوجه حفصة الكتابة وزخرفها كما سيأتى . ومن أقواله : طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، العلماء ورثة الأنبياء . وكذلك نجد فى أقوال الصحابة ومشهورى الزعماء من المسلمين حضا على التربية والتعليم كما سيأتى . وغرضنا هنا أن نبين ماذا كانت أغراضهم من التربية التى حضوا عليها ودعوا إليها .

إننا إذا رجعنا إلى أقوال علماء الإسلام التى نمرّ بها فى تضاعيف كتب الأدب وجمعنا مايتعلق منها بمقاصدهم فى التربية بعضه إلى بعض، أفضى بنا ذلك إلى أن لهم فيها غايات مختلفة دينية واجتماعية وتهذيبية ومادية . ولله درّ النمرى[1] (القرن ١١ م) إذ أبان عن تلك الاغراض كلها فى جملة جامعة . قال فى جامع بيان العلم : —

اطلب العلم فإنه (١) عون فى الدين (٢) ومذك للقريحة (٣) وصاحب لدى الوحدة (٤) ومفيد فى المجالس (٥) وجالب للمال .

وإنا لباحثون تلك الغايات كلا على حدة مستشهدين بالمأثور عن العرب من المنظوم والمنثور

(١) — الغاية الدينية الخلقية أسمى الغايات

معلوم أن بحث التربية الإسلامية إنما هو بحث من بحوث التربية فى العصور الوسطى التى سادت فيها بأوروبا وبالشرق الأدنى فكرة أنّ الدنيا دار فناء، وأنّ الآخرة هى دار البقاء، والتى كان المعلمون بها من رجال الدين . كانت الحكومة العربية دينية : كان خليفة المسلمين ملكهم ورئيسهم الدينى وكان قائدهم فى الحروب وإمامهم فى الصلاة . والقرآن الكريم كتاب المسلمين الدينى . وهو فى الوقت نفسه منبع المعارف وأصل العلوم . لاتجد علما دوّنه المسلمون أو نقلوه إلى لسانهم إلا والحافز عليه والداعى إليه خدمة القرآن الكريم، سواء فى ذلك العلوم اللسانية ، والعلوم الشرعية والعلوم الحكيمة ، وسواها من العلوم الدخيلة . ثم ان كسب الاخلاق الفاضلة يمتّ إلى الدين الإسلامى بصلة متينة . فإنما بعث صلى الله عليه وآله وسلم ليتمم مكارم الأخلاق . فكان طبعيا بعد ذلك أن يكون التفقه فى الدين ، وتعلم أحكامه والتحلى بالأخلاق الفاضلة ، والتخلى عن الرذائل ، أسمى غايات التربية الإسلامية

---

(١) النمرى هو أبو عمر يوسف بن عبد البر النمرى القرطبى (٤٦٣ هـ ١٠٧١ م) وقد طبع مختصر لكتابه هذا بالقاهرة بمطبعة الموسوعات سنة ١٣٢٠ هـ

(٢) — الغاية الاجتماعية

كان الدين والأخلاق الغرض الأعلى للتربية الاسلامية . لكنهما لم يكونا غرضها كله . فقد كان المسلمون يرمون كذلك إلى معان اجتماعية : وكانوا يتخذون من العلم وسائل للعز والجاه والرفعة بين الناس .

يدل على ذلك ما امتلأت به كتب آدابهم من حكم منظومة ومنثورة مأثورة عن زعمائهم الذين تعد كلمتهم قانونا أو « على الأقل » تعبيرا عن الرأى العام والفكر السائد . قال مصعب بن الزبير لابنه : «تعلم العلم . فان يكن لك مال ، كان لك جمالا . وإن لم يكن لك مال كان لك مالا » . وقال عبد الملك ابن مروان لبنيه : « يابنى ، تعلموا العلم . فان كنتم سادة فقتم ، وإن كنتم وسطا سدتم . وإن كنتم سوقة عشتم » . وقديما حفظ أولاد المكاتب ، ونظمت نماذج الخط من مثل هذه الحكمة شيئا كثيرا : — « تعلم يافتى تكن أميرا ، ولا تكن جاهلا ترعى حميرا » . وأنشد النمرى فى جامع بيان العلم :

وما العلم إلا ما أفادك قوة   تنال به عزّا وتنقاد للتقوى

وإذا كان الغزالى ينصح المتعلم أن يقصد بطلب العلم القرب من الله ، ولا يقصد به الرياسة والجاه ؛ وإخوان الصفاء يقولون : « كل علم وبال على صاحبه ما لم يرد به وجه الله وما لم تطلب به الآخرة » ؛ والزرنوجى يقول : « ينبغى أن ينوى المتعلم بطلب العلم رضا الله تعالى والدار الآخرة ، ولا يطلب به الجاه ، وإقبال الناس إليه والكرامة عند السلطان » ، وينشد :

من طلب العلم للمعاد   فاز بفضل من الرشاد

فيالخسران طالبيه   لنيل فضل من العباد

إذا كان هؤلاء العلماء الأعلام يحكمون تلك الأحكام الدالة فى ظاهرها على وجوب أن يكون الغرض من التعليم دينيا محضا ، فليست أقوالهم فى الحقيقة مناقضة لدعوانا أن التربية الاسلامية كانت ترمى إلى غرض اجتماعى . فإن مافيها من الحض إنما هو من قبيل ردّ الفعل ، إذ رأوا فى الناس ، معلمين

ومتعلمين ، إغفال الغرض الأسمى لطلب العلم والانصراف فيه إلى الأغراض الدنيوية من طلب الجاه واستجلاب المال

(٣) — العلم لذاته

امتاز الأغريق فى عصورهم الذهبية بمحبة الحياة لذات الحياة ، ومحبة الفن لذات الفن ، ومحبة البحوث الفكرية والتأملات العقلية لذاتها . فلم تجىء بعدهم أمة بذّتهم فى هذا المضمار . ومع هذا فقد كان من العرب مفكرون رفعوا من شأن التربية وفسروها التفسير الراقى الذى فسرها به فلاسفة الأغريق القدامى . قال الزرنوجى فى تعليم المتعلم : « كفى بلذة العلم والفقه والفهم داعيا وباعثا للعاقل على تحصيل العلم » . وكان من المسلمين أساتذة وهبوا حياتهم للتفوق العلمى والبحوث الدائبة للوصول إلى الحق . وقد نصبوا فى ذلك أيما نصب غير مبتغين من المكافأة سوى التبحر فى العلم والمسرة التى كانوا يجدنها فى العمل على نشره . يدلّ على ذلك ارتحالهم فى طلب العلم . فمنهم من رحل من أصفهان ببلاد الفرس إلى معرة النعمان بالشام على بعد ما بين البلدين ، غير مكترث لوعثاء السفر ومشاقه . ولم يكن له من غرض سوى تحقيق بعض مسائل العلم على أبى العلاء . وأمثال هذا من طلاب العلم من المسلمين كثير . تقرأ تاريخ حياتهم فتجدهم تحملوا المشاق واقتحموا العقبات وساحوا فى أرجاء الدنيا العربية من الفرس والعراق والشام ومصر والأندلس ، ليدرسوا على مشهورى العلماء ، وليطفئوا نيران ظمئهم إلى العلوم بالرّى من مناهله .

(٤) — الغرض النفعى

لاشك فى أن كثيرا من طلبة العلم من عرب المسلمين لم ينتظموا بسلك مدارسه فى أيامهم إلا وبعض الغايات المادية نصب أعينهم يريدون نيلها ، متوسلين إليها بالعلم . فقد كانت وظائف القضاء والتعليم والإدارة كما هى اليوم غايات سعوا إليها كما نسعى الآن إليها . وقد كانت فى أيامهم كما هى فى

أيامنا تقتضى تربية تؤهل لها . من أجل ذلك قصدوا دور العلم لعين السبب الذى من أجله نقصدها اليوم ـ ليعدوا أنفسهم للحياة ، غير مفكرين فيما عدا ذلك من الغايات إلا قليلا .

وقد قدمنا لك فيما اقتبسنا من كلام مصعب بن الزبير وعبد الملك بن مروان والنمرى مايدلّ على أن المادّة كانت فى نظر الأقدمين من المسلمين مقصدا من مقاصد التربية لمن تعوزه المادة .

وهذا ابن سينا ترجع إلى رسالته فى السياسة فتجده من أنصار الغرض الكسبى للتربية ، إذ يدعو إلى التعليم الفنى والصناعى بعد أن يتم الغلام التربية الابتدائية. قال :ـــ « إذا فرغ الصبى من تعلم القرآن وحفظ أصول اللغة ، نظر عند ذلك إلى مايراد أن يكون صناعته ، فوجه لطريقه . . . ، بعد أن يعلم مدبر الصبى أن ليس كل صناعة يرومها الصبى ممكنه له مواتية : لكن ماشاكل طبعه وناسبه »

وهذا ابن خلدون يخبرك أن من العرب من طلب المال بدراسة الكيمياء

المدارس الاسلامية

إن المدارس إنما تنشأ للتعليم الفنى : لتعليم القراءة والكتابة لاتخاذهما أداة لارث علوم السلف وتدوين علومنا لتوريثها الخلف

والظاهر أنه لم تكن كل العلوم لدى الأمم القديمة تستأهل التدوين ، وتستأهل بالتالى أن تعلم القراءة والكتابة من أجلها . يدل على هذا أن كان للوثنيين من عرب الجاهلية علوم لم يروا من أجلها أن يخلعوا من أعناقهم ربقة الأمية ، كعلوم الطب والتنجيم . وكان لديهم الشعر والأمثال ـــ وهما ماهما ـــ ومع حرصهم عليهما لم يروهما أهلا لأن يقيدا بالقلم على القرطاس . وإنما اكتفوا فى شأنهما بالحفظ والرواية . شأنهم فى ذلك شأن اليونان القدامى ، إذ لم يكتبوا ولم يقرءوا مع ما كان لديهم من أشعار هوميروس وقوانين ليكرغ . وإنما اكتفوا بحفظ مختارات منها . يعرف ذلك من له إلمام بتاريخ اليونان .

وإنما كان العلم الوحيد الذى استأهل فى نظر القدامى أن يدون ، والذى حفز إلى تعلم القراءة والكتابة ، هو علم الدين . يدل على ذلك أنه بينما كان الوثنيون من عرب الجاهلية على ما هو معروف فيهم من الأمية ، كان اليهود والنصارى فى جزيرة العرب كتاباقارئين . ولذا سماهم القرآن « أهل الكتاب »

ولذا لم يلبث أن أنزل القرآن الكريم عليه صلى الله عليه وآله وسلم حتى رأيت العرب انصرفوا إلى تعلم القراءة والكتابة والحض عليه ، وقدوتهم فى ذلك النبى الكريم صلى الله عليه وآله وسلم إذ حبذ تعلم زوجه حفصة ، وكلف فقراء الأسرى أن يفدوا أنفسهم بتعليم المسلمين القراءة والكتابة

فعلوا ذلك ليحفظوا القرآن ، ويتفقهوا فى الدين ، ويحصلوا أحكامه . ومن ثم نشأت الحاجة إلى المدارس ومعلمى الصبيان .

١ - فى صدر الاسلام

ما المدرسة إلا مكان يجتمع فيه العارف بالكتابة والقراءة بمن لم يسعده الحظ بمعرفتهما ، ليعلم الأول الثانى . وذلك قد يكون تحت شجرة من شجر النخيل أو فى خباء أو أحد المنازل الخاصة .

ولكن الغالب أن تعليم الصبيان من عرب المسلمين كان بالمساجد . فاذ كان الدين هو الدافع إلى تعلم القراءة والكتابة كما بينا ، كان من المحتمل كثيرا أن يختار الجامع ، مقام الشعائر الدينية ، مكانا لتعلمهما والبراعة فيهما ، كما اختار أهل الكتاب الصوامع والبيع . ثم ان الحاضر المشاهد والمحقق من حوادث التاريخ يعين على ذلك الذى ذهبنا إليه من أن الغالب أن تكون المساجد هى مدارس المسلمين فى صدر الإسلام . فهذا الأزهر أهم مراكز التعليم ببلاد الإسلام لا يزال يحمل اسم الجامع . وهذه فلسطين ليست فيها المدارس المنفصلة عن المساجد إلا من محدثات هذا العصر . ولا يزال الصبيان من أبنائها يتعلمون فى المسجد بصحنه وشجر توته على الفقيه المعمم . ولا

يزال المعلم لديهم — وفى جهات كثيرة من بلادنا — يحمل اسم الخطيب أو الإمام، ويؤدى كثيرا من وظائف رجال الدين. وكان الطلبة بجامع دمشق يلتفون حول معلميهم حلقات — بذلك خبرنا ابن جبير. ولم تشهد الأندلس مدارسها ومعاهد تعليمها منفصلة عن المساجد كما أخبر المقرى في نفح الطيب (راجع الجزء الثانى). وقد كان المقرى مكى القيسى[1] معلما ببعض تلك المساجد كمسجد قرطبة والنخيلة والزاهرة. وفى الجزء الأول من الوفيات أن أبا القاسم الداركى[2] كان يعلم بجامع ابن أحمد ببغداد. فليس غريبا أن نحكم أن المساجد كانت مدارس منذ صدر الإسلام.

٢ — فى عهد الأمويين

كانت هذه الدولة فى حروب دائمة أهلية وخارجية لتحافظ على بقائها وتدافع عن كيانها. وقد كان زمنها زمن انتقال من عهد البداوة وحياة الارتحال إلى عهد الحضارة وحياة الاستقرار

وكان العرب مع ذلك مشغولين بالتوفيق بين أنفسهم وبين البيئة الجديدة التى وجدوا بها، ومحاولة فهمهم لما ورثوا من ثقافة الإغريق والفرس: كان همهم توطيد ملكهم فيما فتحوا من الأقطار وتعريب أهلها لغة ودينا، وجعل العربية لغة الحكومة والإدارة بدل اليونانية والسريانية بسورية، والقبطية بمصر، والآرامية بالفرس والعراق

---

(١) هو من القراء ولد سنة ٣٥٥ بالقيروان. وجاب الآفاق حتى انتهى به المطاف إلى الأندلس سنة ٣٩٣ وعلم بمساجدها كما رأيت. وتوفى بها سنة ٤٣٧. وبذا تعرف أنه غير المقرى صاحب نفح الطيب.

(٢) الداركى (بفتح الراء) نسبة إلى دارك. وهى قرية من قرى أصبهان. وهو من كبار فقهاء الشافعية. نزل نيسابور سنة ٣٥٣ ودرس بها الفقه. ثم انتقل إلى بغداد. فتفقه عليه أبو حامد الأسفرايني. وأخذ عنه عامة شيوخ بغداد وغيرهم من أهل الآفاق. توفى سنة ٣٧٥ عن نيف وسبعين سنة.

كل ذلك صرف الأمويين عن التفكير بصفة جدّية فى إنشاء نظام مدرسى . ومع هذا فقد كان للعرب فى هذا العصر مدارس أتى ذكرها فى كتب السير والأدب

ففى الكامل للمبرد أن الحجاج كان معلم مدرسة بالطائف . وفى الأغانى أن الكميت الشاعر المشهور كان معلم مدرسة بمسجد الكوفة . وفى البيان والتبيين أن الوليد بن عبد الملك مر بمعلم صبيان فرأى جارية . فقال : — « ويلك ماهذه الجارية ؟ » قال « أعلمها القرآن »

وكان بجانب هذه المدارس قصور الأمراء ومنازل الأغنياء . كانت مقر تعليم أبنائهم على أيدى مؤدبين يربونهم تربية خاصة تناسب مستواهم الاجتماعى

٣ — فى العصر العباسى وما بعده

يمتاز العصر العباسى ومابعده من العصور العربية الإسلامية بأنها عصور هدوء واستقرار . ولذا كثر الإقبال فيها على طلب العلم . وتبع ذلك انتشار المدارس وكثرتها وتنوعها .

وقد مرّت المدارس فى هذه العصور بدورين : —

(ا) الدور العربى

بظهور الإسلام نشأت المدارس نشوءا طبيعيا اختياريا تدريجيا . فكانت قليلة ضئيلة فى صدر الإسلام أوفى الربع الأول من القرن السابع الميلادى . ومازالت تنمو حتى أصبحت فى صدر الدولة العباسية (القرنين التاسع والعاشر) كثيرة منتشرة فى البلدان الإسلامية انتشارا عجيبا

وقد كانت المدارس فى هذا الدور على درجات . فقد كانت الكتاتيب لتعليم الصبيان . وأعان الكتاتيب فى ذلك بعض المنازل والحوانيت . وكانت مجالس الأدب والعلم للتعليم الراقى . ثم كانت المدارس العالية كبيت الحكمة ببغداد للتعليم العالى . وإنا ذاكرون شيئا عن كل منها : —

الكتاتيب — ورد ذكر الكتاتيب فى كتب الأدب العربية كثيرا . فمن الأمثال التى وردت بالبيان والتبيين للجاحظ ، قولهم « أحمق من معلم كتاب » وسيمرّ بنا ذكرها فيما اقتبسنا من الأغانى وغيره .

وقد كان الأطفال بتلك الكتاتيب موضع اهتمام أهليهم ومعلميهم . فقد كان الناجح منهم يحتفل بنجاحه ، فيركب دابة ويطاف به حول البلد وينثر اللوز على رأسه

المنازل والحوانيت — كانت المنازل والحوانيت أماكن تعليم مكملة لما تقوم به المساجد والكتاتيب . والشواهد على ذلك كثيرة . ذكر ياقوت أن « إسحاق بن عمار المعروف بابن الجصاص صاحب عيسى بن موسى [1] ولم يزل معه . فكان الناس يقرءون عليه الشعر فى دار عيسى . وعنه أخذ الكسائى الشعر . وكان به عالما . مات أواخر أيام المنصور . وكان إذا تكلم فى مجلس صمت الناس » . وذكر كذلك أن « إسماعيل بن الحسين صاحب كتاب الفخرى تفرد بمرو بالتصدر لإقراء العلوم على اختلافها فى منزل ينتابه الناس على حسب أغراضهم . فمن قارىء للغة ، ومتعلم فى النحو ومصحح للغة ، وناظر فى النجوم ، ومباحث فى الأصول ، وغير ذلك من العلوم » [2]

(١) موسى هذا هو أخو السفاح والمنصور . فيكون عيسى ابنه هو ابن عم المهدى بن المنصور . وقد كانت الخلافة لعيسى هذا بعد المنصور بمقتضى عهد السفاح . فلما تولى المنصور الخلافة وشب ابنه المهدى عز عليه أن يلى بعده ابن أخيه ويحرم ابنه . فساوم عيسى أن يخلع نفسه من ولاية العهد ، على أن تكون رتبته تلو رتبة المهدى . فأجاب الى ماطلب منه آخر الأمر . وكان ذلك سنة ١٤٧ هـ . ولما ولى المهدى الخلافة ، طلب من عيسى أن يخلع نفسه من الخلافة لتكون لولدى المهدى موسى وهارون . فكان ما أراد المهدى .

(٢) اسماعيل بن الحسين هذا من نسل على بن أبى طالب وهو مروزى . ولد بمرو سنة ٥٧٢ . وقصد بغداد سنة ٥٩٢ .

وفى الأغانى أن عمرة[1] كانت امرأة جزلة يجتمع الرجال عندها لإنشاد الشعر والمحادثة . ومعلوم أن إنشاد الشعر والمحادثة من الوسائل الفعالة فى التربية . وذكر صاحب الأغانى أيضا عن بعضهم ، قال : — رأيت أبا العتاهية وهو جرار يأتيه الأحداث والمتأدبون فينشدهم أشعاره ، فيأخذون ما تكسر من الخزف فيكتبونها فيها

وكان أبو العتاهية — والشىء بالشىء يذكر — أينما يمم يتبعه الصبيان لينشدهم شعره ويدربهم على قول الشعر . حدث مرة أن مر ببعض القبور فسأل من تبعه من الأحداث أن يجيزوا قوله : — « ساكنى الأجداث أنتم » فحاولوا حتى إذا أعياهم الأمر ، قال لهم خذوا عنى . فارتجل قصيدة طويلة على الوزن والروى السابق ، منها :

ساكنى الأجداث ، أنتم مثلَنا بالأمس كنتم
ليت شعرى ماصنعتم أربحتم أم خسرتم

مجالس الأدب — مما يحمد للعرب فى شأن مجالس العلم والأدب فى هذا العصر ، أنها كانت اختيارية ، يتطوع العلماء بعقدها لتكون مناهل يردها من بهم ظمأ للعلوم والمعارف . وبها هيئت فرص كثيرة لنشر الثقافة والتعليم . وقد جاء ذكرها فى مواضع كثيرة من كتب التراجم والأدب كالأغانى . فمما جاء فيه عنها : إن على بن جبلة الشاعر كان أصغر أولاد أبيه . وكان يرق عليه . وكان قد جدر فذهبت إحدى عينيه فى الجدرى . ثم نشأ فأسلم به إلى الكتاب . فحذق بعض مايحذقه الصبيان . فحمل على دابة ونثر عليه اللوز . فوقعت على عينه الصحيحة لوزة . فذهبت . فقال الشيخ لولده : أنتم لكم أرزاق من السلطان ، فإن أعنتمونى على هذا الصبى ، وإلا صرفت بعض أرزاقكم إليه . فقالوا : — وما تريد ؟ قال — تختلفون به إلى مجالس الأدب

---

(١) إحدى نساء بنى جمح رهط أبى دهبل الجمحى الشاعر الاسلامى

قالوا : — فكنا نأتى به إلى مجالس العلم ونتشاغل نحن بما يلعب به الصبيان . فما أتى عليه الحول حتى برع ، وحتى كان العالم إذا رآه ، قال لمن حوله : — أوسعوا للغوى" !

بيت الحكمة — أنشىء بيت الحكمة أيام الرشيد على ما ذهب إليه ابن خلكان . فقد ذكر أن علّان الشعوبى الفارسى النسابة اعتاد أن يترجم الكتب ببيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة .

ويؤخذ من اسم « بيت الحكمة » أنه كان للعلوم والحكمة . والمراد بها فى عرف العرب فى تلك الأيام ما يشمل الطبيعة والكيمياء والفلك وما شابهها مما يطلق عليه اليوم اسم العلوم فى نحو كلية العلوم ، والقسم العلمى بالمدارس الثانوية . وإذاً فقد كان بيت الحكمة كلية علوم أو معهدا علميا .

وقد تعرف المنزلة التى كانت لتلك الكلية من الكفاية التى كانت لأساتذتها . فقد كان قيّمها سَلَمًا الذى كان من الكفاية بحيث أرسله المأمون إلى بلاد الإغريق للنقل والترجمة . وقد كان العالم الفذ الذى استطاع دون سواه أن يحل النظريات الرياضية بالمجسطى كتاب بطليموس . فعهد إليه المأمون بشرح ذلك الكتاب وكشف معمياته . وكذلك كان الخوارزمى الرياضى الفلكى صاحب المؤلفات فى الجبر (كما أشرنا آنفا) من رجال هذه الكلية وأمين مكتبتها .

وفى تاريخ الحكماء لابن القفطى ما يمكن أن يعطينا فكرة عن منهج الدراسة ببيت الحكمة . فقد ذكر عن طالب تقدم لنيل درجتها أنه أدّى الامتحان فى الهندسة والفلك وأقليدس والمجسطى والرياضيات والمنطق .

وقد كان ببيت الحكمة مكتبة جمع إليها الرشيد ما كان قد نقل إلى العربية من كتب الطب والفلك وما ألف من العلوم الإسلامية ، مع ما سعى يحيى بن خالد فى جمعه من كتب الهند وما وقع للرشيد من كتب الروم فى أنقرة وسواها .

ثم ما أضاف المأمون إلى ذلك من كتب العلم فى لغاتها وفيها العربية واليونانية والسريانية والفارسية والهندية والقبطية

وقد كان ببغداد مرصد متصل ببيت الحكمة أنشأه المأمون . فانه لما اشتغل بنقل علوم الأوائل إلى العربية ووقف العلماء على كتاب المجسطى وفهموا صور آلات الرصد الموصوفة به ، نزعت به همته إلى تحديه . فجمع علماء النجوم لعهده وأمرهم أن يصنعوا آلات يرصدون بها الكواكب كما فعل بطليموس صاحب المجسطى . ففعلوا وتولوا الرصد بها ببغداد ودمشق . وقيدوا ماتبينوه من رصدهم . وسموه بالرصد المأمونى . وكان الذين تولوا ذلك يحيى بن أبى منصور كبير المنجمين فى عصر المأمون . وخالد المروزى ، وسند بن على ، والعباس الجوهرى .

وإذاً يمكن أن يقال بحق : إن بيت الحكمة كان جامعة العرب بأساتذته الممتازين ، وبمكتبته القيمة ، وبمرصده . ثم هو لا بد أن يكون القطب الذى دارت حوله رحى النهضة العلمية أيام المأمون . وله الشرف أن يكون أول الجامعات بالعصور الوسطى وعصر النهضة ، وانه كان منار العلم زمانا طويلا قبل أن تخلق جامعات بولونيا وباريس واكسفورد وكمبردج . وللعرب الفخر فى أنه كان على شواطىء دجلة لا على شواطىء تبر والسين والرين والتاميز ، أن مهد السبيل للنهضة العلمية التى كانت مُستهلّ العصور الحديثة : لهم الفخر كل الفخر فى أن إسحاق بن حنين وسلما والخوارزمى وسواهم من علماء العرب وعلى رأسهم جميعا المأمون ، هم الذين عبدوا طريقا سلكه من بعدهم بترارك ودانتى وأرزم وسواهم من رجالات الغرب . وإذاً فالشكر للعرب لا لهؤلاء ، اذ الفضل لهم دونهم فى بث روح النهضة العلمية التى كانت فى بدء العصور الحديثة .

وتدل الدلائل على أن بيت الحكمة بقى بعد أيام المأمون . واستمر شاهدا تحت اسم آخر وبمنهج جديد اقتضاه رد الفعل ضد حرية الرأى ، حتى أواخر القرن الخامس الهجرى (أوائل القرن الثانى عشر الميلادى) . فإنا نجد ياقوتا

يذكر دار العلم ببغداد . ويشير إلى أنها كانت متمتعة بالبقاء فى سنة ٤٧٩ الهجرية . وذكر أنه كان يعلّم بها النحو فيما يعلم من العلوم . وشهد ابن خلكان بحياة دار العلم ببغداد أيام زيارة أبى العلاء المعرى لتلك المدينة . ألا يكون ذلك اسما جديدا لبيت الحكمة ؟

ولكن الغالب أنه بعد أيام المأمون لم تبق لبيت الحكمة تلك المنزلة التى كانت له فى أيامه ، وبخاصة بعد انتشار المدارس النظامية واشتداد الحملات المتوالية على الحكماء والعلوم الحكمية التى كان بيت الحكمة مباءتها وقطب رحاها .

ب ـ الدور التركى

شهد صدر الدولة العباسية النفوذ الفارسى فى الدولة العربية . فاصطبغت الثقافة صبغة فارسية . واستعار العرب نظم الحكومة الفارسية . ثم جاء النفوذ التركى . وفى أيامهم كثرت المدارس ، وخاصة الحكومية منها إنشاء ومعاضدة . ويرجع السر فى ذلك إلى الأمور الآتية : —

(١) كسب قلوب الرعية . كان بيد الأتراك مقاليد الحكم ، وكان لهم صيت الجندية . ولكنهم لم يكونوا ذوى حسب ونسب إذ كان ينقصهم الدم العربى والانتساب إليه صلى الله عليه وسلم . فكانوا من أجل ذلك فى حاجة إلى التوسل إلى محبة الناس إياهم بأمور أخرى : توسل بعضهم بزواج بنات الخلفاء . ولكن غالبهم اتخذ لغرضه من ذلك وسيلة من معاضدة الدين والاهتمام بشؤن التربية والتعليم . كذلك فعل ابن طولون بمصر ، وعضد الدولة ببغداد ، ونور الدين بالشام ثم صلاح الدين بمصر . وآخر من نسج على هذا المنوال محمد على باشا . فكان ذلك سببا من أسباب انتشار المدارس بالبلاد العربية فى القرون التى ساد فيها النفوذ التركى . ولهذا الغرض أنفقوا بسخاء على المدارس وأجروا على الطلبة والمعلمين الأرزاق ورتبوا لهم المرتبات

(٢) رجاء الثواب والمغفرة . فقد ظهر الفساد فى تلك الأيام وعمت

المعاصى وانغمس الأمراء والسلاطين فى الملاهى ، فاتخذوا من العمل على نشر الدين بالتعليم وسيلة للرضا والغفران . يدل على ذلك ما جاء بسراج الملوك للطرطوشى . قال ما معناه : — أن نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقى ، لما بنى دور العلم للفقهاء ، وأنشأ المدارس للعلماء ، وأسس الرباطات للعباد والزهاد وأهل الصلاح والفقراء ، وأجرى الجرايات والنفقات لطلبة العلم ، — لما فعل ذلك وشى به بعضهم إلى السلطان ، قالوا : « إن الأموال التى ينفقها نظام الملك فى ذلك تقيم جيشا يركز رايته فى سور القسطنطينية » فعاتبه ملك شاه فى ذلك . فأجابه : — « أنت مشتغل بلذاتك منهمك فى شهواتك ، وأكثر ما يصعد إلى الله معاصيك دون طاعتك . وجيوشك الذين تعدهم للنوائب مستغرقون فى المعاصى والخمور والملاهى والمزمار والطنبور . وأنا أقمت لك جيشا يسمى جيش الليل إذا نامت جيوشك ليلا ، قامت جيوش الليل على أقدامهم صفوفا بين يدى ربهم ، فأرسلوا دموعهم ، وأطلقوا ألسنتهم ومدوا إلى الله أكفهم بالدعاء لك ولجيوشك . فأنت وجيوشك فى خفارتهم تعيشون ، وبدعائهم تبيتون ، وببركاتهم تمطرون وترزقون » فقبل ملك شاه وسكت !

(٣) خوف الأمراء من الأتراك عادية السلطان على ذريتهم : كان أولئك الاتراك ينشؤن فى بلاط السطان . فإذا بلغ الرجل منهم الإمارة وكثر ماله ، خشى على ماله بعد وفاته أن يقبضه السلطان ، ويحرمه أبناءه . فدرأ لما يخشى من ذلك ، كان يبنى المدارس والزوايا والربط ويقف عليها الأوقاف المغلة من ضياعه أو أبنيته . ويجعل فى شروط الأوقاف أن يتولاها بعض ولده على أن يكون له نصيب منها . وكان بذلك يأمن على أولاده الفقر لثبات الأوقاف وامتناعها أن تمتد إليها أيدى الطامعين

وإلى هذا المعنى أشار ابن خلدون فى مقدمته فى « فصل فى أن العلوم إنما تبكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة » . قال : — « ونحن لهذا العهد

نرى أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر ، لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف من السنين . فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت . ومن جملتها تعليم العلم . وقد أكد ذلك فيها وحفظه ماوقع لهذه العصور بها منذ مائتين من السنين فى دولة الترك من أيام صلاح الدين بن أيوب وهلم جرا . وذلك أن أمراء الترك فى دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يخلفونه من ذريتهم لما له عليهم من الرق أو الولاء ، ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته . فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط ، ووقفوا عليها الأوقاف المغلة يجعلون فيها شركا لولدهم بنظرهم عليها أو نصيب منها . مع مافيهم غالبا من الجنوح إلى الخير والتماس الأجور فى المقاصد والأفعال . فكثرت الأوقاف لذلك . وعظمت الغلات والفوائد . وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة جراياتهم منها . وارتحل إليها الناس فى طلب العلم من العراق والمغرب . ونفقت بها أسواق العلوم وزخرت بحارها . والله يخلق مايشاء »

(٤) تأييد المذهب الدينى للسلطان أو الأمير . فإنه فى عصر الأتراك كثر الالحاد ، وانتشرت الشكوك ، واحتدم النزاع بين أرباب المذاهب الدينية . فكانت الحاجة ماسة إلى إنشاء مدارس لبث المذهب الدينى للدولة القائمة كما فعل صلاح الدين إذ أنشأ فى بيت المقدس مدرسة الصلاحية لتنشئة رجال على عداء مذاهب الشيعة ومناوأة الدعاة لها

المدارس النظامية

من رجالات الدولة الذين اتصل اسمهم بالمدارس والتعليم الإسلامى نظام الملك . وهو فارسى أوتى مقدرة فائقة فى حسن الإدارة والحكم . وزر لملك شاه السلجوقى فى أواسط القرن الخامس الهجرى .

وتعرف المدارس التى أنشأها نظام الملك وأنفق عليها باسم المدارس النظامية ، نسبة إليه . وقد كانت تلك المدارس بالأمصار الإسلامية المعروفة :

كانت ببغداد ، ونيسابور ، وهرات ، وأصفهان ، ومرو ، والبصرة والموصل

وتعدّ هذه المدارس من الكليات ، كما تدل عليه منزلة أساتذتها فقد كان من بينهم الشيرازى ، والغزالى ، وابن الصباغ ، وابن الأنبارى . وهم جميعا من أعلام الشريعة فى القرن الخامس الهجرى .

وقد كان نظام الملك فى تأسيسه المدارس النظامية يرمى إلى أغراض سياسية : إلى تقوية مراكز الأتراك السلجوقيين فى الحكم ، وتأييد مذهب الدولة الدينى ضد سواه من المذاهب . فقد كان سلاطين الأتراك كما قدمنا فى حاجة إلى كسب قلوب الناس ونيل محبتهم . وقد كانوا من أهل السنة . فكانت المدارس النظامية ليكون ولاء الناس لأولئك السلاطين ، ولتأييد السنيين ضد الشيعة . ولذلك كان نظام الملك يسرع إلى إقصاء من يجد منه نزعة شيعية من أساتذة مدارسه ، وفصله منها .

لكنّ نظام الملك لم يكن أول من بنى المدارس لذلك الغرض فضلا عن أن يكون أول من أنشأ المدارس بالإسلام مطلقا . فالمدرسة البيهقية بنيسابور كان الغرض من تأسيسها سياسيا مثل المدارس النظامية . وقد ذكر السبكى فى طبقات الشافعية أنها كانت ولمّا يولدْ نظام الملك . وكان الغرض من إنشاء الأزهر نفس الغرض الذى من أجله انشئت المدارس النظامية . ومعروف أن الأزهر كان قبلها بنحو قرن . وإذا يكون ماحكاه بعضهم من إجماع المؤرخين المسلمين على أن نظام الملك أول من بنى المدارس فى الإسلام ، محل نظر .

وقد قدروا ما كان ينفقه نظام الملك كل سنة على المدارس النظامية والرباطات التى أنشأها بمبلغ ٦٠٠،٠٠٠ دينار

المدرسة النظامية ببغداد

كانت المدارس النظامية على طراز واحد فى أغراضها ومناهجها ، ولذا نفصل القول فى المدرسة النظامية ببغداد ، ونكتفى به فيها لأنها أشهرها ولأن مايقال

فى سواها يشبه مايقال فيها

بناؤها وحياتها : كانت هذه المدرسة بسوق الثلاثاء ببغداد ، وقد بدىء بناؤها سنة ٤٥٧ ﻫ (١٠٦٥ م) وتمت بعد سنتين . وقد قال ابن بطوطة فى وصفها : — « ويتوسط سوق الثلاثاء تلك المدرسة التى ضربت بجمالها الامثال » . وقد بقيت منذ بنيت مفتحة الابواب للطلاب ، واستمرت على ذلك حقبا طويلة . فياقوت يذكر اتصال الابيوردى بها سنة ٤٩٨ ﻫ ، وابن المبارك سنة ٥٨١ . وزارها ابن جبير فى الربع الاخير من القرن الثانى عشر الميلادى . وكانت لاتزال باقية فى أواسط القرن الرابع عشر الميلادى إذ زارها ابن بطوطة فيما زار من معاهد بغداد . وإذاً تكون قد عاشت ثلاثة قرون على الأقل

أساتذتها : من أساتذتها الذين تفخر بهم حجة الإسلام الغزالى . وقد جاء فى تاريخ اتصاله بها أنه رحل من نيسابور ، حيث تلقى العلوم على إمام الحرمين الجوينى[1] ، إلى محلة قريبة منها تدعى العسكر . وهناك التقى بنظام الملك . وكان هذا يعقد المجالس للمناظرة . فحضرها الغزالى فناظر العلماء بها فبذهم جميعا . وكان نظام الملك شاهدا فأعجب به وحل من نفسه منزلة عالية . فدعاه للتدريس بالمدرسة النظامية ببغداد . فلبى الطلب . وبقى بها مدرسا أربع سنوات من سنة ٤٨٤ الهجرية . ثم آثر حياة الزهد والانقطاع عن الناس

ومنهم أبو إسحاق الشيرازى[2] وأبو نصر بن الصباغ[3] وقد جاء بوفيات الاعيان لابن خلكان شىء من تاريخهما بها . قال : أمر نظام الملك أن يكون

---

(١) هو أبو المعالى عبد الملك بن عبد الله . سمى الجوينى نسبة إلى جوين بلد بخراسان . جاور بمكة أربع سنين ومن ثم لقب إمام الحرمين . كان إمام نيسابور بل المشرق كله فى الفقه والأصول والكلام . توفى سنة ٤٧٨ ﻫ

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن على الفيروزابادى الشيرازى الفقيه الشافعى . توفى بسنة ٤٧٦

(٣) هو أبو نصر عبد السيد بن محمد ، من فقهاء الشافعية أيضا توفى سنة ٤٧٧

أستاذها أبا إسحاق الشيرازى . ولكن لما اجتمع الناس لسماعه لم يحضر . فبحث عنه فلم يعثر عليه . فخلفه أبو نصر بن الصباغ . وبعد زمن ظهر أبو إسحاق الشيرازى بمسجده . فأظهر له تلاميذه عدم رضاهم عن إبائه ماعرض عليه السلطان . وأنذروه إن لم يجب الدعوة أن يتحولوا عنه إلى ابن الصباغ . فلم يجد مناصا من إجابتهم إلى ماطلبوا . فحل مكان ابن الصباغ بعد أن درس بها عشرين يوما فقط .

هنا انتهت عبارة ابن خلكان فى تاريخ اتصال هذين الامامين بهذه المدرسة . وكم وددنا لو أنه ذكر منه أكثر . وليته علل ماحدث .

كان أبو إسحاق الشيرازى من العلماء المشهود لهم المقدمين على من سواهم فلماذا أبى أن يكون أستاذ النظامية ؟ ثم لماذا ألح عليه طلبته حتى قبل أن يتحول من المسجد إلى النظامية بعد أن أبى وألح فى الإباء ؟

أجل ، أن ابن خلكان ذكر من شئون أبى إسحاق أنه كان إذا دخل الوقت غادر المدرسة إلى المسجد للصلاة . ثم يعود إلى المدرسة للتدريس . وقد علل هذا بأنه علم أن غالب مادة المدرسة كانت من الظلم والاغتصاب . فلعل رأيه هذا فى تأسيس المدرسة بمال حرام هو الذى حدا به على إبائه التدريس بها إذ دعى إليه أولا : وكأنه ، إذ ألحف طلبته فى دعائه وهددوه بالانصراف عنه وازن بين الضررين إجابة الدعوة وخسران الطلبة . فرأى أولهما أخفهما فاختاره .

ولعل السر فى إلحاح الطلبة عليه أن يقبل وتهديدهم إياه بالانصراف عنه ، إذا استمر على الإباء ، خشيتهم إذا بقى وبقوا بعيدين عن المدرسة أن ينقطع عنهم ما كانت تدره عليهم من الخيرات . فسخاء نظام الملك على الطلبة والعلماء معروف غنى عن البيان .

يمكن أن يكون فى ذلك أو مثله تأويل ماحدث . ولكن ماهذه المهانة التى نخشى أن تكون قد أصابت ابن الصباغ ! ؟

ومنهم رضى الدين القزوينى . وقد كان من أوائل من أعجب بهم ابن جبير

إذ زار بغداد ومجالس العلم بالمدرسة النظامية بها . ونسوق عبارته هنا لأمرين . الأول : صلتها بهذا الأستاذ . الثانى : أن فيهـا بيانا لشىء من أساليب التعليم بتلك المدرسة . قال ابن جبير : — « لا يكاد يخلو يوم من أيام جمعاتهم من واعظ يتكلم فيه . فالموفق فيهم لايزال فى مجلس ذكر أيامه كلها . لهم فى ذلك طريقة مباركة ملتزمة . فأول من شاهدنا مجلسه الشيخ الإمام رضى الدين القزوينى رئيس الشافعية وفقيه المدرسة النظامية ، والمشار إليـه بالتقديم فى العلوم الأصولية . حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة إثر صلاة العصر . فصعد المنبر . وأخذ القراء أمامه فى القراءة على كراسى موضوعة . فتوقوا وشوقوا وأتوا بتلاحين معجبة ونغمات مطربة . ثم اندفع الشيخ الإمام المذكور . فخطب خطبة سكون ووقار . وتصرف فى أفانين من العلوم من تفسير كتاب الله عز وجل . وإيراد حديث رسوله صلى الله عليه وآله وسلم والتكلم على معانيه . ثم رشقته شآبيب المسائل من كل جانب . فأجاب وما قصر ، وتقدم وما تأخر . ودفعت إليه عدة رقاع منها . فجمعها جملة فى يده ، وجعل يجاوب على كل واحدة منها ، إلى أن فرغ . وحان المساء . فنزل . وافترق الجمع . فكان مجلسه مجلس علم ووعظ ، وقورا هينا لينا ، ظهرت فيـه البركة والسكينة » .

ولمـا كانت المدارس النظامية من منشئات دولة تركية تناوىء الشيعة فى سياستها ومذهبها ، كان طبعيا ألا يقبل شيعى أستاذا بها . حكى ياقوت أن على ابن محمد [١] كان معلم النحو بالنظامية (نظامية بغداد) . وكان متهما بالتشيع .

---

(١) هو على بن محمد الفصيحى من استراباد قصبة طبرستان . أخـذ النحو عن عبد القاهر الجرجانى . قدم بغداد واستوطنها وكانت دراسته النحو بالنظامية بعد التبريزى . ولمـا اتهم بالتشيع وسئل عن تلك التهمة ، قال : — « لا أجحد . أنا متشيع من القرن إلى القدم » . ولمـا أخرج من النظامية رتب مكانه الجواليقى . لكن الظاهر أن هذا لم يغن غناءه . فان المتعلمين كانوا يقصدون دار على التى انتقل إليها للقراءة عليه . سمى الفصيحى لكثرة دراسته الفصيح لثعلب . وكان له به أنس . توفى سنة ٥١٦ هـ .

ولمسائل فى ذلك لم ينكر الحقيقة ، فعزل وولى مكانه سواه ممن يدين بمذهب أهل السنة :

منهاجها : ليست المدرسة النظامية معروفة المنهاج على وجه الضبط والدقة ، ولكن الدلائل تدل على أن منهاجها كان يدور حول العلوم الشرعية دون العلوم الحكمية :

(١) لم يذكر أحد من المؤرخين أنه كان من موادها الطب والفلك والرياضيات كما عدّوها من موادّ بيت الحكمة ببغداد ودار العلم بالقاهرة ، ولكنهم من ناحية أخرى ذكروا من موادّ الدراسة بها النحو والكلام والفقه

(٢) اتصل بالنظامية ببغداد علماء من طراز أبى إسحاق الشيرازى وأبى حامد الغزالى والقزوينى وابن الجوزى وسواهم من فحول الشريعة . ولم يعرف أن اتصل بها أحد من الفلاسفة المبرزين فى العلوم الحكمية . إذاً كانت مدرسة شريعة لا مدرسة حكمة

(٣) مؤسس المدارس النظامية لم يكن من حماة العلوم الحكمية ولا من المعاضدين للبحوث الفلسفية

(٤) هذا إلى أن الزمن الذى خدمت فيه النظامية العلم والتربية ، لم يكن عصر فلسفة ، وإنما كان عصر اضطهاد لها ولأهلها

إذاً كانت هذه الكلية فلسفية دينية غير عاملة على تشجيع العلوم الحكمية ولا على بث روح الحرية فى الفكر كما كان بيت الحكمة من قبلها .

والظاهر أن فقه المذاهب الأربعة كان يدرس بالنظامية كما كان فى منافستها المستنصرية . يدل على ذلك ماجاء برحلة ابن جبير من أن ابن الجوزى كان من أساتذة النظامية وأنه كان فى الوقت نفسه رئيس الحنبلية

ولكن يظهر من جهة أخرى أنّ مذهب الشافعية كان بها فى مركز ممتاز . يدل على ذلك أن الوجيه كان حنبليا ، ثم صار حنفيا ، ثم عين أستاذا للنحو

بالنظامية . وعلى أثر ذلك تحول شافعيا . (١)

ميزانيتها : خص نظام الملك النظامية ببغداد بعشر ما كان ينفقه على المدارس والرباطات كلها . فقد كان ينفق عليها وحدها ٦٠,٠٠٠ على حين كان ينفق على الجميع ٦٠٠,٠٠٠ دينار كما تقدم .

دار العلم

كما كان الفاطميون بالقاهرة يبارون العباسيين ببغداد فى ميادين السياسة والملك ، كانوا ينافسونهم فى ميادين التربية والتعليم ، والعمل على نشر الثقافة بين المسلمين . فمن ثمار جهودهم فى ذلك كلية دار العلم أو دار الحكمة كما يسميها بعضهم . فقد كانت بالقاهرة على النيل تضارع بيت الحكمة ببغداد على دجلة : كان كل منهما معهدا عاليا لدرس العلوم الحكمية . لكن دار العلم كانت أسعد حظا من بيت الحكمة ، لأنها وجدت من المقريزى مؤرخ مصر ما لم يجده بيت الحكمة من مؤرخى بغداد . فقد ذكر حياتها ومصيرها فى خططه باسهاب (راجع الجزء الأول ص ٤٥٨ وما بعدها)

---

(١) الوجيه هو أبو بكر الضرير النحوى من أهل واسط . قدم بغداد مع أبيه فى صباه . فأقام بها باقى حياته . وفى بغداد لازم ابن الانبارى النحوى وقرأ عليه وتلمذ له . وهو شيخ ياقوت الحموى الذى به تخرج وعليه قرأ . تولى التدريس بالنظامية سنين . فتخرج عليه الكثير . منهم عبد اللطيف البغدادى . وفى تقلبه فى المذاهب يقول أحد تلاميذه ويظهر أنه تلميذ لم يفقه واجب توقير الاستاذ والبر به والاحسان إليه كفانا الله شر أمثاله :—

ألا مبلغ عنى الوجيه رسالة   وإن كان لا تجدى لديه الرسائل
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل   وذلك لما أعوزتك المآكل
وما اخترت دين الشافعى تدينا   ولكنما تهوى الذى هو حاصل
وعما قليل أنت لا شك صائر   إلى مالك . فافطن لما أنا قائل

ولا يخفى ما قصد هذا التلميذ العاق الخبيث فى البيت الأخير من التورية فى لفظ « مالك »

بناؤها وحياتها . ذكر المقريزى أن دار العلم بنيت بالحى المعروف بالخرنفش بأمر الحاكم بأمر الله الفاطمى سنة ٣٩٥ هـ (أوائل القرن الحادى عشر الميلادى) ، وأنها استمرت حتى نهاية الدولة الفاطمية إذ أغلقها الأفضل ابن أمير الجيوش باسم صلاح الدين سنة ٥٧١ هـ . وعلى هذا تكون قد عمرت قرنا وربع قرن .

منهاجها : كانت دار العلم كبيت الحكمة منهاجا . ذكر المقريزى من علومها الفلك والطب والنحو واللغة والفقه والحساب والمنطق

مكتبتها : كانت دار العلم ذات مكتبة « حوت من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة مالم ير قط مثله مجتمعا لأحد من الملوك » . وقد كانت مفتحة الأبواب لجمهور الدارسين والمطالعين ونساخ الكتب . وكان هؤلاء جميعا يمدّون من بيت المال بحاجتهم من الحبر والورق والأقلام .

اهتمام الحاكم بدار العلم : أمر الحاكم بأمر الله « ففرشت دار العلم وزخرفت وعلقت على جميع أبوابها وممرّاتها الستور . وأقيم قوام وخدام وفراشون وسموا بخدمتها » . وكان يقرب منه علماءها ويدعوهم إلى مجالسه للبحث والمناظرة . كان من أجل ذلك يحضر إليه « أهل الحساب والمنطق وجماعة الفقهاء وجماعة الأطباء كل طائفة على انفرادها » وكان يشجعهم فيخلع عليهم الخلع السنية .

ميزانيتها : حبس الحاكم بأمر الله أماكن فى فسطاط مصر على عدّة مواضع منها دار العلم . فقد خصها بما تبلغ غلته السنوية مائتين وسبعة وخمسين دينارا من ذلك كما ذكر المقريزى :

١٠ دنانير للحصر
٩٠ دينارا لحاجة النساخين من الورق
٤٨ « لأمين المكتبة
١٢ « للماء

١٥	دينارا	للفراشين
١٢	«	لحاجة النظار من العلماء من الحبر والورق والأقلام
١	دينار واحد	لإصلاح الستائر
١٢	دينارا	لتجليد الكتب
٥	دنانير	ثمن لبود للفرش فى الشتاء
٤	«	طنافس الشتاء

خاتمتها : قد كانت دار العلم فى خاتمتها كبيت الحكمة ، فإنه على أثر صيرورة الملك لغير الدوله العربية ، خلف كلا منهما مدارس دينية لدراسة العلوم الشرعية على المذاهب السنية دون العلوم الحكمية ومذاهب الشيعة . فكما خلف بيت الحكمة نظامية بغداد فى عهد الأتراك السلجوقيين ، كذلك خلف دار العلم بالقاهرة مدارس الدولة الأيوبية

المعاضدة المالية للمدارس الاسلامية

لم يكتف العرب بانشاء المدارس فى كل الأقطار الإسلامية . بل حبسوا عليها من الضياع والغلة ما يكفل بقاءها منار علم ومنهل عرفان . من ذلك ما ذكره المقريزى بالجزء الرابع من خططه من أن صلاح الدين الأيوبى حبس على مدرسة السيوفية غلة ٣٢ حانوتا . وذكر مجير الدين فى كتابه العون الجليل أن صلاح الدين نفسه حبس على الصلاحية ببيت المقدس غلة حوانيت شارع بأكمله . وذكر ابن جبير فى رحلته أنه كان ببغداد ٣٠ مدرسة حبس عليها من الضياع ما كفت غلته نفقات الأساتذة والطلبة . وذكر فى موضع آخر أنه لما زار دمشق فى القرن الخامس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) وجد أكثر من ٥٠٠ طالب يأخذون (جرايات) يومية من أوقاف مسجد تلك المدينة . وذكر ابن بطوطة فى رحلته أن تلك الحبوس كان فيها كفاية الطلبة ملبسا ومأكلا ومسكنا

وقد ساهم فى تلك المعاضدة رجال الدولة وعامة الرعية لافرق بين الرجال والنساء، ولا بين الموظفين وأرباب المهن الحرة، ولا بين القضاة والوزراء والأمراء والسلاطين. كان منهم جميعا أن أنفقوا على المدارس بسخاء، وحبسوا عليها الضياع وغلة الحوانيت — لا لشىء سوى نشر العلم ابتغاء الثواب من الله تعالى.

وما زالت تلك الحبوس تدر الخير الوفير على معاهد العلم بمصر والشام وسواهما من الأقطار. فهذا الأزهر أوقافه معروفة للناس خاصة وعامة. وهى كثيرة يتمتع طلبته بخيراتها، سواء فى ذلك المصريون منهم ومن ينتمون إلى غير مصر من أمم الإسلام.

وقد كان استمراء تلك الأوقاف من الحوافز العظيمة إلى الانتساب إليه حتى لقد غطت الرغبةُ فى الانتفاع بها المقاصدَ السامية من الالتحاق به أو بسواه من المعاهد الدينية. فكثر بها العاطلون الذين لاهمّ لهم من المحافظة على بقاء أسمائهم مقيدة بها إلا مجرد الانتفاع بما تدر عليهم من ريع الأوقاف

الأدوات والمرافق المدرسية

لاتخوت ولاقماطر : من خصائص المدرسة الإسلامية السذاجة فى أدواتها. فلم تكن بها مقاعد لجلوس الطلبة، ولا قماطر يكتبون عليها أو يضعون فيها كتبهم وأدواتهم على نحو مانشاهد بمدارس العصر الحاضر بمصر وسواها من الأقطار الإسلامية.

وإنما كانوا يتلقون دروسهم على الحالة التى عهدناها بالأزهر : إذا كان الدرس بمسجد خلعوا نعالهم وجلسوا على أرض المسجد على الحصر أو السجاجيد حلقات حول أستاذهم بجوار عمود من أعمدة المسجد .

ولاسبورة : عرف العرب السبورة منذ القدم بمعنى واستعمال يقربان من

المعنى والاستعمال اللذين لهما فى عرفنا . قال الفيروزابادى فى القاموس : السبورة « جريدة من الألواح يكتب عليها فإذا استغنوا عنها محوها » ولكن ليس لدينا مايدل على أنهم استخدموا السبورات بالمدارس كأدوات من أدوات التعليم .

ولا كتب مقررة : لم تكن المطابع سهلة الاستخدام فى العصور الوسطى فلم تكثر ولم تنتشر بها المطبوعات انتشارها لأيامنا . فلم يكن من السهل اقتناء الطلبة كتبا مطبوعة للدرس والتحصيل . وإنما كانوا يستملون المدرس وينسخون المخطوطات .

ويظهر أن الطالب والمعلم كليهما كانا يقاسيان كثيرا فى الإملاء والاستملاء ، لجلوس الطلبة على الأرض وبطئهم فى الكتابة . ولذلك اعتاد الأستاذ أن يتخذ له من الطلبة معيدا أو أكثر ليردد على الطلبة مايمليه . قال ابن بطوطة فى رحلته فى وصف ماشاهده من ذلك بالمدرسة المستنصرية ببغداد : « وجدت بها المذاهب الأربعة ، لكل مذهب إيوان فيه المسجد وموضع التدريس : وجلوس المدرس فى قبة خشب صغيرة على كرسى عليه البسط . وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل مايمليه »

المكتبات والحمامات ودور الشفاء . تمتع كثير من المدارس الإسلامية بالمكتبات المدرسية . ذكر ذلك المقريزى فى خططه . وأشار إليه ياقوت ومجير الدين فى مواضع كثيرة من كتبهما .

وقد كانت الحمامات والمستشفيات من مرافق بعض المدارس الإسلامية . فقد ذكر ابن جبير أنها كانت من مرافق بعض المدارس الإسلامية بالقاهرة والإسكندرية . وعد ابن بطوطة الحمام من مرافق مدرسة من مدارس بغداد

مساكن الطلبة : كذلك تمتع طلبة بعض المدارس الإسلامية بسكنى منازل أعدت لهم بالمساجد أو المدارس التى كانوا ينتسبون إليها . ومامساكن

الطلبة بأروقة الأزهر وبمسجد محمد أبي الذهب وجامع السلطان حسن إلا أثر من تلك الآثار النافعة .

جامعات أوروبا تعمل بأفكار العرب . أولو الشأن ببعض جامعات الفرنجة يعملون بهذه الفكرة . فللكلية الجامعة التي درسنا بها بانجلترا دور وربوع تملكها أو تستأجرها بعضها لسكنى طلبتها وبعضها لسكنى طالباتها . فلبيوت الطلبة مديرون من أساتذة الكلية . ولبيوت الطالبات مديرات من مدرساتها . ولكل طالب حجرة خاصة للنوم والاستذكار وبها الأثاث الكافي لذلك من سرير ونضد ومشاجب وصوان للملابس وآخر للكتب ومغسل للوجه كامل الأدوات . والدار أو الربع مقسم بيوتاً لكل بيت باب خاص ومرافق خاصة وخادم خاص ينظف حجره ويهيء الشاي عصر كل يوم ويحمله إلى الطلبة كل في حجرته . وبالدار حجرة خاصة يجتمع بها الطلبة للحديث والغناء والمطالعة وقراءة الصحف ويستقبلون بها زائريهم . وللدار مطهى عام يجتمع المدير والطلبة للفطور والغداء والعشاء ببهو عام متصل به . ويقوم بخدمتهم خدم بيوت الدار الذين أشرنا إليهم .

وإنها لفكرة سامية ترمى إلى صيانة الطلبة من شرور المدن وأهلها وتكفيهم مئونة التفكير في مهام الحياة ومشاغلها وبذلك يتوفرون على الدرس والتحصيل . هلا عمل بها في مدارسنا ؟ : فطن لهذه الفكرة بعض نظار المدارس الثانوية أيام الحرب . ويظهر أنهم أشاروا على وزارة المعارف بالعمل بها لما رأوا لها من المزايا . ولو فكرت الوزارة تفكيراً جدياً لعملت برأيهم ولجنى التلاميذ والطلبة من ذلك جنى جما وثمارا طيبة .

حظ البنت العربية في الإسلام من التربية

لا يقنع طالب التربية في التدليل على تربية البنت العربية ورقيها في العصور الإسلامية أن نحيله إلى كتب التاريخ والشريعة والأدب ليقف على ما للعائشة

أم المؤمنين وأختها أسماء أم عبد الله بن الزبير من الأحاديث والأقوال المأثورة . أوليعجب بالخنساء ووطنيتها لما لها من الحديث مع بنيها الأربعة: فكل ماتدل عليه هذه الأخبار وأمثالها أن المرأة العربية ذكية محبة لوطنها فيها الكفاية لأن تقوم بما يقوم الرجل إذا أهاب بها الداعي . ولكن هذه صفات لاتنافى الأمية . والذى يهم طالب التربية أن يعرف إلى أى مدى عمل المسلمون ليخلعوا ربقة الأمية من أعناق البنات كما حرروا منها الصبيان، يهمه أن يعرف : هل هيأ الإسلام فرصا لتعلم القراءة والكتابة ؟ وماهى تلك الفرص ؟ وهل انتهزها النساء كما انتهزها الرجال ؟ هذا هو الذى أرمى إليه فى هذا البحث . ولعلنا موفقون لإصابة المرمى .

تعلم أمهات المؤمنين وبنات الصحابة : بفتوح البلدان للبلاذرى فصل عنوانه « أمر الخط » بين فيه أن من بنات رجالات العرب فى صدر الإسلام من تعلمن بمنازلهن القراءة والكتابة إما من أقاربهن وإما على نساء مثلهن . فقد كانت الشفاء العدوية « نسبة إلى عدى رهط عمر بن الخطاب » كاتبة فى الجاهلية ومنها تعلمت الكتابة حفصة بنت عمر . ولما تزوجها النبى صلى الله عليه وآله وسلم طلب إلى الشفاء أن تعلمها تحسين الخط وتزيينه كما علمتها أصل الكتابة. وعن الواقدى أن أم كلثوم بنت عقبة كانت تكتب . وعنه عن عائشة بنت سعد أنها قالت : « علمنى أبى الكتاب » . وعنه كذلك أن كريمة بنت المقداد كانت تكتب ، وإن عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما كانتا تقرآن ولا تكتبان

تعلم البنت بعد عصر الراشدين : تدل الدلائل على أن البنت منذ عصر الأمويين حذت حذو الولد . فتلقت علومها بالمدارس على معلمين أجانب . فقد جاء بالجزء الثانى من البيان والتبيين فى نوادر الوليد بن عبد الملك أنه مر بمعلم صبيان فرأى جارية . فسأله : ماشأنها ؟ قال أعلمها القرآن . وفى أخبار الأغانى أن على بن آدم من تجار الكوفة علق بجارية واستهام بها وهى صبية

تختلف إلى الكتاب . فكان يجيء مؤدبها فيجلس عنده (١) وفيها أن خليل بن عمرو المعلم كان يؤدب الصبيان ويعلم الجوارى الغناء فى مكان واحد (٢)

ثمار هذه التربية : آتت هذه التربية ثمرتها الطيبة إذ أنشأت من بنات العرب أديبات حافظات للقرآن راويات للشعر عالمات بمختلف العلوم مطلعات على شتى المعارف والفنون . أنبأنا التاريخ أن خالد بن عبدالله القسري اشترى ثلاثين جاريه ودسهن مع نخاس إلى هشام بن عبد الملك فاشتراهن جميعا . فلما أنس بهن استنطقهن فرأى فيهن نهاية الكمال والأدب والفصاحة . ثم استقرأهن القرآن فقرأن . ثم استنشدهن الشعر . فأنشدنه قصائد الكميت الهاشميات (٣) وفى نوادر هارون الرشيد أن عرضت عليه جارية ليشتريها بألف دينار . فرضى على أن تنجح فى امتحان أمام مجلس يعينه الخليفة. ثم جمع الأعلام من علماء الشريعة والطب والفلك وأساتذة الفلسفة والبلاغة ومهرة اللاعبين بالشطرنج وقدم تلك الجارية اليهم ليختبروها ويعرفوا مالديها . فكانت تجيب عما تسأل عنه إجابة سديدة صائبة ثم تقول :

إن على سائلنا أن نسأله والعبء لاتعرفه أو تحمله

فتسأله سؤالا يعييه ولا يستطيع له جوابا (٤)

---

(١) ترجمة على المذكور بالجزء ١٤ من الأغانى وإنما أوردنا هذا المثال لبيان مانحن بصدده بغض النظر عما كشف عنه من الضعف الخلق فى بعض الزعانف المنتمين إلى الجنس البشرى

(٢) ترجمة خليل المذكور بالجزء ٢١ من الأغانى

(٣) وقد كن قاصدات لذلك لاقليلات الذوق ولا غافلات عن تاريخ الكميت مع الأمويين وإنما دسهن خالد إلى هشام وأوعز اليهن أن ينشدنه شعر الكميت إذا استنشدهن ليوغر صدر هشام على الكميت لمنافرة كانت بينه وبين خالد.يعرف هذا من يرجع إلى ترجمة الكميت بالجزء ١٥ من الأغانى

(٤) طوطح عن برونتج أستاذ جامعة كبردج

وكذلك كان من جنى تلك التربية أن أتاحت لنساء العرب فرصا لمساعدة الرجال فى نشر العلم وتلقين المعارف . فكن معلمات فضليات تخرج عليهن أساتذة العلوم وفحول الفصاحة والبيان . ففى الجزء الثالث من وفيات الأعيان لابن خلكان أن السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن على كان لها بمصر مجلس علم حضره الإمام الشافعى وسمع عليها فيه الحديث . وعد أبو حيان بين أساتذته ثلاثا من النساء هن مؤنسة الأيوبية بنت الملك العادل أخى صلاح الدين ، وشامية التيمية وزينب بنت عبداللطيف البغدادى(١) وفى الجزء الثانى من نفح الطيب ص ٤٣٠ أنه كان لابن المطرف جارية أخذت عن مولاها النحو واللغة . لكنها فاقته فى ذلك وبرعت فى العروض ومن ذلك سميت بالعروضية . وكانت تحفظ الكامل للمبرد والنوادر للقالى وتشرحهما . وعليها درس العلماء هذين الكتابين ، وعنها أخذوا العروض . وهذه فخر النساء شهدة الكاتبة . ذكر ابن خلكان أنها كانت من العلماء ، وكتبت الخط الجيد ، وسمع عليها خلق كثير . وكان لها السماع العالى ألحقت فيه الأصاغر بالأكابر(٢)

النتيجـــة : يؤخذ مما تقدم من الأمثلة والشواهد ، أن نساء العرب هيأ لهن الإسلام فرصا للتربية الراقية من انتهزنها منهن بلغن بها أعلى المراتب التى قدر للرجال بلوغها . وإذاً فليست الأمية التى كانت فاشية بين النساء والتى شهدنا آثارها بمصر فى الجيل الماضى ، لم يكن الأصل فيها محاربة الاسلام للنساء وتربيتهن كما يتوهم قصيرو النظر والمتحاملون على الإسلام والمسلمين . وإنما كانت مظهرا من مظاهر الجهل المطبق فى عصور الدول

(١) يعرف ذلك من يرجع الى الجزء الأول من نفح الطيب للمقرى ص ٥٩٨ ؛ وكم وددنا لو عرفنا كيف تربى هؤلاء . إذاً لحصلنا على صورة تامة لتربية نساء العرب حرائر وجوارى

(٢) ترجمتها بالأول من الوفيات

المتتابعة الذى عمت آثاره الرجال والنساء على حد سواء . وإذا نهض النساء فى عصرنا الحاضر الزاهر ، فأقبلن على العلم وقصدن دوره ووردن مناهله ، فانهن لم يأتين بدعا وإنما أحيين سنة صالحة سنها النبي صلى الله عليه وسلم وأخذ بها الخلفاء والأمراء من بعده .

مناهج التربية الاسلامية

غير الإسلام من حياة العرب . فصاروا به من بعد الوثنية أهل كتاب . وأخرجهم من بيئتهم القديمة إلى بيئة جديدة . فبعد أن كانت حياتهم فى معظمها فى حدود جزيرتهم وهى صحراء قاحلة ، دفع بهم الإسلام إلى الأراضى المخصبة بالشام وبلاد الجزيرة والعراق . ثم وصلت الفتوح الإسلامية بينهم وبين المدنيات التى كانت سائدة فى المعمور من الأرض فى تلك الأيام ، وبخاصة المدنيتين الفارسية والرومية . وكان إذ ذاك إن أحسوا ضرورة نظرهم إلى الحياة من جميع مناحيها نظرة جديدة ، حتى يوفقوا بينهم وبين البيئة الجديدة التى صيرهم إليها الإسلام . ووجدوا الحاجة ماسة إلى استقاء العلوم والمعارف من الكتب لأن التجارب الشخصية التى اعتمدوا عليها فى ذلك حتى ذلك العهد أصبحت لاتغنى فيه فتيلا . ورأوا لزاما من أجل ذلك أن يخلعوا من أعناقهم ربقة الأمية التى إنما أمكنت معها حياتهم لأنهم كانوا قبل الإسلام فى حدود صحرائهم وثنيين.

دعتهم الحاجة فلبوا نداءها مسرعين . فلم يجىء الإسلام بالقرآن والسنة المبينة له حتى وجدتهم عاكفين على تعلم الكتابة والقراءة ليقيدوهما ويطالعوهما ليتفهموا أحكام الدين منهما .

ولم يلبثوا أن رأوا علم العدد ضروريا لحساب الأيام والشهور والسنين للصلاة والصيام والحج . ثم لحساب الأموال لمعرفة مقادير الزكوات والصدقات ثم خشوا إذ اختلطوا بالأعاجم أن يفشو اللحن وتفسد الملكة . فأسرعوا

إلى وضع العلوم اللسانية وأخذوا الناشئين منهم بحذقها .

ثم كان أن دخل من الأمم المختلفة فى دين الله أفواج من العلماء فخالطوا العرب وتعلموا العربية . واتخذوها أداة نقلوا بها من دياناتهم القديمة المختلفة ونحلهم المتباينة أفكارا وآراء خشى منها على الإسلام أن تذهب معالمه ، وعلى المسلمين أن ينتشر بينهم الزيغ والإلحاد . فنشأت الحاجة إلى الدفاع عن الإسلام بالحجة والبرهان . فاتخذوا وسيلة لذلك من تعلم المنطق وعلوم البحث والجدل والمناظرة . وكان من ذلك ماعرف بعلم الكلام أو العقائد أو التوحيد .

فكان للمسلمين بذلك مناهج للتربية أصلها القرآن وماتفرع عنه من التفسير وعلومهما وسائر العلوم الشرعية ، ثم النحو والصرف وسواهما من العلوم اللسانية ، ثم الحساب والهندسة والفلك وسائر العلوم الرياضية ، ثم المنطق وعلوم الكلام والجدل وسواها من العلوم الحكمية .

ويحسن بنا أن نقسم تلك المناهج إلى ثلاثة أقسام

(١) منهج التعليم الابتدائى أو تعليم الصبيان

(٢) « « الثانوى أو تعليم الشباب

(٣) « « العالى أو التعليم فى دور الرجولة

التعليم الأولى

منهاجه

المأثور فيه من أقوال العرب : نستعرض ماجاء عن أمراء المسلمين وزعمائهم والمفكرين فيهم . ثم نستخلص من تلك المأثورات بيانا للمواد التى حصلها صبيانهم بالكتاتيب أو المدارس الأولية .

(أ) فى الجزء الثانى من البيان والتبيين كتاب قيم بعثه عتبة بن أبى سفيان إلى عبد الصمد مؤدب ولده ، يقول فيه : — ليكن أول ماتبدأ به من إصلاح

بنى إصلاح نفسك . فإن أعينهم معقودة بعينك . فالحسن عندهم ما استحسنت والقبيح عندهم ما استقبحت . وعلمهم كتاب الله ولا تكرههم عليه فيملوه، ولا تتركهم منه فيهجروه . ثم روّهم من الشعر أعفه ، ومن الحديث أشرفه . ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه فإن ازدحام الكلام فى السمع مضلة للفهم . وتهددهم بى ، وأدبهم دونى . وكن لهم كالطبيب الذى لا يعجل بالدواء ، قبل معرفة الداء . وجنبهم محادثة النساء . وروّهم سير الحكماء . واستزدنى بزيادتك إياهم أزدك . وإياك أن تتكل على عذر منى لك : فقد اتكلت على كفاية منك . وزدنى تأديبهم أزدك فى برى إن شاء الله تعالى .

(٢) وفى العمدة لابن رشيق عن معاوية : — يجب على الرجل تأديب ولده والشعر أعلى مراتب الأدب . وفيه عنه أيضا . اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر أدبكم ، فقد رأيتنى ليلة الهرير بصفين وقد أتيت بفرس أغر محجل بعيد البطن من الأرض . وأنا أريد الهرب لشدة البلوى . فما حملنى على الإقامة إلا أبيات عمرو بن الاطنابة : —

أبت لى همتى وأبى بلائى　　　وأخذى الحمد بالثمن الربيح
وإقحامى على المكروه نفسى　　　وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما جشأت وجاشت　　　مكانك تحمدى أو تستريحى
لأدفع عن مآثر صالحات　　　وأحمى بعد عن عرض صحيح

(٣) وروى المبرد فى الكامل عن عمر بن الخطاب : — علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل والشعر .

(٤) وروى الجاحظ فى البيان عن الحجاج يخاطب معلم أولاده : — علم ولدى السباحة قبل الكتابة . فإنهم يصيبون من يكتب عنهم ولا يصيبون من يسبح عنهم .

(٥) ولابن سينا فى رسالة السياسة : — فإذا اشتدت مفاصل الصبى

واستوى لسانه وتهيأ للتلقين ووعى سمعه ، أخذ بتعلم القرآن ، وصورت له حروف الهجاء ، ولقن معالم الدين ، وينبغى أن يروى الصبى الرجز ثم القصيد فإن رواية الرجز أسهل ، وحفظه أمكن . لأن بيوته أقصر ، ووزنه أخف . ويبدأ من الشعر بما قيل فى فضل الأدب ومدح العلم وذم الجهل وعيب السخف وما حث فيه على بر الوالدين واصطناع المعروف وقرى الضعيف وغير ذلك من مكارم الأخلاق . . . . . وإذا فرغ الصبى من تعلم القرآن وحفظ أصول اللغة ، نظر عند ذلك إلى ما يراد أن يكون صناعته فوجه لطريقه .

(٦) وحدث ابن العربى عن نفسه(١) أتممت حفظ القرآن وأنا ابن تسع . ثم قضيت ثلاث سنوات فى درس اللغة والحساب وتجويد القرآن .

الخلاصة : نرى مما اقتبسنا أن منهاج التعليم الأولى لصبيان العرب فى الإسلام شمل حفظ القرآن وتجويده والمطالعة والحساب وحفظ مختارات من المنظوم والمنثور والتاريخ وقواعد اللغة ومبادى الشريعة كما شمل كسب المهارة فى بعض الأعمال النافعة كالخط والسباحة والرماية وركوب الخيل

مزايا الجانب العملى فيه : مما يحمد للعرب فى هذا المنهج أخذهم الصبيان بكسب المهارة فى السباحة والرماية وركوب الخيل لأنها أعمال مفيدة . والمهارة فيها تنقذ فى كثير من أوقات الشدة . فلقد نجت سباحة الفرات عبد الرحمن الداخل(٢) من براثن العباسيين ، ومدت له أسباب الحياة . فاختفى

---

(١) هو القاضى أبو بكر محمد بن عبد الله الأشبيلى ولد سنة ٤٦٨ وتوفى سنة ٥٤٣ هـ رحل إلى الشرق فزار الشام فبغداد حيث صحب الغزالى ثم رحل إلى الحجاز فمصر . وقد قضى فى هذه الرحلة ثمانى سنوات من سنة ٤٨٥ إلى سنة ٤٩٣ وله كتاب فى وصفها

(٢) هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، الملقب

عن أعين مطارديه . ثم قصد الأندلس فوطد بها للأمويين ملكا عتيدا وسلطانا مديدا. هذا إلى أن مزاولة الصبي لمثل تلك الأعمال خلال اليوم المدرسي من شأنها أن تخفف كثيرا من عبء العمل العقلي الذي تقتضيه سائر مواد الدراسة .

بالداخل وصقر قريش . كان بالشام إذ سقطت الدولة الأموية عام ١٣٢ ﻫ فطارده العباسيون فيمن طاردوه من الأمويين. فهرب إلى قرية على شط الفرات . فتعقبه إليها جنود ابى العباس السفاح . ففر بحياته إلى بلاد الأندلس بعد أن عبر الفرات سباحة . وقد وصف بنفسه ما كان حيث يقول :— «وإنى لجالس يوما فى تلك القرية فى ظلمة بيت تواريت فيه لرمد كان بى ، وابنى سليمان بكر ولدى يلعب قدامى ، إذ دخل الصبي فزعا باكيا : فأهوى إلى حجرى. فجعلت أدفعه لما كان بى ويأبى إلا التعلق بى، وهو دهش يقول مايقوله الصبيان عند الفزع . فخرجت لأنظر . فاذا بالروع قد نزل بالقرية . ونظرت فاذا بالرايات السود عليها منحطة ، وأخ لى حدث السن كان معى يشتد هاربا ويقول لى :—«النجاة يا أخى ! فهذه رايات المسودة» . فضربت بيدى إلى دنانير تناولتها ، ونجوت بنفسى ، والصبى أخى معي . وأعلمت أخواتى متوجهى ، وأمرتهن أن يلحقنى ومولاى بدر معهن . وخرجت فكمنت فى موضع ناء عن القرية. فما كان إلا ساعة حتى أقبلت الخيل فأحاطت بالدار فلم تجد أثرا . ومضيت ولحقنى بدر . فأتيت رجلا من معارفى بشط الفرات ، وأمرته أن يبتاع لى دواب وما يصلح لسفرى . فدل على عبد سوء له . فما راعنا إلا جلبة الخيل تحفزنا وتنادينا من الشط :—«ارجعا . لا بأس عليكما» فسبحت حاثا لنفسى ، وسبح الغلام أخى . فلما قطعنا نصف الفرات ، قصر أخى . فالتفت لأقوى من قلبه . وإذا هو قد أصغى إليهم وهم يخدعونه عن نفسه . فناديته :— « تقتل ياأخى . إلى إلى » . وإذا هو قد اغتر بأمانهم وخشى الغرق . فاستعجل الانقلاب نحوهم . وقطعت أنا الفرات . ثم قدموا الصبى أخى الذى صار إليهم بالأمان . فضربوا عنقه ، ومضوا برأسه ، وأنا أنظر إليه . فاحتملت فيه ثكلا ملأنى مخافة . ومضيت إلى وجهى أحسب أنى طائر . فلجأت إلى غيضة ، فتواريت فيها حتى انقطع الطلب . ثم خرجت أروم المغرب ، حتى وصلت إلى أفريقية ».

ومن ثم نرى الغزالي لله دره يقول :ـ ينبغى أن يعود الطفل فى بعض النهار المشي والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل. وينبغى أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعبا جميلا يستريح إليه من تعب المكتب بحيث لا يتعب فى اللعب. فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه إلى التعليم دائما يميت قلبه ويبطل ذكاءه ، وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة فى الخلاص منه رأسا

وإن هذا البيان البديع لمزية اللعب ، ليذكرنا بمثل انجليزى فى هذا المعنى :
إذا دأب «جاك» على العمل بلا لعب صار بليدا .

All work and no play, makes jack a dull boy

لكن السباحة والرماية وركوب الخيل من الأعمال التى لا يستطيع الصبي مزاولتها ونحن آمنون عليه من الأذى ، إلا إذا نظمت وخضعت لمراقبة شديدة . ويظهر أن ذلك لم يكن فى مقدور معلمى الصبيان . فأهملوا أمرها ولم يضمنوها مناهج التعليم . ولذا تقرأ مثل مقدمة ابن خلدون فى مذاهب الأمصار فى تعليم الولدان فتجد المناهج على اختلافها خالية من الإشارة إلى شيء اسمه سباحة أو رماية .

اختلاف العناية بمواد الدراسة باختلاف الأمصار : عرفت كلمة بعض ذوى الرأى من العرب فيما ينبغى أن يكون عليه منهج الدراسة الأولية. وتعلم أنه بعد سقوط الدولة الأموية لم يبق المسلمون دولة واحدة . وإنما انقسموا إلى مغاربة ببلاد البربر شمالى أفريقية ، وأندلسيين بجنوبى أوربا ، ومشارقة بالعراق وماجاورها من البلدان الإسلامية . وكانت كل دولة حرة فى العناية ببعض مواد الدراسة دون بعض . فنشأ من ذلك اختلافهم فى مذاهب التعليم . وتبع ذلك الاختلاف فى ثمرته وجناه .

قال ابن خلدون فى مقدمته : ـ فأما أهل المغرب فمذهبهم فى الولدان

الاقتصار على تعليم القرآن وأخذهم أثناء المدارسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه ، لا يخلطون ذلك بسواه من حديث أو فقه أو شعر أو نثر ، إلى أن يحذق الصبي فيه أو ينقطع دونه ، فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة

فهم لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم . ولكن التزامهم تلك الخطة أورثهم قصورا في حسن البيان ... (فكان حظهم) الجمود في العبارات وقلة التصرف في الكلام .

وأما أهل الأندلس ، فلم يختصوا القرآن وعلومه بعنايتهم كما فعل المغاربة بل تفننوا في تعليم ولدانهم . فأخذوهم من أول العمر بكثرة رواية الشعر وبالتدرب على الترسل ، وبمدارسة العربية وحفظ قوانينها ، وبتجويد الخط والكتابة حتى أن عنايتهم بهذين كانت أعظم من عنايتهم بسواهما

وبذلك ... برزوا في الخط والكتابة . وأفادهم ذلك التفنن في التعليم ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي . فكانوا لذلك أهل خط وأدب بارع أو مقصر على حسب ما يكون التعليم الثاني بعد تعليم الصبا . ولكنهم قصروا في سائر العلوم لبعدهم عن مدارسة القرآن والحديث التي هي أصل العلوم وأساسها .

وأما أهل المشرق فكانوا يعنون بدراسة القرآن وصنوف العلم وقوانينه ولم يتداولوا صناعة الخط في مكاتب الصبيان . فكانوا يكتبون الألواح بخط قاصر عن الإجادة . ومن أراد تعلم الخط فعلى قدر ما يسنح له بعد ذلك من الهمة في طلبه . ثم إنه كان يبتغيه من أهل صنعته كما تبتغى سائر الصنائع .

رأى ابن العربي في خطة التعليم الأولى : كانت الخطة التي سار عليها المسلمون في التعليم البدء بحفظ القرآن ثم دراسة ما سواه من المواد . هكذا درس ابن العربي وابن سينا وسواهم كما يعرف بالرجوع إلى تراجم حياتهم . لكن ابن العربي ثار على تلك الخطة . روى عنه ابن خلدون أنه ذهب إلى

تقديم العربية والشعر، «لأن الشعر ديوان العرب. ويدعو إلى تقديمه وتقديم العربية فى التعليم ضرورة فساد اللغة، ثم ينتقل المتعلم إلى الحساب فيتمرن عليه. ثم ينتقل إلى درس القرآن، فإنه يتيسر عليه بهذه المقدمة».
ونعى على أهل زمانه غفلتهم «إذ يؤخذ الصبى بكتاب الله فى أول أمره. يقرأ مالا يفهم وينصب فى أمر غيره أهم منه».

الردّ على ابن العربى: بعد أن قرر ابن خلدون مذهب ابن العربى رد عليه بأن التقاليد لا تساعد على ما رأى وهى أملك بالأحوال. ولما رأى ذلك غير كاف فى الإقناع أبان وجه الحكمة فيما جرت به التقاليد، فقال: — «إن وجه ما درج عليه الناس من تقديم دراسة القرآن (١) إيثار التبرك والثواب (٢) وخشية ما يعرض للولد فى جنون الصبا من الآفات والقواطع عن العلم فيفوته القرآن، لأنه ما دام فى الحجر منقاد للحكم. فإذا تجاوز البلوغ وانحل من ربقة القهر، فربما عصفت به رياح الشبيبة فألقته بساحل البطالة». وختم بالنتيجة المنطقية لهذه المقدمات السديدة. وهى أن الناس «يغتنمون فى زمان الحجر وربقة الحكم تحصيل القرآن، لئلا يذهب خلوا منه». ثم شرط لقبول ما ذهب إليه ابن العربى وإيثاره على ما جرى به العرف، أن يحصل اليقين باستمرار الصبى فى طلب العلم وقبول التعليم. ولكنى أقول ويقول معى كل مجرب منصف: إن من دون ذلك اليقين خرط القتاد.
وبعد أن سمعت عبارة ابن خلدون فى التعليق على مذهب ابن العربى، ترى مجانبا للصواب ما زعم بعضهم من أن ابن خلدون يوافق على ذلك المذهب.

مـــدته

١ المأثور فى ذلك: نتبع فى هذا البحث طريقة البحث السابق: نثبت ما عثرنا عليه فى كتب الأدب متعلقا بالموضوع ثم نستنبط ما نراه النتيجة الصحيحة لذلك.

(١) جاء بمعجم الأدباء لياقوت أن المدعو عمر بن أحمد(١) ذهب إلى المكتب وهو ابن سبع وأتم حفظ القرآن وهو ابن تسع فيكون قد قضى سنتين فى حفظه .

(٢) وفى وفيات الأعيان عن ابن سينا أنه أتم حفظ القرآن وهو ابن عشر. فإن قدرنا له ثلاث سنوات لحفظه يكون قد دخل الكتاب وهو ابن سبع. وإن قدرنا له سنتين قياسا على عمر بن أحمد يكون قد دخله وهو ابن ثمان .

(٣) وفى نفح الطيب أن ابن العربى أتم حفظ القرآن وهو ابن تسع. فيكون قد ابتدأ وهو ابن سبع أوست

(٤) وبالأغانى أن الأمين بن هارون الرشيد بدأ دروسه وهو ابن أربع.

(٥) وفى معجم الأدباء أن الطبرى أتم حفظ القرآن وهو ابن سبع. فيكون قد ابتدأ وهو ابن أربع أوخمس

(٦) قدمنا لك أن ابن العربى حفظ القرآن وهو ابن تسع ، وأنه بعد ذلك قضى ثلاث سنوات فى درس اللغة والحساب والتجويد ، وهى باقى مواد التعليم الأولى على مذهب أهل الأندلس كما تقدم

خمس سنوات من ٧ إلى ١٢ : يؤخذ من هذه الآثار أن مدة التعليم الأولى لدى المسلمين كانت نحو خمس سنوات . تبتدىء غالبا والصبى ابن سبع وتنتهى وهو ابن اثنتى عشرة .

التعليم الثانوى

منهجه : (١) فى طبقات الأطباء (لابن أبى أصيبعة) عن ابن سينا أنه فى سن

---

(١) كان عمر بن أحمد هذا من أعيان حلب . حدث عن نفسه قال : «ولدت سنة ٥٨٨ فلما بلغت سبعة أعوام حملت إلى المكتب . وختمت القرآن ولى تسع وقرأت بالعشر ولى عشر . وحبب إلى الخط وجعل والدى يحضنى عليه »

المراهقة والبلوغ درس الحساب والفقه والمنطق والهندسة والفلك والطب علما وعملا ، وأنه انفتح عليه الكثير من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ، وأنه أتم دراسة تلك العلوم قبل السادسة عشرة من عمره .

(٢) ويروى عن لسان الدين بن الخطيب (القرن السادس) أنه فى تلك السن درس القرآن واللغة العربية وآدابها والفقه والتفسير والعلوم الرياضية

(٣) وجعل ياقوت منهج هذا الدور مؤلفا من القرآن والتفسير والفقه والنحو والأدب والشعر والحساب والهندسة والتاريخ والحديث .

(٤) وقد قسم ابن خلدون فى مقدمته هذه المواد إلى قسمين : نقلية ، وعقلية ، فالنقلية القواعد والتفسير والحديث والفقه ، والعقلية المنطق والعلوم الطبيعية والموسيقى والحساب والهندسة والفلك

كمناهج التربية الأدبية : هذا المنهج فى جملته كمناهج التربية الأدبية الحالية بمدارس البلدان الأوربية ، لاشتمال كل على آداب اللغة وعلوم الدين والرياضة والفلسفة المضمنة مسائل العلوم الطبيعية .

وإذاً فمدرسة الآداب بألمانيا ، ودار العلوم بفرنسا ، والمدرسة الثانوية بانجلترا ، بمناهجها الحاضرة تمت بصلة متينة إلى المدارس الإسلامية فى العصور الوسطى . ولا غرابة فى ذلك . فان المدارس المذكورة من خلق النهضة الأدبية الأوروبية . ونهضة العرب فى العصور الوسطى من أقوى عوامل تلك النهضة .

التعليم الثانوى لطلاب المناصب : يظهر أن دراسة هذا المنهج دراسة مستوعبة لم تكن إلا من حظ الافذاذ الذين امتازوا عن سواهم بذكائهم ورقى مواهبهم العقلية الذين طلبوا العلم شغفا به ومحبة له ، درس أولئك مواده على كفاة الاساتذة بالمساجد والمدارس ، فعلموا علوم القرآن وقواعد الدين والعلوم اللسانية نحوية وبلاغية ، وحفظوا طوال القصائد ، وتدربوا على

قرض الشعر ، وحذقوا الحساب والخط ، وكسبوا المهارة فى البحث والمناظرة وأصبحوا علماء فى الطب والقانون والدين والموسيقى . ومن أمثلة هؤلاء ابن سينا والفارابى وابن رشد والغزالى وإخوان الصفاء . فان لهم جميعا من المؤلفات فى شتى العلوم والفنون مالا يتسنى مثله إلا لمن درس فى شبابه دراسة مستفيضة شاملة كل العلوم العقلية والنقلية .

أما طلاب المناصب من العامة الذين رموا فى التربية إلى أغراض مادية ، فالظاهر أنهم لم يدرسوا إلا مايعد للمنصب الذى يختارونه لأنفسهم أو الذى يختار لهم . يدل على هذا قول ابن سينا فى رسالته : — وإذا فرغ الصبى من تعلم القرآن وحفظ أصول اللغة ، نظر عند ذلك إلى مايراد أن يكون صناعته فوجه لطريقه . فان أريد به الكتابة أضاف إلى دراسة اللغة دراسة الرسائل والخطب ومناظرات الناس ومحاوراتهم وما أشبه ذلك ، وطورح الحساب ، ودخل به الديوان ، وعنى بخطه . وإن أريد أخرى أخذ به فيها .

ويشبه هؤلاء طلاب « البكالوريا » لدينا . فان دراستهم أدبية وعلمية . والطالب يختار أى الدراستين ألصق بحياته المستقبلة .

مراعاة الاستعداد للمهنة : ينعى المربون لأيامنا على أولياء أمور التلاميذ أنهم يحكمون الجاه والمادة دون الاستعداد فى اختيارهم لأبنائهم السبيل التى يسلكونها فى التربية والتعليم . يرون الطبيب ذا جاه بين الناس كثير الدخل فيختارون لأبنائهم الحصول على « بكالوريا » القسم العلمى ليدخلوهم مدرسة الطب ، غير مفكرين لاقليلا ولا كثيرا فى استعداد أبنائهم الرياضى أو العلمى وتكون النتيجة فى معظم الأحوال الإخفاق وضياع الآمال وخيبة الظنون .

وليست مسألة مراعاة الاستعداد من محدثات التربية الحديثة . فان أفلاطون بنى خطته فى التربية على الاستعداد ، وابن سينا يهيب بقيم الصبى أن يراعى استعداده فى اختيار صناعته . قال فى رسالته : « ليعلم مدبر الصبى أن ليس كل

صناعة يرومها الصبي ممكنة له مواتية . لكن ماشاكل طبعه وناسخية ، وأنه لو كانت كل الآداب والصناعات تجيب وتنقاد بالطلب والمرام دون المشاكلة والملاءمة ، إذاً ما كان أحد غفلا من أدب أو عاريا من صناعة . وإذاً لأجمع الناس كلهم على اختيار أشرف الآداب وأرفع الصناعات . ومن الدليل على ماقلنا سهولة بعض الآداب على قوم وصعوبته على آخرين . ولذلك نرى واحدا من الناس تواتيه البلاغة ، وآخر يواتيه النحو ، وآخر يواتيه الشعر ، وآخر تواتيه الخطب ، وآخر يواتيه النسب . فإن خرجت عن هذه الطبقة إلى طبقة أخرى وجدت واحدا يختار علم الحساب . وآخر يختار علم الهندسة . وآخر يختار علم الطب . وهكذا تجد سائر الطبقات إذا افتليتها طبقة طبقة حتى تدور عليها جميعا .

« ولهذه الاختيارات وهذه المناسبات والمشاكلات ، أسباب غامضة وعلل خفية تدق عن أفهام البشر ، وتلطف عن القياس والنظر ، لا يعلمها إلا الله جل ذكره » .

« وربما نافر طباع إنسان جميع الآداب والصنائع ، فلم يعلق منها بشيء ومن الدليل على ذلك أن أناسا من أهل العقل راموا تأديب أولادهم ، واجتهدوا فى ذلك وأنفقوا فيه الأموال ، فلم يدركوا من ذلك ماحاولوا » .

« فلذلك ينبغى لمدبر الصبى إذا رام اختيار الصناعة أن يزن أولا طبع الصبى ، ويسبر قريحته ، ويختبر ذكاءه ، فيختار له الصناعة بحسب ذلك . فإن ذلك أحزم فى التدبير ، وأبعد من أن تذهب أيام الصبا فيما لا يواتيه ضياعا » .

التعليم العالى

مواده : جاء فى ترجمة ابن سينا بطبقات الأطباء ، أنه بعد أن بلغ السابعة عشرة من عمره توفر على القراءة والعلم سنة ونصفا « فأعاد قراءة المنطق

وجميع أجزاء الفلسفة حتى أحكم المنطق والرياضيات والطبيعيات ثم عدل إلى الإلهيات فقرأ كتاب ماوراء الطبيعة لأرسطو واستعان على فهمه بكتاب لأبى نصر الفارابى فى أغراض مابعد الطبيعة.

ثم اتصل بنوح بن منصور السامانى، وكان مريضا بمرض حار فى علاجه الأطباء فشاركهم فى مداواته

وأتيحت له بتلك الصلة فرصة الاطلاع على مكتبة ذلك الأمير، فوجد فيها من كتب الطب والعربية والشعر والفقه مالم يقع اسمه لكثير من الناس فقرأها وظفر بفوائدها، وفرغ منها وهو ابن ثمانى عشرة سنة.

تلك هى المواد التى درسها ابن سينا فى طور الشباب أو فى التعليم العالى. وما أتيح لابن سينا من تلك التربية أتيح لسواه من العرب، كما تدل تراجم المشهورين منهم

ويؤخذ من ذلك أن العرب كانوا يحصلون فى دور التعليم العالى علوما كثيرة متنوعة، إذ شملت الطب والكيمياء والرياضة والفلك والطبيعيات والالهيات والمنطق والموسيقى والحيوان والنبات

ويشملها جميعا اسم الفلسفة أو العلوم الحكمية. ومن ثم صح أن تسمى التربية فى هذا الدور بالتربية الفلسفية

لا ينتمى إلى معهد : ينتمى التعليم العالى لدينا ولدى الأمم الأخرى إلى معاهد مختلفة تدرس فيها مواده ويحمل طلبتها أجازاتها. فعلوم اللغة العربية والشريعة تنتمى إلى دار العلوم. ففيها يتخرج الطلبة فى تلك العلوم وينال الناجحون إجازة منسوبة إليها. وكذلك تنتمى (الآداب) و (العلوم) إلى كليتيهما. وكذا الطب والهندسة والحقوق، كل منها ينتمى إلى مدرسته .

فهل كانت التربية الحكمية لدى العرب تنتمى إلى معهد؟ ليس هناك دلائل على ذلك إذا استثنينا بيت الحكمة ببغداد، ودار العلم بالقاهرة. بل إن هناك دلائل كثيرة على أنها لم تكن تنتمى إلى معهد .

(١) أن التربية العربية كانت نتيجة مجهود الأفراد من المعلمين أكثر من أنها نتيجة مجهود معاهد: كانت تدور حول المعلم لا حول المعهد . والشواهد على ذلك كثيرة . فبينما يقول الواحد منا تخرجت فى دار العلوم أو أحمل دبلوم الهندسة ، كان العربى يقول تخرجت على فلان أو أحمل أجازة فلان .

روى المقرى فى نفح الطيب أن أبا سعيد جلس فى صباه إلى أبى الغنائم لتعلم القرآن ، ودرس الفقه على المرتضى ، وأخذ العقائد عن أبى الفتح . وروى أيضا أن الشاطبى قرأ القرآن على النفرى ، وكتاب التيسير على ابن هذيل . ومن العبارات الشائعة التى تلقاها فيما تقرأ من تراجم رجالات العرب درس على الشيخ فلان ، وقرأ على الإمام فلان ، وتفقه على القاضى فلان ، وسمع على فلان وأخذ عنه

وما كانت تنسب الإجازات إلى معاهد ، وإنما كانت تنسب إلى الأساتذة . وما قصد الطلبة من المسلمين المعاهد ، وإنما قصدوا مشهورى العلماء ودرسوا عليهم ، وفخروا بحصولهم على الإجازات منهم .

ولم ينصح المربون من العرب للطالب أن يختار أحسن المعاهد ، وإنما أوصوهم بالتريث وعدم الإسراع فى اختيار الأستاذ ، ونصحوهم أن يختاروا الأعلم والأورع والأسن ، وأن يحذوا حذو أبى حنيفة فى ذلك إذ لم يختر حماد ابن أبى سليمان أستاذا له إلا بعد التأمل والفكر (١)

وقد كان ذلك شأن طلبة الأزهر لأيامنا : كان الطالب يختار الأستاذ اختيارا . فإن لم يعجبه تحول عنه إلى سواه

(٢) مزاولة العلوم الحكمية تعين على حرية الرأى . وقد كان رأى العرب فى نصرة حرية الرأى ومصادرتها قلبا . فحيثما وجدت أنصارا انتشرت العلوم الحكمية وتدارسها العلماء جهرا وأنشئت لها المعاهد . حصل ذلك أيام المأمون

---

(١) تعليم المتعلم للزرنوجى

منشئ بيت الحكمة ببغداد ، ثم أيام الحاكم بأمر الله منشئ دار العلم بالقاهرة .
وحينما نال حرية الرأى اضطهاد ، ركدت ريح الحكمة وزاولها أهلها خلسة أو سرا . حصل ذلك أيام الغزالى الذى حارب الفلسفة والاسراف فى الاعتماد على العقل فى حل مشاكل الحياة بكل ما أوتى من سعة العلم وقوة العارضة .

وفى نفح الطيب عن الفلسفة بالأندلس : — كلما عرف شخص بمدارسة الفلسفة وممارسة علم الفلك ، كان يرمى بالزندقة ويراقب أشد المراقبة ويرمى بالحجارة لأوهى الأسباب . وربما أحرق قبل أن يصل أمره إلى السلطان .

وقد طورد ابن رشد لاشتغاله بالفلسفة وحوكم وسجن وعذب . وفى تاريخ الحكماء لابن القفطى أن عبد السلام بن عبد القادر بن أبى صالح الجيلى البغدادى المدعو بالركن ، كان (قد قرأ علوم الأوائل وأجادها . واقتنى كتبا كثيرة فى هذا النوع . واشتهر بهذا الشأن شهرة تامة . وله تقدم فى الدولة الإمامية الناصرية . وحصل له بتقدمه حسد من أرباب الشر . فثلبه أحدهم بأنه معطل وأنه يرجع إلى أقوال أهل الفلسفة فى قواعد هذا الشأن . فأوقعت الحفظة(١) عليه وعلى كتبه . فوجد فيها الكثير من علوم القوم . وبرزت الأوامر الناصرية بإخراجها إلى موضع ببغداد يعرف بالرحبة ، وأن تحرق بحضور الجمع الجم . ففعل ذلك وأحضر لها عبيد الله التيمى البكرى المعروف بابن المارستانية . وجعل له منبر صعد عليه وخطب خطبة لعن فيها الفلاسفة ومن يقول بقولهم . وذكر الركن عبد السلام هذا بشر . وكان يخرج الكتب التى له كتابا كتابا . فيتكلم عليه ويبالغ فى ذمه وذم مصنفه ثم يلقيه من يده لمن يلقيه فى النار .

أخبرنى الحكيم يوسف السبتى الاسرائيلى قال : — « كنت ببغداد يومئذ تاجرا وحضرت المحفل وسمعت كلام ابن المارستانية وشاهدت فى يده كتاب

---

(١) الحفظة « كسدرة » الحمية والغضب فى الشىء الذى ينبغى أن يحفظ .

الهيئة لابن الهيثم ، وهو يشير إلى الدائرة التي مثل بها الفلك : وهو يقول وهذه الداهية الدهياء والنازلة الصماء والمصيبة العمياء . وبعد إتمام كلامه خرقها وألقاها إلى النار . قال : « واستدللت على جهله وتعصبه إذ لم يكن في الهيئة كفر ، وإنما هي طريق إلى الإيمان ومعرفة قدرة الله جل وعز فيما أحكمه ودبره » . واستمر الركن عبد السلام في السجن معاقبة على ذلك إلى أن أفرج عنه في يوم السبت رابع عشر شهر ربيع الأول سنة ٥٨٩ . وأعيد عليه ما كان له بعد الذي ذهب . وعاش بعد ذلك عمرا طويلا) .

وهذا ابن خلدون الذي شرب من الفلسفة عللا بعد نهل يقول في مقدمته « الفلسفة ضررها في الدين كثير »

ولمبغضي الفلسفة ومضطهديها في العصور المتأخرة الإسلامية ، سلف من أهل العصور الأولى أيام كانت الدولة للحكمة وناصريها المشجعين لها . فهذا أبو يوسف صاحب أبي حنيفة الذي عاش في القرن الثاني الهجري ، في صدر الدولة العباسية ، يقضي على الفلسفة وطالبيها قضاءه القاسي إذ يقول : « ثلاثة لا يسلمون من ثلاثة : من طلب النجوم لم يسلم من الزندقة . ومن طلب الكيمياء لم يسلم من الفقر . ومن طلب غرائب الحديث لم يسلم من الكذب [1] »

ولم ينفرد العرب بمطاردة طائفة منهم في بعض العصور للفلاسفة والحكماء فقد كانت تلك شنشنة الأوربيين في العصور الوسطى وصدر العصور الحديثة فهذا روسو من أبناء القرن الثامن عشر لم تحتمل منه أوروبا حريته في الفكر حتى أحرق كتابه « أميل » علنا بمدينة جنوة

وقد يكون لزعماء الدين وحماة العقائد من المسلمين عذر في نظرهم شزرا إلى الفلسفة واتهامهم الفلاسفة . ذلك أنهم كانوا يخشون على العامة أن تؤدي

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه.

مزاولتهم إياها إلى الكفر والزندقه ، كما فعل أبو معشر . روى ياقوت بمعجم الأدباء أن « على بن يحي المنجم ، المتوفى سنة ٢٥٧ ، كان من ندماء المتوكل وخواصه المتقدمين عنده . وكان شاعرا راوية علامة إخباريا . وكانت له بكركر من نواحى القفص[1] ضيعة نفيسة وقصر جليل فيه خزانة كتب عظيمة يسميها خزانة الحكمة ، يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم . والكتب مبذولة فى ذلك لهم . والصيانة مشتملة عليهم . والنفقة فى ذلك كله من قبل على بن يحي . فقدم أبو معشر المنجم من خراسان يريد الحج فوصفت له الخزانة . فمضى ورآها . فهاله أمرها . فأقام بها . وأضرب عن الحج وتعلم فيها علم النجوم . وأغرق فيه حتى ألحد . وكان ذلك آخر عهده بالحج وبالدين والإسلام أيضا » .

وعلى الرغم من اضطهاد العلوم الحكمية ، فقد زاولها الحكماء سرا وألفوا لها جمعيات من أنفسهم كما فعل إخوان الصفاء الذين بحثوا آراءهم خفية ثم نشروها بين الناس فى رسائلهم المعروفة

والظاهر أن عصور الاضطهاد تخللها عصور تشجيع . ولذلك كثر الحكماء فى العرب حتى عدوا بالمئات ، وكثرت المؤلفات فى الحكمة . وقد ألف ابن القفطى كتابا كله تراجم للحكماء ، ولابن أبى أصيبعة كتاب فى مجلدين فى تراجم الأطباء

الخلاصة : يؤخذ مما قدمنا أن العرب المسلمين مارسوا علوما شتى درس بعضها فى المعاهد والمدارس ودرس بعضها اختيارا محبة للعلم لذاته ، بعضها محمود وبعضها مذموم فى نظر من يخشون العلوم الحكمية . وقد صنف الأنصارى[2]

---

(١) كركر والقفص مدينتان بالقرب من بغداد .

(٢) هو أبو يحي زكريا الأنصارى من علماء القرن العاشر الهجرى والسادس عشر الميلادى .

تلك العلوم فى كتابه اللؤلؤ النظيم فى روم التعلم والتعليم تصنيفا مختصرا نختم به هذا البحث

(١) العلوم الشرعيـة : الفقه والتفسير والحديث

(٢) الأدب : فقه اللغة والنحو والصرف والبلاغة والعروض والإنشاء والمطالعة والتـاريخ

(٣) العلوم الرياضية : الهندسة والفلك والحسـاب والجبر والموسيقى والسياسة والأخلاق

(٤) العلوم العقليـة : المنطق والمناظرة والعقائد والسمعيات والطب والـكيمياء والعلوم الطبيعية

(٥) عـلوم متنوعة : المساحة والطب البيطرى والزراعة والسحر والتنجيم وتفسير الأحلام

الإجازة : من أتم دراسته على الوجه السـابق منح إجازات تشهد أنه درس وتخوله حق التدريس . لم تعطه تلك الاجازات معاهد ، وإنمـا كان يعطيها إياه أساتذته الذين درس عليهم . وقد كانت الاجازة فى الغالب بتوقيع الشيخ على الـكتاب الذى درسه عليـه الطالب . وكانت أحيانا بأن يـكتب الشيخ للطالب شهادة يحق له بهـا أن يعلم المواد التى درسها عليه . وإذاً كان كل طالب بيده إجازة من كل شيخ درس عليه بنجاح . وقد كان الطالب أحيانا يدرس على عـدد من المشايخ لا يـكاد يصـدق . روى ابن خلـكان أن تاج الإسلام أبا سعد درس على ٤٠٠٠ شيـخ . وإن تعجب فاعجب لمقدار الزمن الذى قضاه بين يدى كل واحد من هؤلاء

وقد كانت قيمة الاجازة معقودة بالصيت والمقام الذى للشيخ الذى منحها

الرحلة فى طلب العلم

طلب الشيء السعي للحصول عليه . ولم يكن المسلم فى طور التحصيل يكتفى بالتعلم فى بلده أو قطره . وإنما كان يقصد الأقطار الأخرى من أجل العلم يطلبه أينما كان ، ويرى كما رأى ابن خلدون «أن الرحلة فى طلب العلم ولقاء المشيخة مزيد كمال فى التعلم» . ولذلك كان يرتحل من بلده ، ويجوب الآفاق ، ويتنقل فى مشارق الأرض ومغاربها مرتادا معاهد العلم باحثا عن العلماء أينما كانوا ليتلقى عنهم علم مالديهم ، غير مكترث لما يلاقى من الصعاب . ومن ثم سمى بحق «طالب علم» .

ومن يقرأ كتب التراجم كوفيات الأعيان وطبقات الأطباء وتاريخ الحكماء ، يصادف عددا كبيرا من طلاب العلم الذين تركوا أوطانهم وقضوا شطرا كبيرا من حياتهم فى طلب العلم صابرين على ألم الغربة ووعثاء السفر .

جاء بوفيات الأعيان أن الخطيب التبريزى (١) عثر على نسخة من كتاب التهذيب للأزهرى فى عدة مجلدات يعوز بعض مسائلها شيء من التحرير . فسأل ذوى النصح أين يجد الثبت لتحقيقها . فدلوه على أبى العلاء . فصمم على قصده على الرغم من بعد الشقة وعجزه عن أجرة دابة تحمله ويحمل عليها الكتاب . فوضع الكتاب فى حقيبة وحمله على ظهره . وسافر من تبريز إلى المعرة قاطعا حوالى ٧٠٠ ميل مشيا على الأقدام . ولما وصل المسكين إلى المعرة ، رأى ما هاله إذ وجد العرق قد نفذ إلى الكتاب فأثر فيه ، «حتى لو رآه من لا يعرف الحال فيه ظن أنه غريق» وما هو به .

وفى الوفيات أيضاً أن أبا القاسم سليمان الفلسطينى (٢) رحل إلى بلاد الجزيرة فالحجاز فاليمن فمصر لطلب العلم ، وقضى فيه ٢٢ سنة لقى فيها ألفا من المشيخة .

---

(١) التبريزى هو شارح ديوان الحماسة عاش بين سنتى ٤٢١ ، ٥٠٢

(٢) هو لخمى طبرانى من طبرية الشام . عاش بين سنتى ٢٦٠ ، ٣٦٠ .

وفيها أن تاج الإسلام أبا سعد غادر وطنه في طلب العلم . فجاب الآفاق وقصد الأمصار في كل الجهات وجاوز الفرات إلى خراسان ، ونزل بفارس والحجاز والموصل وسورية حيث لقي من العلماء ينابيع عرفان استقى منها ما أطفأ ظمأه ولكنه لم يلق منهم إلا أربعة آلاف كما تقدم ! !

وفي نفح الطيب أن طالبا من قرطبة درس ببلده ثم رحل لمزيد الكمال في التعلم إلى مكة والمدينة وجدة وغزة وعسقلان وصور وقيسارية فأخذ عن ٢٣٠ شيخا

ومما شجع على الرحلة في طلب العلم ماأشرنا اليه آنفا من الهبات السخية والأوقاف الدارة التي كانت في الأقطار العربيةمن نصيب العلماء وطلاب العلم . حكى ابن جبير أن المعوزين من طلاب العلم بالاسكندرية يمدون بحاجتهم من المطعم والمسكن والملبس والعلاج لدى المرض . وقد شاهد مثل ذلك بالقاهرة ودمشق : ورأى بالأقطار الشرقيه من الملابسات المغرية ماجعله يحض بني جلدته بالأندلس أن يرحلوا إلى الشرق لطلب العلم . قال في رحلته من رام النجاح وبلوغ الأرب من أهل المغرب فليجيء إلى دمشق طالب علم . فإنه يجد سبله ميسورة وسيكفي هم المطعم والمسكن . وحكى ابن بطوطة أن طلبة العلم بواسط كانوا يمنحون الملابس ويعطون (جرايات) يومية . وفصل المقريزي الأمر كعادته . فذكر أن طالب علم كان يأخذ نقودا وخمسة أرغفة من الخبز الجيد كل يوم . ويمنح لباسين كل سنة لباسا للشتاء ولباسا للصيف .

وقد شمل تيسيرهم السبل لطلب العلم ، الشيوخ والكهول . ذكر ابن بطوطة أن مدرسة بدمشق تدعى مدرسة ابن عمر كان طلبتها من الشيوخ والكهول الذين كانوا يميلون لدراسة علوم القرآن . وقد حبست عليها الحبوس لينفق من ريعها على الطلبة والمعلمين . فنالوا جميعا كفايتهم من المطعم والملبس ثم ذكر أنه كان بداخل المدينة مدرسة أخرى على هذا النمط تدعى مدرسة ابن منجى

ومما يلاحظ فى هذا أن الرحلة بين طلاب العلم كانت أكثر ما تكون من الأقطار الغربية (الأندلس وبلاد المغرب) إلى الأقطار الشرقية . ولعل السر فى ذلك ماذكر ابن خلدون فى مقدمته من أن «أهل المشرق على الجملة أرسخ فى صناعة تعليم العلم حتى ليظن الكثير من رحالة أهل المغرب إلى المشرق فى طلب العلم أن عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب ، وأنهم أشد نباهة وأعظم كيسا بفطرتهم الأولى ، وأن نفوسهم الناطقة أكمل بفطرتها من نفوس أهل المغرب . ويعتقدون التفاوت بيننا وبينهم فى حقيقة الانسانية ويتشيعون لذلك ويولعون به لما يرون من كيسهم فى العلوم والصنائع »

كذلك اعتقد أهل المغرب فى أهل المشرق فى سالف الأيام ، واليوم يعتقد الشرقيون ذلك الاعتقاد فى الأوربيين ، والتاريخ يعيد نفسه ، والأيام دول

وهو اعتقاد فى غير محله كما بين ابن خلدون ، « إذ ليس بين قطر المشرق والمغرب تفاوت بهذا المقدار الذى هو تفاوت فى الحقيقة الواحدة . وإنما الذى فضل به أهل المشرق أهل المغرب (ونحن الآن بالطبع نعكس) هو ما يحصل فى النفس من آثار الحضارة من العقل المزيد »

المعلمون

نزل القرآن على النبى صلى الله عليه وآله وسلم فبلغه الناس ، ثم بين لهم أحكام الدين بقوله وفعله وتقريره . فإذا عددنا ذلك تعليما كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم أول معلم فى الإسلام . وقد ساعده فى ذلك كبار الصحابة الذين بعثهم صلى الله عليه وآله وسلم مع وفود العرب ليعلموا الناس حدود الإسلام وما جاء من شرائع الدين .

ثم إنه فى غزوة بدر ، إذ كان الإسلام لا يزال يقاتل ليحيا ، أسر المسلمون بعض المشركين . فكانت عليهم الفدية ليخلصوا . فمن استطاع فدى نفسه بالمال ، ومن لم يجد وكان قارئا فدى نفسه بتعليم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة

أولئك هم أول من سجل التاريخ الإسلامى من المعلمين . ثم إنه لا بد أن يكون المسلمون قد استعانوا بغير المسلمين فى تعلم ما يجهلون من الحساب ونحوه ، وأنهم ما زالوا كذلك حتى فرغوا من الجهاد والفتوح ونشأ من المسلمين من استطاع مزاولة التعليم .

طبقات المعلمين : لما استقرت أمور المسلمين وفرغوا لأعمال السلم وفنونه كثر المتعلمون وتبع ذلك أن كثر المعلمون وتفاوتت درجاتهم فكانوا على ثلاث طبقات يمتاز بعضها عن بعض بمركزها العلمى والاجتماعى

(١) معلمو الصبيان الذين علموا القرآن بالكتاتيب . وقد كانوا فى الغالب يشبهون نظراءهم من المعلمين لعهدنا بمصر وفلسطين وسورية . كانت جل معارفهم القراءة والكتابة وحفظ القرآن . وكان التعليم فى نظرهم كما هو فى نظر (فقهائنا) مجرد وسيلة لكسب القوت الضرورى . يدل على ذلك أننا دوما نسمع معجبين حديث من سمعت نفسه من أولئك المعلمين إلى العلا ، الذين لم يدعوا ما ولدوا فيه من الفقر يحول بينهم وبين ما طمحوا إليه ، بل جدوا حتى أدركوا المعالى وكانت لهم الشهرة والصيت الذائع ، مثل الحجاج والكميت وعبد الحميد الكاتب وعطاء بن أبى رباح .

(٢) المؤدبون الذين ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة إلى تعليم أولاد الخاصة أو تعليم أولاد الملوك المرشحين للخلافة ، مثل عبد الصمد ابن عبد الأعلى معلم ولد عتبة بن أبى سفيان ، والضحاك بن مزاحم وعامر الشعبى معلمى أولاد عبد الملك بن مروان ، وعبد الله بن المقفع معلم بعض بنى إسماعيل ابن على . وعلى بن حمزة الكسائى معلم أولاد هرون الرشيد

(٣) الأئمة الاخصائيون فى مواد الثقافة العالية كالمنطق والعلوم الرياضية والعلوم اللسانية والعلوم الشرعية . وهم أساتذة الكليات والمدارس العالية التى كانت منتشرة بالأمصار الإسلامية ، والتى قصدها الطلاب من كل فج ليجلسوا

حثات بين أيديهم ليغترفوا من بحار علومهم الزاخرة :

أجورهم : من الآداب التى يحتم الغزالى على المعلم أن يتحلى بها « أن يقتدى بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه . فلا يطلب على إفادة العلم أجرا ولا يقصد به جزاء ولا شكرا . بل يعلم لوجه الله تعالى وطلبا للتقرب إليه »

كذلك فعل السيرافى [١] من قبل . فقد كتب عنه ياقوت فى معجم الأدباء أنه « ولى القضاء على بعض الأرباع ببغداد . وكان يدرس بها القرآن والقرا آت وعلوم القرآن والنحو واللغة والفقه والفرائض والعروض والقوافى والحساب والهندسة والشعر والأخبار والحديث . ولكنه كان زاهدا ورعا لا يأخذ على الحكم والتعليم أجرا . وإنما كان يأكل من كسب يمينه . فكان لا يخرج إلى مجلس الحكم ولا إلى مجلس التدريس حتى ينسخ عشر ورقات يأخذ أجرتها عشرة دراهم تكون بقدر مئونته . ثم يخرج إلى مجلسه .

لكن الذى يراه حجة الإسلام ، والذى تهيأ من قبله للسيرافى — ذلك الإمام التقى الورع الزاهد ، لم يمكن جمهرة المعلمين العمل به ولا يمكن ولن يمكن . فليس لأكثرهم همة السيرافى الذى كان يرتزق من عرق جبينه ثم يخرج إلى مجلسه ليحكم بين الناس وليعلمهم ابتغاء مرضاة الله . وإذا كان ذلك كذلك ، فأنى للمعلم حاجته من المطعم والمسكن والملبس إذا لم يؤجر على عمله الذى حبس عليه مجهوده وزمنه إن أئمة الفقه لم يروا بأسا فى أخذ الأجر على تعليم القرآن ، فتعليم غير القرآن أولى . وعمل الناس قديما وحديثا على اتخاذ التعليم وسيلة للارتزاق كسائر الصنائع .

كان معلمو الكتاتيب مثلهم اليوم يؤجرون على عملهم . وكانوا مثلهم يتقاضون أجورهم عينا لا نقدا . فكما يأخذ (الفقى) بمصر وفلسطين أجره

---

(١) هو شارح كتاب سيبويه . توفى سنة ٣٦٨ هـ .

خبزا ويضاولبنا وخضراوات، كذلك كان معلم الصبيان فى صدر الإسلام . يدل على ذلك قول خصوم الحجاج (واسمه كليب) يعيرونه بماضي حياته :

أينسى كليب زمان الهزال ... وتعليمه ســـورة الكوثر
رغيف له فلكة ما يرى ... وآخر كالقمـــر الأزهر

وعلى هذا لم تكن أجور المعلمين فى أول الأمر منظمة ولا معلومة المقدار . وإنما كان الأمر فيها موكولا لسخاء أولياء أمور الصبيان وحالهم المادية غنى وفقرا . ولكن يظهر أنه بتوالى الزمن نظمت مرتبات المعلمين . روى المقريزى أن السلطان بيبرس أنشأ الظاهرية وحتم أن يكون التعليم فيها بأجور لاتنقص . وذكر ابن جبير أن بعض المعلمين أخذ كل منهم خمسة دنانير كل شهر ، وأن سواهم أخذوا أكثر ، وآخرين أقل . وفى خطط المقريزى أن الشيخ مجد الدين تقاضى ١١ دينارا كل شهر ، وأن آخر تقاضى ٤٠ دينارا كل شهر كذلك . وفى موضع آخر منها أن معلمين بإحدى مدارس القاهرة لأيام المقريزى كان يتقاضى كل منهم ٣٠٠ درهم كل شهر وذلك يساوى ١٢ دينارا . وذكر السبكى أن معلما تقاضى ألف درهم كل شهر

فإذا كان الدينار ٥٠ قرشا والدرهم قرشين ، تكون أجور المعلمين بمقتضى تلك الروايات ، نزلت فى حدها الأدنى إلى جنيهين ونصف وبلغت فى حدها الأعلى عشرين جنيها . وإذا لاحظنا ارتفاع قيمة النقدين فى تلك الأيام ، ولاحظنا أن علماء الأزهر فى أوائل القرن الهجرى الحاضر تراوحت مرتباتهم بين جنيه واثنين مع ضم قيمة الجراية التى كانت لهم ، وأن البناء أيام العباسين كانت أجرته الشهرية لاتزيد على دينار ونصف — إذا لاحظنا كل ذلك ، وجدنا المعقول أن نستنبط أن أعظم راتب للواحد من عامة المعلمين لم يتجاوز صغرى النهايتين أو زاد عليها زيادة معقولة . أما ما زاد على ذلك إلى النهاية الكبرى فالغالب أنه كان راتبا لمؤدب أولاد الملوك أو الأمراء أو ذوى اليسار ، أو لأستاذ فى معهد راق أو إمام ممتاز فى مدرسة عالية .

ويظهر أنه قد كان فى غابر الأيام لبعض المعلمين ما لفريق من معلمى زماننا من الضراعة وذلة النفس وهمة المحتاجين وقلة الامتناع وقبول التعليم بأى ثمن . روى الجاحظ عن ابن عتاب قال : — « يكون الرجل نحويا عروضيا وقسلما فرضيا وحسن الكتابة جيد الحساب حافظا للقرآن راوية للشعر، وهو يرضى أن يعلم أولادنا بستين درهما . ولو أن رجلا كان حسن البيان حسن التخريج للمعانى ليس عنده غير ذلك لم يرض بألف درهم . وإن النحوى الذى لا امتناع عنده كالنجار الذى يدعى ليعلق بابا وهو أحذق الناس ، ثم يفرغ من تعليقه ذلك البـاب ، فيقال له انصرف . وصاحب الامتناع يراد فى الحالات كلها » .

صفاتهم : عنى المفكرون فى شئون التربية من المسلمين عناية خاصة بالآداب التى ينبغى أن يكون عليها المعلمون . ولا غرو ، فان الإسلام دين الأخلاق . والمعلمون قوامون على الأخلاق . فلا جرم كان حتما أن يكون المعلم على خلق عظيم ، وأن يبين له أئمة التربية ما يجب أن يتحلى به من الخلال

(١) قال ابن سينا فى رسالة السياسة : — « ينبغى أن يكون مؤدب الصبى عاقلا ذا دين بصيرا برياضة الأخلاق حاذقا بتخريج الصبيان وقورا رزينا بعيدا من الخفة والسخف قليل التبذل والاسترسال بحضرة الصبى غير كز ولا جامد (١) بل حلوا لبيبا ذا مروءة ونظافة ونزاهة » .

(٢) وجاء فى رسائل اخوان الصفاء : « من أسعد السعادات أن يتفق لك يا أخى معلم رشيد عارف بحقائق الأمور مؤمن بيوم الحساب عالم بأحكام الدين بصير بأمور الآخرة خبير بأحوال المعاد مرشد لك إليها . . . من السالمى الصدور المستعلمين شرائع الأنبياء الباحثين عن الأسرار من كتبهم التاركين اللهو والجدل غير المتعصبين على المذاهب » .

ما يجب عليهم للطلبة : من اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمرا عظيما وخطرا

---

(١) الكز منقبض الوجه عابسه

جسميا ، وكان لزاما أن يعرف ما يجب عليه لمن يربيهم وأن يقوم بتلك الواجبات لتحسن العلائق فيما بينه وبينهم فيثمر التعليم . وقد عقد الغزالى فى كتاب الإحياء فصلا بيّن فيه تلك الواجبات نقتبس هنا بعضه ونرجىء بعضه لنثبته فى بحث أساليب التعليم والتربيه الخلقية لأنه هناك أنسب وهما به أولى . فمن تلك الواجبات كما قال الغزالى :

(١) الشفقة على المتعلمين وأن يجريهم مجرى بنيه . قال صلى الله عليه وآله وسلم «إنما أنا لكم مثل الوالد لولده»

(٢) أن لا يقبح فى نفس المتعلم العلوم التى وراء ما يعلّم . كمعلم اللغة إذ عادته تقبيح علم الفقه . ومعلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث والتفسير . وأن ذلك نقل محض وسماع وهو شأن العجائز ، ولا نظر للعقل فيه . ومعلم الكلام ينفر من الفقه ، ويقول : ذلك فروع . وهو كلام فى حيض النسوان . فأين ذلك من الكلام فى صفة الرحمن . فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين ينبغى أن تجتنب »

ولاخوان الصفاء فى هذا المعنى : «لا ينبغى لاخواننا أن يغتابوا علما من العلوم ويهجوا كتابا من كتب الحكماء ويتعصبوا على مذهب من المذاهب . لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها ويجمع العلوم جميعا . وذلك أنه هو النظر فى جميع الموجودات بأسرها الحسية والعقلية من أولها إلى آخرها وظاهرها وباطنها وجليها وخفيها»

شرف التعليم والمنزلة الاجتماعية للمعلمين : أظن أنه يهم طلبة اليوم ومعلمى الغد أن يقفوا على رأى العرب وغير العرب فى صناعتهم ، وبخاصة إذا كان فى تلك الآراء ما يعظمها فى أعينهم . فانهم متى رأوها عظيمة ، عزّت نفوسهم وسمت هممهم ، وأيقنوا أنهم يؤدون للمجتمع خدمة إن لم تكن أشرف الخدمات فليست أقل قيمة من خدمات سواهم من أرباب المهن والأعمال الراقية . ولذلك نطلعهم هنا على رأى بعض أئمة العرب فى صناعتهم

ثم نذكر كلمة لمارتن لوثر ليقفوا على رأى بعض رجال التربية من الأوربيين فيها .

يرى الغزالى ، أعلى الله مكانته ، صناعتكم أشرف الصناعات . واستدل على ذلك كعادته بالمنقول والمعقول

فمن المنقول ماروى عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه خرج ذات يوم ، فرأى مجلسين أحدهما يدعون الله عزّ وجلّ ويرغبون إليه . والثانى يعلمون الناس ، فقال : أماهؤلاء فيسألون الله ، فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم . وأما هؤلاء فيعلمون الناس وإنما بعثت معلما . ثم عدل إليهم وجلس معهم

ومن المعقول أن شرف الصناعات والعلوم (١) إمابشرف الغريزةالتى بها يتوصل إلى معرفتها . ولذا فضلت العلوم العقلية العلوم اللغوية ، إذ تدرك الحكمة بالعقل ، واللغة بالسمع . والعقل أشرف من السمع (٢) وإمابعموم نفعها ولذا فضلت الزراعة الصياغة (٣) وإمابشرف محلها . ولذا فضلت الصياغة الدباغة ، إذمحل الأولى الذهب ومحل الأخرى جلد الميتة .

وصناعة التعليم إنما يتوصل إلى حذقها والمهارة فيهابالعقل وصفاء الذكاء . والعقل أشرف مافى الإنسان . ثم إن عموم نفعها لا يستراب فيه فإن نفعها وثمرتها سعادة الآخرة . ثم هى شريفة المحل . فإن المعلم متصرف فى عقول البشر ونفوسهم . وأشرف المخلوقات جنس الإنس . وأشرف مافى الإنسان عقله ونفسه . فمحل صناعة التعليم أشرف الأشرف . فلا جرم كانت صناعة التعليم أشرف الصناعات بالاعتبارات الثلاثة .

ولمارتن لوثر كلمة بليغة مؤثرة فى هذا المعنى معرّبة بتاريخ التربية نوردها هنا كما وعدنا . قال : — « لولا المعلمون ما رأينا بين ظهرانينا واعظا ولا فقيها ولا كاتبا ولا طبيبا ولا حكيما . فهؤلاء جميعا غرس المعلم وثمرة أعماله وجهوده . إن المعلم النشيط الذى يخلص فى العمل ويراقب الله فى واجبه ، ويبذل

قوته ويرضى ضميره فى مهنته، لا تستطاع مكافأته . وكل مال يغدق عليه وإن كثر ، ضئيل فى جانب أياديه علينا ومعروفه فينا . ولقد أحسن أفلاطون ، وهو وثنى ، الفضل الذى يسدى إلى الأمم على أيدى معلميها . فأعلى مكانتهم وربأ بجهدهم أن يفى به شكر أو يكفى فى المجازاة عليه مال . ولكننا نغض منهم ونعرض عنهم وننظر إليهم فى المجالس شزرا ، ثم ندعى بعد ذلك أننا من أمة لها مدنية ودين . لو أنى أكرهت على مغادرة الوعظ والإرشاد ، وطلب الى أن ألتمس عملا آخر ، لم أجد عملا أحب إلى نفسى من تهذيب الأحداث . فإنى أراه أنفع شىء بعد الوعظ . على أن الشك كثيرا ما يغلبنى على قلبى . فلا أدرى أى المهنتين أشرف وأنبل

إنك يا صاح لن تستطيع أن تجد فوق الأرض فضيلة أسمى من تلك التى تراها فى رجل غريب عنك حين يجلس إلى أولادك ، فيعالج نفوسهم بأنواع التأديب ، ويقومها بصنوف التهذيب ، متخذا من صبره معينا ، ومن إخلاصه نصيرا . ذلك عمل قلما يبذله الآباء لأبنائهم وهم أقرب الناس إليهم وأشدهم حبا وعطفا عليهم »

ثم دعنا ننتقل إلى بحث المكانة التى كانت للمعلمين فى المجتمعات الإسلامية .
عقد الجاحظ فى البيان والتبيين (١) فصلا سماه « باب المعلمين » بدأه بحكم قاس حكم به العامة على معلمى الصبيان عامة . قال : « من أمثال العامة (أحمق من معلم كتاب) . وقد ذكرهم صقلاب :

وكيف يرجى العقل والرأى عند من   يروح على أنثى ويغدو على طفل

وفى قول بعض الحكماء : (لا تستشيروا معلما ولا راعى غنم ولا كثير القعود مع النساء . وقال : (لا تدع أم صبيك تضربه ، فإنه أعقل منها وإن كانت أسن

---

(١) راجع الجزء الأول صفحة ١٣٩ من طبعة القاهرة سنة ١٣٣٢ بمطبعة الفتوح الأدبية

منه) . وقد سمعنا قول بعضهم : (الحمق فى الحاكة والمعلمين والغزالين) ومازلت أسمع هذا القول فى المعلمين »

وقد خال خصوم الحجاج تلك الأحكامَ ثمارَ عقل ناضج وفكر سديد. فكالوا منها له بالكيل الوافى . وقد قدمنا لك شيئا من تعييرهم إياه بأنه كان معلم صبيان . وقال الشاعر :

فماذا عسى الحجاج يبلغ جهده ... إذا نحن جاوزنا حفير زياد
فلولا بنو مروان كان ابن يوسف ... كما كان ، عبدا من عبيد إياد
زمان هو العبد المقر بذلّه ... يراوح صبيان القرى ويغادى

ولله در الجاحظ إذ دفع تلك الوصمة عن المعلمين عامة . فقال :

« المعلمون عندى على ضربين : منهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة إلى تعليم أولاد الخاصة . ومنهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة إلى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة . فكيف تستطيع أن تزعم أن مثل على بن حمزة الكسائى ومحمد بن المستنير الذى يقال له قطرب وأشباه هؤلاء ، يقال لهم حمق . لا يجوز هذا القول على هؤلاء ولا على الطبقة التى دونهم (يعنى معلمى أولاد الخاصة) . فإن ذهبوا إلى معلمى كتاتيب القرى ؛ فكيف نقول هذا القول فى هؤلاء وفيهم الفقهاء والشعراء والخطباء مثل كميت ابن زيد وعبد الحميد الكاتب وقيس بن سعد وعطاء بن أبى رباح ، ومثل عبد الكريم بن أبى أمية وحسين المعلم وأبى سعيد المعلم »

وإذاً فليس صحيحا أن يوصم كل المعلمين بالنوك وأفن الرأى . وكل ما فى الأمر أن لكل قوم حاشية وسفلة . والمعلمون فى ذلك كسواهم : ظهر بضعة أفراد منهم بالحمق وضعف الرأى ، ولم يلتفت العامة إلى المعلمين الذين امتازوا بالعلم ورجحان العقل وسداد الفكر — وكثير ماهم . بل حكموا على الكل بحكم الأقل ، ودهنوا الوجوه جميعا بذلك الطلاء الأسود كما يقولون فى الأمثال . فكانت تلك الأمثال والأقوال التى اتخذها الناس فكاهة ، والتى آلموا بها

أفاضل الرجال كلما كان لهم فى ذلك مأرب . وذلك شأن العامة فى كل زمان ومكان ومع كل الطوائف وفى كل الأحوال : يعمّمون حيث ينبغى التخصيص ويصنعون قواعد كلية من جزئى أو اثنين .

دع ذا وعدّ النظر فيما جاء فى الموضوع لابن خلدون . قال : — « التعليم لهذا العهد من جملة الصنائع المعاشية البعيدة من اعتزاز أهل العصبية . والمعلم مستضعف مسكين منقطع الجذم[1] . . . وإن التعليم صدر الإسلام والدولتين لم يكن كذلك : كان أهل الأنساب والعصبية الذين قاموا بالملة هم الذين يعلمون كتاب الله وسنة نبيه صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم إذ هو كتابهم المنزل على الرسول منهم ، وبه هدايتهم ، والإسلام دينهم : قاتلوا عليه وقتلوا ، واختصوا به من بين الأمم وشرفوا ، فيحرصون على تبليغ ذلك وتفهيمه للأمة ، لا تصدّهم عنه لائمة الكبر ، ولا يزعهم عاذل الأنفة . ويشهد لذلك بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم كبار أصحابه مع وفود العرب يعلمونهم حدود الإسلام ، وماجاء به من شرائع الدين . فما استقر الإسلام ووشجت عروق الملة ، حتى تناولها الأمم البعيدة من أيدى أهلها ، واستحالت بمرور الأيام أحوالها ، واشتغل أهل العصبية بالقيام بالملك والسلطان . فدفع للعلم من قام به من سواهم ، وشمخت أنوف المترفين وأهل السلطان عن التصدى للتعليم ، واختص انتحاله بالمستضعفين ، وصار منتحله محتقرا عند أهل العصبية[2] » .

بهذا كان للتعليم والمعلمين طوران فى عهدين مختلفين : الأول عهد « صدر الإسلام والدولتين » الأموية والعباسية . وفيه لم يكن التعليم بعيدا « من اعتزاز أهل العصبيه » ولم يكن فى المعلمين « مستضعف مسكين منقطع الجذم

---

(١) الجذم (بالكسر وقد يفتح) أصل الشيء

(٢) حذفنا من عبارة ابن خلدون مالا صلة له بموضوع بحثنا الحاضر . ولذا لزم التنويه

بل كانوا المثل العليا للاعتداد بالنفس . جاء بمحاضرات الأدباء أن الخليفة هرون الرشيد أنفذ فى طلب الإمام مالك ليحادثه فى بعض الشئون . فرد الإمام رده المشهور : « من أرادنا فليقصد مجلسنا » . فقصده الخليفة نفسه بمنزله دون أن يجد فى ذلك غضاضة ولا حطا من منزلته السامية ومقامه العالى . وفى نفح الطيب أن أمير المؤمنين الحكم[1] بعث يطلب إلى قصر الملك الفقيه أبا إبراهيم وكان إذ أتاه الرسول يدرس فى بعض المساجد . فكان رده أن قال للرسول بلّغ أمير المؤمنين تحيتى وخبّره أنك صادفتنى ببيت الله مشغولا بتعليم بعض الطلبة ؛ وأنى لذلك لن أستطيع قصده حتى ينتهى الدرس .

وحدّث أبو بكر بن جابر خادم أبى داود صاحب السنن المشهور ، قال : — (كنت معه ببغداد . فصلينا المغرب ، إذ قرع الباب ففتحته . فإذا الأمير أبو أحمد الموفق يستأذن . فأذن له أبو داود . فدخل وقعد . ثم أقبل أبو داود وقال : — « ماجاء الأمير فى مثل هذا الوقت ؟ » قال : — « خلال ثلاث » . قال : — « وماهى ؟ » . قال : — « تنتقل إلى البصرة فتتخذها وطنا لترتحل إليك طلبة العلم من أقطار الأرض » . قال : — « هذه واحدة . هات الثانية » . قال : — « تروى لأولادى كتاب السنن » . قال : — « نعم . هات الثالثة » . فقال : — « تفرد لهم مجلسا للرواية . فإن أولاد الخلفاء لا يقعدون مع العامة » . فقال : — « أما هذه فلا سبيل إليها . فإن الناس شريفهم ووضيعهم فى العلم سواء » .) وكان ما أراد أبو داود . فكان أولاد الموفق يحضرون مجلسه فيسمعون حديثه مع العامة .

وكان المعلمون موضع احترام العامة والخاصة وأهل العصبية من ذوى السلطان والملك . لا فرق فى ذلك بين معلمى الصبيان والمعلمين من الطراز

---

(١) هو الحكم بن هشام ، الخليفة الأموى بالاندلس . ولد سنة ١٥٤ . وتولى الحكم بالأندلس سنة ١٨٠ . وانتهى حكمه بوفاته سنة ٢٠٦

الأول . حدث ابن حوقل فى رحلته أنه كان بيلرم ٣٠٠ مدرسة لتعليم الصبيان ، وكان معلموها متمتعين باجلال أهلها . وفى وفيات الأعيان أنه بلغ من إعزاز الناس لإمام الحرمين أنه لما توفى أغلقت كل الحوانيت بمركز تعليمه حدادا ، وبقى طلبته الأربعمائة من أجله فى حزن عميق سنة كاملة . وقد نال الغزالى رحمه الله إجلال القوم جميعا حتى لقبوه بحجة الإسلام . وقد بقى له ذلك إلى أيامنا هذه ، حتى أنه لا يذكر إلا وذكراه مقرونة بالتعظيم والإعجاب .

أما العهد الثانى فقد كان لأيام ابن خلدون فى عصور الدول المتتابعة إذ صارت الأقطار الإسلامية إلى أمم تناولت الإسلام من أهله وهى به جاهلة وعنه بعيدة . وإنما انتحلوه ذريعة لما طمحوا إليه من السلطان الزمنى . ولم يلبثوا أن حصلوا به عليه حتى شغلوا بملك الدنيا عن شئون الدين . واستمر المخلصون للإسلام من رعاياهم على القيام به ونشر علومه وثقافته . وكان طبعيا أن يبقى هؤلاء بمنأى عن الحكام ، وأن يحتقرهم هؤلاء ويزهدوا فيما لديهم لجهلهم بقيمته . والناس دوماً أعداء ما جهلوا .

وإذا كانت قد « شمخت أنوف المترفين وأهل السلطان عن التصدى للتعليم » فما هم بضارين به من أحد من المعلمين . وإذا صار منتحل التعليم « محتقرا عند أهل العصبية » فما هم بناقصى منتحليه شيئا من أقدارهم فى نظر الناس . أن لحامل لقب « عالم » اليوم لمنزلة عالية لدى العامة والخاصة ما لزم مقامه السامى وربأ عن الدنايا . وإن فقيه الكتاب ليشمله العطف والاحترام من الناس جميعا . ذلك بأنه حامل كتاب الله وإمامهم فى الصلاة وخطيبهم فى الجمع والأعياد . ثم إن الأميين وهم لا يزالون فينا كثير — لينظرون إليه بالاعجاب إذ يستطيع مالا يستطيعون من قراءة الكتب من ذويهم وكتابتها إليهم بدلهم . وأنه لطبيبهم الذى يهرعون إليه لكتابة الطلاسم والحجب والتمائم . ولقد كان للعلماء من النفوذ والجاه لدى الناس أيام محمد علىّ ماحمله على تألفهم ليكسب بهم قلوب الرعية . وما زال ذلك شأن العلماء والمعلمين فى كل العصور

منزلة المعلمين لدى المتعلمين : إذا كان للمعلمين فى الإسلام جاه عظيم لدى العامة فقد كانت لهم فى نفوس تلاميذهم منزلة أعظم ، إذ العرب يرون (طالب العلم لا ينال العلم ولا ينتفع به إلا بتعظيم العلم وأهله وتعظيم الأستاذ وتوقيره[١]) . ويستدلون على ذلك بقول على : (أنا عبد من علمنى حرفا واحدا . إن شاء باع ، وإن شاء أعتق ، وإن شاء استرق[١]) ويرون حقا للمعلم على المتعلم « ألا يمشى أمامه ولا يجلس مكانه ، ولا يبتدىء بالكلام عنده إلا بإذنه ولا يسأل شيئا عند ملالته ، ويراعى الوقت ، ولا يدق الباب . بل يصبر حتى يخرج . ويطلب رضاه ، ويجتنب سخطه ، ويمتثل أمره فى غير معصية[١] »

وكانوا يرون المعلم أفضل من الأب لأن « المعلم أب لنفسك وسبب لنشوئها وعلة لحياتها . ووالدك أب لجسدك وكان سببا لوجوده . . . . والدك أعطاك صورة جسدية ، ومعلمك أعطاك صورة روحية . المعلم يغذى نفسك بالعلوم ويربيها بالمعارف ، ويهديها طريق الآخرة التى هى دار البقاء ودار الخلود فى النعيم واللذة والسرور الأبدى ، على حين أن أباك كان لكون جسدك فى دار الدنيا دار الفناء والتغير »[٢] . والمعلم شفيق على المتعلمين رؤوف بهم « يقصد إنقاذهم من نار الآخرة . وهو أهم من إنقاذ الوالدين ولدهما من نار الدنيا . ولذلك صار حق المعلم أعظم من حق الوالدين ، فإن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية ، والمعلم سبب الحياة الباقية . ولولا المعلم ، لانساق ما حصل من جهة الأب إلى الهلاك الدائم »[٣]

ولذلك كانوا يرون واجبا على المتعلم (أن يتواضع لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته[٤]) ومما يدل على ذلك (أن القاضى الإمام فخر الدين

---

(١) تعليم المتعلم للزرنوجى — فصل فى تعظيم العلم وأهله

(٢) إخوان الصفاء (٣) الاحياء للغزالى

(٤) تعليم المتعلم

الارسابندى كان رئيس الأئمة فى مرو ، وكان السلطان يحترمه غاية الاحترام. وكان يقول : « أنمـا وجدت هذا المنصب بخدمة الأستاذ . فإنى كنت أخدم الأستاذ القاضى الإمام أبا يزيد الدبوسى وأطبخ طعامه ثلاثين سنة » . ويحكى أن الخليفة هارون الرشيد بعث ابنه إلى الأصمعى ليعلمه العلم والأدب ، فرآه يوما يتوضأ ويغسل رجله ، وابن الخليفة يصب الماء على رجله . فعاتب الأصمعى فى ذلك . فقال : — « إنمـا بعثته إليك لتعلمه وتؤدبه . فلماذا لم تأمره بأن يصب المـاء بإحدى يديه ويغسل بالأخرى رجلك (١) » .

وتقبيل الطالب يد أستاذه من مظاهر تعظيمه وتوقيره . وقد كانت عادة الطلبة منذ القدم . فقد جاءت العبارة الآتية بنفح الطيب : « فأسرعت لتقبيل يده إذ كان شيخى » .

ومن بقايا مظاهر التعظيم للعلمين مالا نزال نشاهد من أقبال طلبة الأزهر على شيوخهم فى نهاية كل درس ليقبلوا أيديهم ، وحمل بعضهم حذاء الشيخ والمشى به وراءه حتى يلبسه بباب المسجد . ومنهـا مايقوم به الصبيان من الخدمات لمعلمى الكتاتيب كنفش الصوف وسقى العنز ونحوه .

وقد غالى الغزالى فى المطالبة بتعظيم المعلم حتى أوجب عليه موافقته وحرم عليه مخالفته . قال فى ذلك : « ومهما أشار عليه المعلم بطريق فى التعلم فليقلده وليدع رأيه ، فإن خطأ مرشده أنفع له من صواب نفسه » ثم قال : « كل متعلم استبق لنفسه رأيا واختيارا دون اختيار المعلم فاحكم عليه بالإخفاق والخسران » . أفنفهم من هذا وجوب موافقة الأستاذ ولو أخطأ ! اللهم إن إيجاب موافقته على ماهو صواب ، لكثير لا يكاد يعقل . فكيف بإيجاب متابعته على الخطأ ! ولله در المقّرى إذ يقول فى المخالفة : مخالفة التلميذ للشيخ فى بعض المسائل إذا كان لها وجه وعليها دليل قائم يقبله غير الشيخ من العلماء ، ليس من سوء

(١) تعليم المتعلم

أدب التلميذ مع الشيخ ، ولكن مع ملازمة التوقير الدائم ، والإجلال الملائم ، فقد خالف ابن عباس عمر وعليا وزيد بن ثابت رضى الله عنهم وقد كان أخذ عنهم . وخالف كثير من التابعين بعض الصحابة ؛ وإنما أخذوا العلم عنهم . وخالف مالك كثيرا من أشياخه . وخالف الشافعى وابن القاسم وأشهب مالكا فى كثير من المسائل ، وكان مالك أكبر أساتيذ الشافعى . وقال : « لا أحد أمنّ علىّ من مالك » . وكاد كل من أخذ العلم عنه أن يخالفه بعض تلامذته فى عدة مسائل . ولم يزل ذلك دأب التلاميذ مع الأساتيذ إلى زماننا هذا . ولا ينبغى للشيخ أن يتبرم من هذه المخالفة إذا كانت على الوجه الذى وصفناه »[1]

والظاهر أن مشايخ الطرق أخذوا بمذهب الغزالى إذ نسمع عنهم يقولون لمريديهم : « من اعترض طرد » والظاهر أيضا أن الغزالى خانته عبارته إذ يقول : « إن خطأ مرشده أنفع له من صواب نفسه » . فإنه لا بد أن يكون قد قصد غير ما يتبادر منها من أن الخطأ أنفع من الصواب . لابد أن يكون قصده أن رأى المعلم قد يكون صوابا إذا وقف التلميذ على تأويله ، ولكن التلميذ يتعجل فلا ينتظر التأويل . فيخيل إليه أن شيخه أخطأ وأن الصواب غير ما ذهب إليه . فالغزالى يأمره بالتريث وترك التعجل حتى يبين له وجه الصواب فيما رأى الأستاذ . ولا يدفعنا إلى تأويل عبارة الغزالى على هذا الوجه حسن ظننا به فحسب ، بل أن كلامه بعد ذلك يدل على هذا الذى ذهبنا إليه . فإنه يقول : « التجربة تطلع على دقائق يستغرب سماعها مع أنه يعظم نفعها . فكم من مريض محرور يعالجه الطبيب فى بعض أوقاته بالحرارة ليزيد فى قوته إلى حد يحتمل صدمة العلاج فيعجب منه من لا خبرة له به : وقد نبه الله تعالى على ذلك بقصة الخضر

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٤٩

وموسى عليهما السلام ، حيث قال الخضر : «أنك لن تستطيع معى صبرا . وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا» . ثم شرط عليه السكوت والتسليم فقال : - «فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا» . ثم لم يصبر ، ولم يزل فى مرادته ، إلى أن كان ذلك سبب الفراق بينهما»

ولكن ينبغى للمعلم إذا اشتبه على المتعلم وجه السداد فيما ذهب إليه أن يسرع الى إزالة اللبس وإزاحة الشبهة ، كما فعل الخضر إذ بين لموسى الحكمة فى خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار . ثم قال له : «ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا»

ويرى العرب ، كى يدوم للمعلم التوقير والتبجيل ، أن يكون «وقوراً رزيناً بعيداً من الخفة والسخف قليل التبذل والاسترسال بحضرة الصبى[1]» . ولذلك لم نسمع عن المعلمين فى العصور الاسلامية أنهم كانوا يتنزلون إلى مخالطة الطلبة والاتصال بهم خارج المدرسة ، ظنا منهم أن ذلك من شأنه أن يرفع الكلفة بين المعلم والطالب ويزيل من نفوس الطلبة الهيبة والاحتشام الواجبين للمعلمين . هذا إذا استثنينا معلما اندلسيا يدعى أباالحسن . فقد ذكر المقرى أنه خرج للاستراضة مع طلبته بضواحى أشبيلية . والمعلم العاقل يستطيع مشاركة تلاميذه فى رياضتهم وألعابهم ، دون أن يؤثر ذلك فيما يجب له من التوقير والتعظيم

آداب الطالب

حاط جميع المربين من العرب الطلبة بسياج من النصائح ضمنوها مارأوه واجبا عليهم أن يتحلوا به من الآداب ليأمنوا الخيبة ويضمنوا النجاح . وقد ذكرنا طرفا من تلك الآداب فى الفصل السابق لصلته به ، ونذكرهنا طرفا آخر .

(١) الفراغ من المشاغل : نبه على ذلك كثير من الأئمة . قال الغزالى : ينبغى

---

(١) ابن سينا

لطالب العلم (أن يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا ، ويبعد عن الأهل والوطن فإن العلائق شاغلة وصارفة ، وما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه . ومتى توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق . ولذلك قيل : « العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك ، فإذا أعطيته كلك ، فأنت من أعطائه إياك بعضه على خطر » . والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة كجدول تفرق ماؤه ، فنشفت الأرض بعضه ، واختطف الهواء بعضه ، فلا يبقى منه ما يجتمع ، ويبلغ المزدرع) . وقال الزرنوجى :— « ولا بد لطالب العلم من تقليل العلائق الدنيوية بقدر الوسع . ولهذا اختاروا الغربة »

(٢) التريث فى اختيار المعلم والشريك : يفكر تلميذنا أو طالبنا أو يفكر عنه قيمه فى أى المدارس والمعاهد يختار للالتحاق بها . ومتى قبلته المدرسة فلها دونه اختيار معلميه . أما فى الأيام الخالية فقد كان التلميذ أو الطالب حرا فى اختيار أساتذته . كذلك كان حال طلبة الأزهر لأيامنا ، وهى حال متوارثة منذ القدم . من أجل ذلك تجد المربين من العرب ينصحون لطالب العلم أن يتريث ويشاور فى اختيار أساتذته ولا يعجل فيندم ويضيع زمانه فى التحول من أستاذ إلى أستاذ . قال الزرنوجى عن بعض الحكماء : (لا تعجل فى الاختلاف إلى الأئمة وامكث شهرين حتى تتأمل وتختار أستاذا ، فإنك إذا ذهبت إلى عالم وبدأت عنده ، فربما لا يعجبك درسه ، فتتركه وتذهب إلى آخر ، فلا يبارك لك فى التعليم . فتأمل شهرين فى اختيار الأستاذ . وشاور حتى لا تحتاج إلى تركه والإعراض عنه ، فتثبت عنده . حتى يكون تعلمك مباركا وتنتفع بعلمك كثيرا)

والسنة فى طلب العلم فى كل العصور أن يكون للطالب زميل يذاكره ويدارسه ويستعين به على التحصيل ؛ ولا بد له من التفكير فى اختيار شريكه . ومن ثم نصح الزرنوجى له (أن يختار المجد والورع وصاحب الطبع المستقيم ، ويفر من الكسلان والمعطل والمكثار والمفسد والفتان) .

(٣) الصبر والثبات : كذلك نصحواله « أن يثبت ويصبر على أستاذ وعلى كتاب حتى لا يتركه أبتر ، وعلى فن حتى لا يشتغل بفن آخر قبل أن يتقن الأول ، وعلى بلد حتى لا ينتقل إلى بلد آخر من غير ضرورة . فإن ذلك كله يفرق الأمور ، ويشغل القلب ويضيع الأوقات ويؤذى المعلم . وأن يصبر عما تريده نفسه وهواه

إن الهوى لهو الهوان بعينه وصريع كل هوى صريع هوان

ويصبر على المحن والبليات [1] »

(٤) الجد مع الرفق : أما الجد فى أى أمر فما أكثر ما سار فى الحث عليه من الأمثال نثرا ونظما . وقد ساق الزرنوجى طائفة صالحة منها ليحفز الطالب إلى المواظبة وبذل الهمة . ذكره بقولهم (من طلب شيئاً وجدّ ، وجد . ومن قرع الباب ولجّ ، ولج . وبقول الشافعى :

الجد يدنى كل أمر شاسع والجد يفتح كل باب مغلق

وبقولهم (اتخذ الليل جملا تدرك به أملا) وبقول الشاعر

بقدر الكد تكتسب المعالى ومن طلب العلا سهر الليالى
تروم العز ثم تنام ليلا يغوص البحر من طلب اللآلى
ومن رام العلا من غير كد أضاع العمر فى طلب المحال

وبكثير من مثل تلك الأمثال المثيرة للهمم المقوية للعزائم الحاضة على الاجتهاد . ثم حذره أن يجهد نفسه حتى لا ينقطع عن العمل ، قبل بلوغ الأمل . ونصحه أن يلزم الرفق . لأنه أصل عظيم فى جميع الأشياء . وذكره بقوله صلى الله عليه وسلم « نفسك مطيتك فارفق بها » ، وقوله صلى الله عليه وسلم «ألا إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض على نفسك عبادة الله تعالى ، فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى »

---

(١) تعليم المتعلم

اساليب التعـــليم

إن لأئمة التربية من العرب مؤلفـات كثيرة أبانوا فيهـا ما ارتضوه من طرق التعليم . منها مقدمة ابن خلدون ؛ واحياء الغزالى ، ومدخل العبدرى . وإنا ذاكرون ههنا طرفا من تلك الآراء ، راجين أن يحفز القارىء إلى الرجوع إلى تلك الـكتب لمطالعة الباقى

التوسع فى المقاصد لا فى الآليات : قسم أولئك الأئمة العـلوم إلى علوم تقصد لذاتها كالشرعيات والفلسفة ، وعلوم آلية ليست مقصودة لذاتها ، وإنما يتوسل بها إلى المقاصد ، كالنحو بالنسبة للشرعيات ، والمنطق بالنسبة للفلسفة . ورأوا بحق الاقتصار فى تعليم الآليـات على الضرورى ، وأنه لا بأس بدراسة المقاصد دراسة مطولة . قال ابن خلدون فى المقدمة (١) « العلوم المتعارفة بين أهل العمران على صنفين : علوم مقصودة بالذات كالشرعيات من التفسير والحديث والفقه وعلم الـكلام ؛ وكالطبيعيات والالهيـات من الفلسفة . وعلوم هى آلية وسيلة لهـذه العلوم كالعربية والحساب وغيرهما ، للشرعيات ، وكالمنطق للفلسفة . وربما كان آلة لعلم الـكلام ولأصول الفقه على طريقة المتأخرين . فأما العلوم التى هى مقـاصد ، فلا حرج فى توسـعة الـكلام فيها وتفريع المسـائل واستـكشاف الأدلة والأنظار . فإن ذلك يزيد طالبها تمكنا فى ملكته وإيضاحا لمعانيها المقصودة . وأما العلوم التى هى آلة لغيرها مثل العربية والمنطق ، فلا ينبغى أن ينظر فيهـا إلا من حيث هى آلة ولا يوسع فيها الـكلام ولا تفرع المسائل ، لأن ذلك مخرج لها عن المقصود . إذ المقصود منها ما هى آلة له فكلما خرجت عن ذلك خرجت عن المقصود ؛ وصار الاشـتغال بها لغوا ، مع ما فيـه من صعوبة الحصول على

---

(١) فصل فى أن العلوم الآلية لاتوسع فيها الأنظار ولا تفرع المسائل

ملكتها بطولها وكثرة فروعها . وربما كان ذلك عائقا عن تحصيل العلوم المقصودة بالذات مع أن شأنها أهم ، والعمر يقصر عن تحصيل الجميع على هذه الصورة . فيكون الإشتغال بهذه العلوم الآلية تضييعا للعمر وشغلا بما لا يعني . فلهذا يجب على المعلمين لهذه العلوم الآلية ألا يستبحروا فى شأنها وينبهوا المتعلم على الغرض منها ، ويقفوا به عنده . فمن نزعت به همته بعد ذلك إلى شيء من التوغل ، فليرق له ما شاء من المراقى صعبا أو سهلا . وكل ميسر لما خلق له »

وقال الغزالى فى هذا المعنى : « إن العمر لا يتسع لجميع العلوم غالبا ، فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه ، ويكتفى منه بشمه ، ويصرف جمام قوته إلى استكمال العلم الذى هو أشرف العلوم . وهو علم الآخرة »

مراعاة الاستعداد والطبع : لاحظ العرب اختلاف الأفراد فى الطبع والاستعداد ، ورأوا أنه يجب أن يختلف ما يلقنون تبعا للاختلاف فى ذلك . قال الفارابى فى رسالة السياسة بعد ذكر المتعلمين : « منهم أولو الطبائع الرديئة يقصدون تعليم العلوم ليستعملوها فى الشرور . فينبغى للمرء أن يحملهم على تهذيب الأخلاق ، ولا يعلمهم شيئا من العلوم التى إذا عرفوها استعملوها فيما لا يحب . ومنهم البلداء الذين لا يرجى ذكاؤهم وبراعتهم ، فينبغى أن يحثهم على ما هو أعود عليهم . ومنهم المتعلمون ذوو الأخلاق الطاهرة والطبائع الجيدة . فيجب ألا يدخر عنهم شيئا مما عنده من العلوم »

وقال الغزالى فى هذا المعنى : من وظائف المعلم « أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه ، فلا يلقى إليه ما لا يبلغه عقله فينفره » . ومنها « أن المتعلم القاصر ينبغى أن يلقى إليه الجلى اللائق به . ولا يذكر له أن من وراء هذا تدقيقا وهو يدخره عنه ، فإن ذلك يفتر رغبته فى الجلى . ويشوش عليه قلبه . ويوهم إليه البخل به عنه » .

وقال الزرنوجى: « وينبغى لطالب العلم ألا يختار نوع العلم بنفسه . بل يفوض أمره إلى الأستاذ . فإن الأستاذ قد حصل له التجارب فى ذلك . فكان أعرف بما ينبغى لكل أحد ، وما يليق بطبيعته » .

وقد نعى ابن خلدون على كثير من معلمى زمانه ، جهلهم طرق التعليم وعدم مراعاتهم استعداد المتعلم بمطالبتهم إياه بحل مسائل فوق مقدوره . وذكر النتيجة الطبيعية لذلك من سآمة المتعلم وهجره العلم . وهاك نص عبارته : —
« شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهد الذى أدركنا ، يجهلون طرق التعليم وإفادته . ويحضرون المتعلم فى أول تعليمه المسائل المعضلة من العلم . ويطالبونه بإحضار ذهنه فى حلها ، ويحسبون ذلك مرانا على التعليم وصوابا فيه . ويكلفونه وعى ذلك وتحصيله . ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون فى مبادئها وقبل أن يستعد لفهمها . فإن قبول العلم والاستعداد لفهمه ينشأ تدريجا . ويكون المتعلم أول الأمر عاجزا عن الفهم بالجملة إلا فى الأقل وعلى سبيل التقريب والإجمال وبالأمثال الحسية . ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا بمخالفة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والانتقال فيها من التقريب إلى الاستيعاب الذى فوقه ، حتى تتم الملكة فى الاستعداد ثم فى التحصيل ، ويحيط هو بمسائل الفن . وإذا ألقيت عليه الغايات فى البدايات — وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعى وبعيد عن الاستعداد له ، كلّ ذهنه عنها ، وحسب ذلك من صعوبة الفهم نفسه . فتكاسل عنه . وانحرف عن قبوله . وتمادى فى هجرانه . وإنما أتى ذلك من سوء التعليم »

وهذه أمثلة توضح تلك الطريقة التى عابها ابن خلدون . كان أطفال الأزهر لا يدخلونه حتى توضع بأيديهم الأجرومية بشرح الكفراوى وحاشية الحمدى فيقرءون خطبة الكفراوى . وأولها « الحمد لله الذى جعل لغة العرب أحسن اللغات » ويطالبون بقراءة الحاشية وتعليقاتها . فيجدون بها : « المعنى : الحمد لله لجعله لغة العرب أحسن اللغات لأن تعليق الحكم بمشتق يؤذن بعلية ما منه

الاشتقاق ، وهـذه قاعدة أصوليـة يحتاج كبار الطلاب فى فهمها إلى تحليل وشرح غير قليلين . فـكيف يقوى على هضمها أطفال مبتدئون . ثم يتقدمون إلى بسملة الأجرومية . ويكلفون قراءة إعرابها ليعرفوا أن الباء حرف جر إما أصلى محتاج إلى متعلق ، وإما زائد غير محتاج إليه . وإنه

إن ينصب الرحمن أو يرتفعا فالجر فى الرحيم قطعا منعـا

فأى معلم يسوغ لنفسه مفاجأة أولئك الأطفال المساكين بتلك الألغاز والمعميات ، إلا أن يكون حقيقة من الجاهلين بطرق التعليم كما قال ابن خلدون .

التدرج فى التلقين : وجد ابن خلدون المعلمين لأيامه قد أغفلوا استعداد المتعلم فضلوا السبيل فى التعليم ، وتخبطوا واختلفوا . ففريق كلفوا المتعـلم الاطلاع على كل مؤلفات المادة الواحدة ، ومراعاة طرقها ، وحفظها كلها أو أكثرها . فطالبوه فى علم العربية مثلا بتحصيل (كتاب سيبويه وجميع ما كتب عليه ، وطرق البصريين والكوفين والبغداديين والأندلسيين ، وطرق المتقدمين والمتأخرين مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع ما كتب فى ذلك) . وآخرون أخذوه فى العلوم المختلفة بحفظ متون مختصرة جامعة لكثير من المعنى فى قليل من اللفظ

وقد وصم ابن خلدون طريقة الأولين بأنها «عائقة عن التحصيل» ، وطريقة الآخرين بأنها « مخلة بالتعليم» . وخلص من ذلك إلى بيان « وجه الصواب فى تعليم العلوم» ورأى أنه لا يكون مفيداً إلا إذا كان بالتدريج وعلى «ثلاث تكررات» :

(١) يلقى المعلم على المتعلم « مسائل من كل باب من الفن هى أصول ذلك الباب ، ويقرب له فى شرحها على سبيل الإجمال ، ويراعى فى ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه ، حتى ينتهى إلى آخر الفن . وعند ذلك تحصل له ملكة فى ذلك العلم ، إلا أنها جزئيـة وضعفية ، وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله »

(٢) « يرجع به إلى الفن ثانية ، فيرفعه فى التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى

منها ، ويستوفى الشرح والبيان ، ويخرج عن الإجمال ويذكر لهما هنا لك من الخلاف ووجهه ، إلى أن ينتهى إلى آخر الفن ، فتوجد ملكته ،

(٣) يرجع به وقد شدا ، فلا يترك عويصا ولا مبهما ولا مغلقا إلا وضحه وفتح له مقفله . فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته » [١]

وقد تضمن ما عرضنا عليك من عبارات ابن خلدون ، الإشارة إلى طائفة من القواعد الأساسية للتدريس . فهو يرى وجوب اتخاذ « الأمثلة الحسية » وسائل لإيضاح الدروس لمن يكون « أول أمره عاجزا عن الفهم »، وأن المتعلم بذلك يكتسب من الفن معلومات بها « تحصل له ملكة فى ذلك العلم تهيئه لفهمه وتحصيل مسائله » . وهذا ما تقرر التربية الحديثة من أن معلومات الطفل القديمة ملاك شوقه فانتباهه ففهمه ما نعرض عليه من الدروس الجديدة .

خطوات الدرس وأدب السؤال والجواب : بالمدخل بيان لما ارتضاه العبدرى من آداب الدرس وخطوات السير فيه ، ها كم ملخصا لأهم ماجاء به : —

(١) يبدأ المعلم بالمسألة الأولى من درسه ، فيحل لفظ الكتاب فيها ويبينه حتى تستبين صورتها لجميع الحاضرين .

(٢) يتكلم بما قد تحصل عنده من العلم فى تلك المسألة ، ويذكر المذاهب فيها غير عائب ما يخالف مذهبه منها ، ولا زار عليه . بل يوجه أقوال العلماء فى المسألة ويرد ما ذهبوا إليه فيها إلى أصولهم التى بنوا عليها فروعهم

(٣) ثم يوجه مذهبه وينتصر له ، ثم يورد عليه الاعتراضات والإشكالات ليردها ويدفعها

(٤) ثم ينظر المسألة بما يشبهها من المسائل وما يقرب منها

---

(١) راجع من مقدمة ابن خلدون « فصل فى أن كثرة التآليف فى العلوم عائقة عن التحصيل » والفصلين بعده .

(٥) ثم يفرع عليها مايحتمل من التفريع

ثم أرفد هذا ببيان لآداب السؤال والجواب نلخصه فيما يلي :

(١) لا يقبل المعلم من الطلبة أسئلة حتى ينتهى من آخر مراحل الدرس السابقة . فإذا وردت عليه أسئلة قبل الانتهاء منها لم يجب أحدا عن مسألته . بل يسكت السائل برفق ، ويمضى هو لسبيله ، لأن الإيراد إذ ذاك يؤذى المدرس ويقطع سير الدرس

(٢) متى فرغ من التفريع على المسألة ، أعطى جلساءه فرصة للأسئلة والإشكالات والاعتراضات

(٣) ينبغى أن يتقبل الأسئلة والإشكالات غير منزعج من إيرادها عليه ولا من الإكثار منها والالحاح فيها ، فإن ذلك ليس شيم العلماء ولا من أخلاقهم

(٤) لا يجحد الحق إذا أتى على لسان غيره ، بل يتقبله ويسر به ، فإنه ليس غرض الدرس أن يكون ظهور الحق على لسان الشيخ دون سواه . وإنما المراد الوصول إليه من أى الجهات وبمعونة من أراد الله إجراء الحق على لسانه

(٥) إذا أوردت عليه الأسئلة ، لايجيب عنها حتى ينتهى السائل بكلامه إلى آخره أو المعترض باعتراضه إلى آخره . لأن الكلام إنما هو بآخره .

(٦) يحظر على جلسائه أن يجيبوا عن السؤال حتى يفرغ صاحبه من القائه .

وهذه فيما أرى طريقة سديدة داعية إلى تثبيت المعلومات ، بما فيها من التكرار وتقليب المسائل على الأوجه المختلفة وربطها بنظائرها من المسائل ، ثم التطبيق عليها الذى سماه العبدرى تفريعا ، ثم إتاحة الفرص للنقاش والمحاورة .

هذه إلى نبل المقصد . وأى مقصد للدرس أسمى أو أنبل من قصد الوصول إلى الحق والاهتداء إلى الصواب . لم يكن من مقاصدهم أن يباهى بعلمه من

يتصدى للتدريس . وإنما كان القصد الهداية والإرشاد . فكان لزاما على المعلمين إذا لم يهتدوا إلى وجه الصواب فى الإجابة عما عنه يسألون . أن يعترفوا بأنهم لا يدرون ، غير واجدين فى ذلك الاعتراف غضاضة ولا حطا من مقامهم . روى الجاحظ عن ابن عباس : « إذا ترك العالم قول لا أدرى أصيبت مقاتله » . وقال الزرنوجي : كان محمد بن الحسن رحمه الله إذا توجه عليه الاشكال ولم يحضره الجواب ، يقول : « ما ألزمته لازم ، وأنا فيه ناظر ، وفوق كل ذى علم عليم »

وكذلك لم يجدوا بأسا فى مخالفة التلميذ للأستاذ مادام رائد الكل الحق والصواب ، وما دام الخلاف بعقل وأدب . وقد قدمنا لك ما يدل على ذلك من قول المقرى فى نفح الطيب .

وإذ كان غرضهم فى طلب العلم ما وصفنا من الاهتداء إلى الصواب والوصول إلى الحق ، ولم يكن من يتصدون للتدريس سواء فى الهداية إليهما ، نصح الزرنوجى كما تقدم لطالب العلم بالتريث وعدم الإسراع فى اختيار أستاذه

والظاهر أنه كان فى طلبة تلك الأيام مافى بعضنا اليوم ، من قطع الحديث على المتكلم ، واعتراض السائلين بالتهويش عليهم ومحاولة الإجابة عن أسئلتهم قبل فراغهم من إلقائها . ولذا نصح العبدرى المعلم أن يحمى السائلين عما عساه يصيبهم من الأذى من مقاطعة زملائهم . وهو لعمرى أدب رائع إذا أخذ به الطلبة ومرنوا عليه حتى اعتادوه ، استتب نظام الفصل وسار الدرس سيرا حسنا :

الأسئلة المكتوبة : كان طلبة العلم من المسلمين يعتاضون أحيانا عن السؤال الشفهى أسئلة مكتوبة . يدل على ذلك ماقدمنا لابن جبير فى وصف مجلس الشيرازى بنظامية بغداد ، إذ « دفعت إليه عدة رقاع منها فجمعها جملة فى يده وجعل يجاوب على كل واحدة منها إلى أن فرغ » . والظاهر أن الذى حدا بأصحاب

تلك الرقاع إلى انتهاج ذلك المسلك ، حرصهم أن تكون أسئلتهم أمام الأستاذ واضحة لتكون الإجابة أجدى وأشفى . فإن أكثر الناس أقلامهم أفصح من ألسنتهم . فالكتابة أدل على الغرض من المشافهة غالبا . وبقدر ما يكون السؤال واضحا محدودا ، تكون الإجابة عنه أسد وأنفع ، وأصوب وأنجع .

وعلى أية حال فإن للأسئلة المكتوبة مزايا . منها أن الكاتب إنما يكتب بعد التأمل والروية . فإذا أخذ الطالب بعرض أسئلته مكتوبة ، فإنه قبل عرضها يفكر فى قيمة شبهته . فلا يسأل فى التافه ، ولا فيما يدركه بنفسه ، لو فكر وروى فى كلام الأستاذ أو عبارة الكتاب . ولا يخفى ما فى ذلك من الاقتصاد فى بذل الجهد ، والتحرز من صرف زمن المدرس فيما لا يجدى . وكثيرا ما حاول طلبتى السؤال ، فكنت لضيق الزمن مثلا أطالبهم برفع أسئلتهم مكتوبة . فلا يفعلون . ذلك أنهم بعد التأمل رأوا تفاهة السؤال ، وأن فى استطاعتهم إزالة الشبهة بأنفسهم . فلم يرضوا بذل الجهد فى الكتابة .

هذا إلى أنه ليس فى الأسئلة المكتوبة ما فى الأسئلة الشفوية من الرياء والعجب والمباهاة والفخر ومحبة الظهور بين الإخوان .

من المحسوس إلى المعقول : عرف العرب قيمة العمل بقاعدة السير من المحسوس إلى المعقول فى التعليم . فحضوا عليه وظهر ذلك فى رسائل إخوان الصفاء ، إذ يقولون : — « ينبغى لمن يريد النظر فى مبادئ الموجودات ليعرفها على حقيقتها ، أن يقدم أولا النظر فى مبادىء الأمور المحسوسة ، ليروض بها عقله ويقوى على النظر فى مبادىء الأمور المعقولة لأن معرفة الأمور المحسوسة أقرب من فهم المبتدئين وأسهل على المتعلمين » .

التحصـــيل

التعليم عمل المعلم . والتحصيل عمل الطالب . وقد علم العرب المتعلمين كيف يحصلون ، كما علموا المعلمين كيف يعلمون . وعرفوهم الأوقات المناسبة

للتحصيل ، وما ينبغى أن يكونوا عليه من الآداب . وتعليم المتعلم للزرنوجى رحمه الله خير المراجع فى ذلك .

طـــرقه . اعتمد الطلبة كثيراً على التكرار والحفظ ، حتى لقد قيل : —

ليس بعـــلم مايعى القمطر ماالعـــلم إلا ماوعاه الصدر

وقيل : — «حفظ حرفين ، خير من سماع وقرين» . ومما يدل على اهتمامهم بالتكرار والحفظ ، واتخاذهما طريقين للتحصيل : —

(١) شيوع تينكم الكلمتين فى مؤلفاتهم فى التربية ، حيث يصفون طرق التحصيل .

(٢) عقد الزرنوجى فى تعليم المتعلم فصلين ، بين فى أحدهما الأمور التى تورث الحفظ وقوة الذكر ، وفى الآخر مايورث النسيان . فمما ذكره مورثا للحفظ : الجد والمواظبة وتقليل الغذاء وصلاة الليل وقراءة القرآن ، ثم السواك وشرب العسل وأكل إحدى وعشرين زبيبة حمراء كل يوم على الريق وأكل مايقلل البلغم والرطوبات

ومما ذكره مورثا للنسيان المعاصى وكثرة الهموم والأحزان وكثرة الأشغال والعلائق ، ثم أكل الكزبرة الرطبة والتفاح الحامض وكل مايزيد فى البلغم .

وليت الأطباء ومن تصدوا لعلم النفس التجريبى يقومون بتجارب لمعرفة مقدار تأثير تلك الأطعمة والأشربة فى قوى الحفظ والذكر .

ومما يذكر على سبيل الاستطراد للمناسبة مازعم ياقوت صاحب معجم البلدان من أن أهل بلرم بلداء عديمى الفطنة ، لكثرة أكلهم البصل !

(٣) كان العرب يباهون بمقدرتهم على الحفظ ، وكثرة محفوظهم من قصائد الشعر الطويلة

(٤) نظم العلماء الألفيات فى القواعد ، وألفوا المتون نثراً ونظما فى كل

العلوم والفنون، وأخذ الطلبة بحفظها واستظهارها. وقد شهدنا ذلك بالأزهر ولا تزال آثاره باقية بدار العلوم، إذ يؤخذ طلبتها بحفظ ألفيــة ابن مالك فى قواعد النحو والصرف.

ولم يغفل العرب أمر الفهم، بل عدوه أداة فعالة فى التحصيل. قال الزرنوجى «لا يكتب المتعلم شيئاً لا يفهمه. فإنه يورث كلالة الطبع ويذهب الفطنة ويضيع أوقاته، وينبغى أن يجتهد فى تفهم الأشياء بالتأمل والتفكر وكثرة التكرار، فإنه إذا قل السبق [1] وكثر التكرار والتأمل، يدرك ويفهم. وقيل: حفظ حرفين خير من سماع وقرين. وفهم حرفين خير من حفظ وقرين»

وقد رأيت حضهم العلماء على أن تتسع صدورهم فى مجالس العلم للأسئلة والمناقشة. ذلك لتزول الشبهات من نفس الطالب ويصل إلى فهم المادة فهما صحيحا.

ومن ذرائع الفهم المحاورة والمناظرة إذا روعيت آدابهما وشروطهما. وقد أسهب الزرنوجى فى الكلام عليهما. قال: — «ولا بد لطالب العلم من المذاكرة والمناظرة والمطارحة. فينبغى أن تكون بالإنصاف والتأنى والتأمل. ويتحرز عن الشغب والغضب، فإن المذاكرة والمناظرة مشاورة. والمشاورة إنما تكون لاستخراج الصواب. وذلك إنما يحصل بالتأمل والتأنى والإنصاف، دون الغضب والشغب». ثم بين فضل المناظرة فقال: — «وفائدة المطارحة والمناظرة أقوى من فائدة مجرد التكرار، لأن فيها تكرارا وزيادة. وقيل: مطارحة ساعة خير من تكرار شهر. واشترط فى إفادتها أن تكون «مع منصف سليم الطبيعة». وحذر الطالب المذاكرة «مع متعنت غير مستقيم الطبع. فإن الطبيعة متسربة، والأخلاق متعدية والمجاورة مؤثرة»

---

(١) جزء المادة الذى يؤخذ فى درس واحد. وهو المعروف بالأزهر قديما باسم التقدير.

وتختم بحث طرق التحصيل بنصيحة الزرنوجي للطالب « أن يكون متأملا في جميع الأوقات في دقائق العلوم ، ويعتاد ذلك . فإنما تدرك الدقائق بالتأمل . ولذا قيل : « تأمل تدرك » . ولا بد من التأمل قبل الكلام حتي يكون صوابا ، فإن الكلام كالسهم . فلا بد من تقويمه بالتأمل حتى يكون مصيبا » .

عوامله المساعدة عليه . من العوامل المساعدة على التحصيل اختيار الوقت : — العمر كله من المهد إلى اللحد وقت علم وتحصيل . لكن العمر أطوار وأنسبها للتحصيل في رأى كثير من العرب ، طور الشباب . أما من ناحية ساعات اليوم ، فيرى بعضهم ساعات السحر ومابين العشاءين خير ساعات الليل والنهار ملاءمة للتحصيل . وذهب الأصفهاني في محاضرة الأدباء إلى فضل الليل على النهار لما فيه من الهدوء والسكون . وذكر الغزالي في فاتحة العلوم أن الإمام الشافعي قسم ليله أثلاثا الأول للدرس والثاني للتهجد والثالث للنوم . والضحوة الكبرى في رأيهم وقت كلالة وملالة . أما ساعات الصباح بعد الشروق فالنشاط الذهني فيها موفور . ولذا روى الزرنوجي عن أحد العلماء أنه جعل الضحوة الكبرى وقت السبق لولديه . فكانا يقولان له : طبيعتنا تكل وتمل في ذلك الوقت ، فيعتذر لهما بأن الغرباء وأولاد الكبراء يأتونه من أقطار الأرض فلا يجد بدا من تقديم أسباقهم إكراما لهم وشفقة عليهم ورحمة بهم

وقد شاهدنا بعض علماء الأزهر يلقون بعض الدروس بين الفجر والشروق . ولكن السابقين من العرب لم يروا هذا الوقت مناسبا للتحصيل . وكذلك كان وقت العصر في رأيهم ، حتى جاء بتذكرة السامع لابن جماعة[1] إن المعلم في بعض المعاهد كان لا يستحق راتبا إذا ألقى دروسه قبل الشروق أو بعد العصر

ولكي نوازن بين آراء العرب في أنسب الأوقات للتحصيل ورأى رجال

---

(١) من رجال القرن الثامن الهجرى

التربية الحديثة ، نختم هذا البحث بمـاقاله ومز أستاذ التربية بجامعة لندن : —
« إن قابليـة الذهن للتعب ليست سواء فى كل ساعات اليوم ، فهى أسرع فى بعضها منها فى بعضها الآخر

والسر فى ذلك أن الطاقة العصبية لدينا ليست بمقدار واحد فى كل ساعات اليوم فهى فى حدها الأعلى حين تـكون الساعـة عشرا صباحا . ثم تنقص تدريجا حتى تـكون الساعـة ثلاثا بعـد الظهر . ولا علاقة بين هـذا النقص ومانقوم به من الأعمال العقلية . فهو كائن لامحالة ، سواء أكانت منا أعمال عقلية أم لم تـكن . ثم تأخذ فى الزيادة تدريجا حتى تـكون الساعة عشرا مساء وما حولها . ثم تنقص ثانيـة بالتدريج حتى تـكون الساعة ثلاثا صباحا ، إذ تصل الطاقة العصبية حدها الأدنى . من هذا نجد أننا بعد العصر أقل صلاحية للأعمال العقلية الشاقة منا لهـا بعد الشروق أو الغروب [٢] » . ذلك بأنه كلما كانت الطاقة العصبية أعظم كانت القابلية للتعب أبطأ ، وكان الوقت أنسب للعمل العقلى . والعـكس بالعكس

وإنك إن رسمت خطا بيانيا يوضح مد الطاقة العصبية وجزرها كما وصف الاستاذ ومز ، وجدت أنسب أوقات التحصيل ساعات الصباح والمساء بين ٨ و ١١ .

وعلى هذا عمل المدارس لأيامنا ، إذ تجعل السـاعات الأولى من اليوم المدرسى للرياضة واللغات . وإذاً يكون العرب فى الجملة قد أصابوا إذ وصفوا للطالب أنسب الأوقات للتحصيل .

ومن العوامل المساعدة على التحصيل ألا يستنـكف الطالب من الاستفادة وأن يكون كابن عباس ، إذ لم يدرك العلم إلا بلسـان سئول وقلب عقول . « وطريق الاستفادة أن يكون معه فى كل وقت محبرة حتى يكتب ما يسمع من الفوائد » .

---

(٢) مقدمة علم النفس للاستاذ المذكور الطبعة الثانية

ومنها تحمل المشقة والمذلة فى طلب العلم والتملق للأستاذ والشركاء وغيرهم للاستفادة منهم . وقد جاء فى الحكم : العلم عز لاذل فيه لايدرك إلا بذل لا عز فيه .

ومنها الورع بأن يحترز عن الشبع وكثرة النوم وكثرة الكلام فيما لا ينفع وعن الغيبة ومجالسة المكثار وأهل الفساد والمعاصى والتعطيل ، وأن يجاور الصلحاء ، وأن يجلس مستقبل القبلة ويستن بسنته صلى الله عليه وآله وسلم ويغتنم دعوة أهل الخير ويحترز عن دعوة المظلومين .

ويرى الزرنوجى من العوامل المساعدة عليه ، الثبات على فن حتى لا يشتغل بفن آخر قبل أن يتقن الأول . وقد قدمنا لك ذلك وعلى هذا الرأى الغزالى وابن خلدون . قال فى مقدمته : « ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة فى التعليم ألا يخلط على المتعلم علمان معا ، فإنه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهم الآخر فيستغلقان معا ويستصعبان ويعود منهما بالخيبة . وإذا تفرغ الفكر لتعليم ماهو بسبيله مقتصرا عليه ، فربما كان ذلك أجدر بتحصيله » .

ويكاد يكون بين مفكرى العرب إجماع على ذلك الذى ننعاه عليهم ، من أخذ الطالب بالتوفر على مادة واحدة واختصاصها بالعناية والاهتمام حتى ينتهى منها ثم ينتقل إلى سواها

وإنما حدا بهم على ذلك اعتقادهم أن ذلك ملاك الإجادة والإحسان ، وعماد البراعة والإتقان . ودعانا إلى النكير عليهم والأخذ بتعاقب الدروس خشية السآمة والملل من طول وحدة العمل ، واتباع سنة السلف الصالح . فقد كان ابن عباس إذا مل من علم الكلام يقول : هاتوا ديوان الشعراء . وكان محمد بن الحسن يجمع دفاتره ، حتى إذا مل من نوع ينظر فى نوع آخر . وبالجملة فقد كان هؤلاء وأمثالهم يرون فى كل الأمور ، وبخاصة فى طلب العلم ، أنه

لا يصلح النفس إذ كانت مدبرة   إلا التنقل من حال إلى حال

وبعد فإنا إذا خالفنا المفكرين من أئمة التربية العربية فى بعض المسائل ، فالخير أردنا وأرادوا . وإنما لكل وجهة هو موليها

التربيـــة الجسمية

كل ما مضى من البحوث كان متعلقا بالتربية العقلية . والآن نستعرض آراء إمام من أئمة العرب فى التربية الجسمية . هو الإمام الغزالى

يرى الغزالى أنه ينبغى أن يراعى فى تربية الأطفال تربية جسمية تعويدهم الخشونة فى المأكل والملبس والمفرش

فأما الخشونة فى المطعم فتكون بان يعود الخبز القفار فى بعض الأوقات حتى لا يصير بحيث يرى الأدم حتما . وتقبح عنده كثرة الأكل بأن يشبه كل من يكثر الأكل بالبهائم ، وبأن يذم بين يديه الصبى الذى يكثر الأكل ويمدح الصبى القليل الأكل .

وأما الخشونة فى الملبس فتكون بأن يحبب إليه من الثياب البيض دون الملون والابريسم، ويقرر عنده أن ذلك شأن النساء . وأن الرجال يستنكفون منه ، ويكرر ذلك عليه . وإذا رأى على صبى ثوبا من إبريسم أو ملونا فينبغى أن يستنكره ويذمه . ويحفظ الصبى عن الصبيان الذين عودوا التنعم والرفاهية ولبس الثياب الفاخرة

وأما الخشونة فى المفرش فتكون بأن يمنع الفرش الوطيئة حتى تتصلب أعضاؤه ، ولا يسخف بدنه ، فلا يصبر عن التنعم

والغزالى فى هذا يعمل بقوله صلى الله عليه وآله وسلم « أخشوشنوا فإن النعمة لاتدوم » وآراؤه هنا شبيهة بآراء اسبرطة فى تربيتها القديمة . وكذلك يذكرنا بتلك التربية إذ يحض الطفل على الصبر إذا ضربه المعلم ، وينهاه عن الصراخ والشغب والاستشفاع ، لأن ذلك دأب الشجعان والرجال . أما كثرة الصراخ فمن دأب المماليك والنسوان .

التربيـــة الخلقية

الفطـــرة : الفطرة مافطر عليه الإنسان والحيوان . وهى أصل قبول التربية والتعليم ، وتفاوت أنواع الحيوان فيه . وهى سر امتياز الانسان ورقيه على سائر الحيوان .

وللناس فى الفطرة آراء ، فبعضهم على أنها كلها خير ، وآخرون على أنها شرّ محض . وكلا الفريقين مغال فيما ذهب إليه . والصواب أن الفطرة ليست خيرا ولا شرا . وإنما هي استعداد لهما جميعا . بهذا جاءت الشريعة الإسلامية قال تعالى (وهديناه النجدين) ، فالنجدان طريقا الخير والشر . وقال تعالى (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) وقال تعالى (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً)

وقال صلى الله عليه وآله وسلم «كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

وليست الفطـرة سوى مايولد الطفـل مزودا به من النزعات والغرائز والاستعدادات . وهذه فى نظر العلم الحديث ليست خيرا ولا شرا وإنما هى استعداد لهما . وإذاً يـكون الدين الإسلامى والعـلم الحـديث على وفاق فى أمر الفطرة .

على هذا درج المفكرون من علمـاء المسلمين . وأظهرهم فى ذلك الإمام الغزالى . فقـد أبان عن رأيه فى فطرة الطفـل فى مواطن كثيرة من كتابه الاحياء . فقال فى موضع : — « كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة ، وإنمـا أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » . ثم فسر الاعتـدال وصحة الفطرة بأن « الصبي بجوهره خلق قابلا للخير والشر جميعا » . وفسر التهويد والتنصير والتمجيس بأنه « بالاعتياد والتعليم تـكسب الرذائل » . وقال فى موضع آخر : — « النفس تخلق ناقصة قابلة للـكمال . وإنمـا تكمل بالتربية وتهذيب

الأخلاق والتغـذية بالعــلم ».

إذا تأملت أقواله هذه ، لم ترفيها إنـكارا منه للغرائز والوراثة . بل هى أولى أن تدل على أنه يرى ثبوتهما . فقبول الطفل للخير والشر جميعا ، وقابليته للكمال بحسن التربية وللنقص بسوئها ـ كل ذلك من العبارات التى نلهج بها نحن الذين ندين بالغرائز والوراثة . وإن أحدا ممن يسمعها منا لا يرى منافاة بينهـا وبين إثباتنا الغرائز والوراثة .

وفى ضوء أقواله السالفة ، ينبغى أن يفسر قول الغزالى فى بدء الفصل الذى عقده لبيان الطريق فى رياضة الأطفال : — « الصبى أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة . وهو قابل لكل ما نقش ، ومائل إلى كل ما يمال به إليه » . كما لا ينبغى أن نفسره إلا بما فسره الغزالى نفسه ، إذ يقول عقبه : — « فإن عود الخير وعلمه ، نشأ عليه وسعد فى الدنيا والآخرة . . . . وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقى وهلك »

وإذاً فليس من الصواب أن يستظهر من عبـارة الغزالى فى بدء الفصـل المذكور ، أنه يذهب مذهب المنـكرين للغرائز والوراثة

حسن الخلق وسوءه : تأثر العرب كثيرا بالفلسفة الاغريقية . وتجلى ذلك فى تفـكيرهم فى مواطن كثيرة . من ذلك ما جاء بالجزء الثـالث من كتـاب الاحياء فى بيان حقيقة حسن الخلق وسوئه . فان الغزالى فى رأيه فيه قد حـذا حذو الفلسفة الافلاطونية المبسوطة فى كتـاب الجمهورية . قال : — « كما أن حسن الصورة الظاهر لا يتم بحسن العينين دون الأنف والخـد ، بل لا بد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر ، فـكذلك فى البـاطن أربعة أركان لا بد من الحسن فى جميعها حتى يتم حسن الخلق . فإذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق . وهى قوة العلم وقوة الغضب وقوة الشهوة وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث . « أما قوة العلم ، فحسنها وصلاحها

فى أن تصير بحيث يسهل بها إدراك الفرق بين الصدق والكذب فى الأقوال ، وبين الحق والباطل فى الاعتقادات ، وبين الجميل والقبيح فى الأفعال . فإذا صلحت هذه القوة ، حصل منها ثمرة الحكمه ، والحكمة رأس الأخلاق الحسنة ، وهى التى قال الله فيها : ـ « ومن يؤت الحكمة ، فقد أوتى خيرا كثيرا »

« وأما قوة الغضب ، فحسنها فى أن يصير انقباضها وانبساطها فى حد ما تقتضيه الحكمة .

« وكذلك الشهوة : حسنها وصلاحها فى أن تكون تحت إشارة الحكمة أعنى إشارة العقل والشرع »

« وأما قوة العدل ، فضبط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع . فالعقل مثاله مثال الناصح المشير . وقوة العدل هى القدرة . ومثالها مثال المنفذ الممضى لإشارة العقل . والغضب هو الذى تنفذ فيه الإشارة . ومثاله مثال كلب الصيد ، فإنه يحتاج إلى أن يؤدب حتى يكون استرساله وتوقفه بحسب الإشارة لا بحسب هيجان قوة النفس . والشهوة مثالها مثال الفرس الذى يركب فى طلب الصيد ، فانه تارة يكون مروضا مؤدبا وتارة يكون جموحا .

« فمن استوت فيه هذه الخصال واعتدلت ، فهو حسن الخلق مطلقا ومن اعتدل فيه بعضها دون بعض ، فهو حسن الخلق بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصة ، كالذى يحسن بعض أجزاء وجهه دون بعض

« وحسن القوة الغضبية يعبر عنه بالشجاعة . وحسن قوة الشهوة يعبر عنه بالعفة . فإن مالت قوة الغضب عن الاعتدال إلى طرف الزيادة ، تسمى تهوراً . وإن مالت إلى الضعف والنقصان ، تسمى جبنا ، وإن مالت قوة الشهوة إلى طرف الزيادة ، تسمى شرها . وإن مالت إلى النقصان تسمى خمودا . والعدل إذا فات فليس له طرفان ، زيادة ونقصان ، بل له ضد واحد ومقابل : وهو الجور . وأما الحكمة ، فيسمى إفراطها ، عند الاستعمال فى

الأغراض الفاسدة خبثا . ويسمى تفريطها بلها . والوسط هو الذى يختص باسم الحكمة »

وينحو الفارابى هذا النحو إذ يرى أن النفس الإنسانية إذا تركت وشأنها مالت إلى الشهوات الحيوانية ، وأن حسن الخلق إنما يكون بمراقبة النفس حتى تخضع قواها البهيمية (الحاسة والمتخيلة) لحكم القوة الناطقة

قال فى رسالة السياسة : — « إن لكل شخص من أشخاص الناس قوتين إحداهما ناطقة والأخرى بهيمية . ولكل واحدة منهما نزاع غالب . فنزاع القوة البهيمية نحو مصادفة اللذات العاجلة الشهوانية . ونزاع القوة النطقية نحو الأمور المحمودة العواقب .

« فواجب على من يروم نيل الفضائل ، ألا يتغافل عن تيقيظ نفسه فى كل وقت ، وتحريضها على ما هو أصلح له ، وألا يهملها ساعة . فإنه متى أهملها — وهى حية ، والحى متحرك ، فلا بد أن تتحرك نحو الطرف الآخر الذى هو البهيمى . وإذا تحركت نحوه ، تشبثت ببعض منه ، حتى إذا أراد ردّها عما تحركت إليه ، لحقه من النصب أضعاف ما كان يلحقه لو لم يهملها ، وعطل وقته الذى كان ينبغى أن يحصل فيه فضيلة ، لاشتغاله بالاحتيال لردها عما تحركت نحوه ، وفاتته تلك الفضيلة »

الآداب التى يؤخذ بها الأطفال : وصف الغزالى طائفة من الآداب المتنوعة التى رأى أخذ النشء بها منذ الصغر . منها ما يرجع إلى آدابه فى معاملة أنداده ومنها ما يرجع إلى أدب المجالس ، ومنها ما يرجع إلى أدب الحديث . ومنها ما يرجع إلى آدابه فى معاملة من فوقه وبخاصة معلميه ، ومنها ما يرجع إلى علاقته بالمولى سبحانه وتعالى .

(ا) مع أنداده : يرى أن يؤخذ فى معاملته أنداده بالآداب الآتية : —

(١) يحبب إليه الإيثار بالطعام

(٢) يمنع من أن يفتخر على أقرانه بشىء مما يملكه والده ، أو بشىء من مطاعمه وملابسه ، أو لوحه أو دواته . بل يعود التواضع والإكرام لكل من عاشره والتلطف فى الكلام معهم

(٣) يمنع أن يأخذ من الصبيان ، ويعلم أن الرفعة فى الإعطاء ، وأن الأخذ لؤم وخسة ومهانة وذلة ، وأن ذلك من دأب الكلب . فإنه يبصبص فى انتظار لقمة والطمع فيها

(ب) أدب الجلوس : يرى أن يؤدب فى المجالس كما يأتى :—

لا يبصق فى مجلسه ولا يمتخط ولا يتثاءب بحضرة غيره ولا يستدبر غيره ولا يضع رجلا على رجل ولا يضع كفه تحت ذقنه، ولا يعمد رأسه بساعده فإن ذلك دليل الكسل . ويعلم كيفية الجلوس

(ج) أدب الحديث : يرى أن يؤخذ فى حديثه مع سواه بما يأتى : —

(١) يمنع كثرة الكلام ، ويبين له أن ذلك يدل على الوقاحة وأنه فعل أبناء اللئام

(٢) يمنع اليمين بالكلام رأسا ، صادقا كان أو كاذبا ، حتى لا يعتاد ذلك فى الصغر

(٣) يمنع أن يبتدىء بالكلام ، ويعود ألا يتكلم إلا جوابا ، وبقدر السؤال

(٤) يمنع من لغو الكلام وفحشه ، ومن اللعن والسب ومن مخالطة من يجرى على لسانه شىء من ذلك ، فإن ذلك لامحالة يسرى من القرناء السوء . وأصل تأديب الصبيان الحفظ من هؤلاء

(د) مع من هو فوقه : يرى هنا أن يعود ما يأتى :—

(١) أن يقوم لمن فوقه ويوسع المكان ،

(٢) أن يطيع والديه ومعلمه ومؤدبه ، وكل من هو أكبر منه سنا من

قريب وأجنبي ، وأن ينظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم

(٣) أن يترك اللعب بين أيديهم

(هـ) الآداب الدينية : يرى الغزالى فى أخذ الطفل بالشعائر الدينية ،أنه متى بلغ سن التمييز وجب ألا يسامح فى ترك الطهارة والصلاة ، ويؤمر بالصوم فى بعض أيام رمضان . ويجنب لبس الديباج والحرير والذهب . ويحفظ من الأشعار التى فيها ذكر العشق وأهله ، ومن مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع ، فإن ذلك يغرس فى نفوس الصبيان بذور الفساد

وسائلها

عرضنا عليك طائفة من آراء العرب فى الآداب والأخلاق التى ارتضوها للمتعلمين صغارا وكبارا . وأنك لتقرأ كتبهم فتمر ببيان الوسائل التى رأوها ناجعة فى تأديب الاحداث ، نافعة فى أخذهم بالطاعات والحسنات وزجرهم عن المعاصى والسيئات ، فيخيل إليك أنك تقرأ فى كتب التربية الحديثة . ذلك بأن هذه لاتتضمن خيرا من تلك الآراء ، ولا وصفا أبلغ ، ولا بيانا أشفى . ولكى تستبين ذلك لاأكلفك الرجوع إلى تلك الكتب . وأنما أقدم بين يديك نماذج لما بها من تلك الوسائل والذرائع

(١) جاء فيما قدمنا من كتاب عتبة بن أبى سفيان لمعلم ولده : « ليكن أول ماتبدأ به من إصلاح بنىّ ، إصلاح نفسك . فإن أعينهم معقودة بعينك . فالحسن عندهم ماا‌ستحسنت ، والقبيح عندهم ماا‌ستقبحت .. كن لهم كالطبيب الذى لايعجل بالدواء قبل معرفة الداء »

(٢) تقدم الرشيد لمعلم ولده محمد الأمين بمذهب عدّه ابن خلدون بحق من أحسن مذاهب التعليم ، فقال : « ياأحمر ، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك

مهجة نفسه ، وثمرة قلبه ، فصير يدك عليه مبسوطة ، وطاعته لك واجبة . فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين : أقرئه القرآن ، وعرفه الأخبار ، وروه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره بمواقع الكلام وبدئه . وامنعه من الضحك إلا فى أوقاته . وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه . ولا تمرن بك ساعة ، إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها ، من غير أن تحزنه فتميت ذهنه . ولا تمعن فى مسامحته ، فيستحلى الفراغ ويألفه . وقومه مااستطعت بالرفق والملاينة . فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة » .

(٣) والفارابى ينصح لمن يبغى سياسة نفسه على خير الأوجه وأحسنها «أن يتأمل أحوال الناس وأعمالهم ومتصرفاتهم ، ماشاهدها وما غاب عنها مما سمعه وتناهى إليه منها ، وأن يمعن النظر فيها ، ويميز بين محاسنها ومساويها وبين النافع والضار لهم منها . ثم ليجتهد فى التمسك بمحاسنها لينال من منافعها مثل مانالوا ، وفى التحرز من مساويها ، ليأمن من مضارها ويسلم من غوائلها مثل ماسلموا [1]» .

(٤) وابن سينا يحتم على قيم الطفل «أن يجنبه مقابح الأخلاق وينكب عنه معايب العادات ، بالترهيب والترغيب والإيناس والإيحاش ، وبالاعراض والإقبال ، وبالحمد مرة وبالتوبيخ أخرى ، ماكان كافيا . فإن احتاج إلى الاستعانة باليد لم يحجم عنها . وليكن أول الضرب قليلا موجعا كما أشار به الحكماء من قبل . فان الضربة الأولى إذا كانت موجعة ساء ظن الصبى بما بعدها ، واشتد خوفه منها . وإن كانت خفيفة غير مؤلمة ، حسن ظنه بالباقى فلم يحفل به »

وللتأديب المدرسى الفخر على التأديب المنزلى بأن ابن سينا حكم له بالفضل

---

(١) رسالة السياسة للفارابى بمجلة المشرق

عليه إذ يقول « ينبغى أن يكون مع الصبى فى مكتبه صبية حسنة آدابهم مرضية عاداتهم . فإن الصبى عن الصبى ألقن ، وهو عنه آخذ ، وبه آنس . وانفراد الصبى الواحد بالمؤدب أجلب الأشياء لضجرهما . فإذا راوح المؤدب بين الصبى والصبى كان ذلك أنفى للسآمة وأبقى للنشاط وأحرص للصبى على التعلم والتخرج . فإنه يباهى الصبيان مرة ، ويغبطهم مرة ، ويأنف عن القصور عن شأوهم مرة . ثم يحادث الصبيان ، والمحادثة تفيد انشراح العقل ، وتحل منعقد الفهم . لأن كل واحد من أولئك إنما يتحدث بأعذب ما رأى ، وأغرب ما سمع فتكون غرابة الحديث سببا للتعجب منه ، والتعجب منه سببا لحفظه وداعيا إلى التحدث به . ثم إنهم يترافقون ويتقارضون الزيارة ويتكارمون ويتعاوضون الحقوق . وكل ذلك من أسباب المباراة والمباهاة والمساجلة والمحاكاة ، وفى ذلك تهذيب لأخلاقهم ، وتحريك لهممهم ، وتمرين لعاداتهم »

(٥) والغزالى يوجب (أن يكون المعلم عاملا بعلمه فلا يكذب قوله فعله . لأن العلم يدرك بالبصائر ، والعمل يدرك بالأبصار . وأرباب الأبصار أكثر . فإذا خالف العمل العلم منع الرشد . وكل من تناول شيئا وقال للناس لا تتناولوه ، فإنه سم مهلك ، سخر الناس منه واتهموه وزاد حرصهم على ما نهوا عنه ، فإنهم يقولون : « لولا أنه أطيب الأشياء وألذها ، لما كان يستأثر به » . ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل النقش من الطين ، والظل من العود . فكيف ينتقش الطين بما لا نقش فيه ؟ ومتى استوى العود والظل أعوج ؟ ولذا قيل فى المعنى :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم)

ويرى بحق أنه « كما أن البدن إن كان صحيحا ، فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة ، وإن كان مريضا فشأنه جلب الصحة إليه ، فكذلك النفس منك . إن كانت زكية طاهرة مهذبة ، فينبغى أن تسعى لحفظها وجلب مزيد قوة إليها ، واكتساب زيادة صفائها . وإن كانت عديمة الكمال والصفاء ، فينبغى أن تسعى لجلب ذلك إليها »

وقال فى معنى آخر « كما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن الموجبة للمرض لا تعالج إلا بضدها — فإن كانت من حرارة فبالبرودة . وإن كانت من برودة فبالحرارة — كذلك الرذيلة التى هى مرض القلب : علاجها بضدها . فيعالج مرض الجهل بالتعلم ، ومرض البخل بالتسخى ، ومرض الكبر بالتواضع ، ومرض الشره بالكف عن المشتهى تكلفا . . . وليس غرضنا ذكر دواء كل مرض . وإنما غرضنا التنبيه على أن الطريق الكلى فيه سلوك مسلك المضادة لكل ما تهواه النفس وتميل إليه »

لكنه غالى فى استخدام تلك الوسيلة بما ربما لم يوافق عليه ، إذ نصح للمعلم إن رأى الغضب باديا على التلميذ « أن يلزمه الحلم والسكوت بأن يسلط عليه من يصحبه ممن فيه سوء خلق . ويلزمه خدمة من ساء خلقه ، حتى يمرن نفسه على الاحتمال معه ، كما حكى عن بعضهم أنه كان يعود نفسه الحلم ويزيل عن نفسه شدة الغضب فكان يستأجر من يشتمه على ملأ من الناس ويكلف نفسه الصبر ويكظم غيظه ، حتى صار الحلم عادة له ، بحيث كان يضرب به فيه المثل . وبعضهم كان يستشعر فى نفسه الجبن وضعف القلب فأراد أن يحصل لنفسه خلق الشجاعة ، فكان يركب البحر فى الشتاء عند اضطراب الأمواج »

ثم أشار بمبدأين قويمين . أحدهما أن « الأصل المهم فى المجاهدة ، الوفاء بالعزم . فإذا عزم على ترك شهوة تيسرت له أسبابها ابتلاء منه تعالى ، فينبغى أن يصبر ويستمر . فإنه إن عود نفسه ترك العزم ، ألفت ذلك ففسدت . وإذا اتفق منه نقض عزم ، فينبغى أن يلزم نفسه عقوبة عليه . فإنه إن لم يخوفها بعقوبة ، غلبته وحسنت عنده تناول الشهوة فتفسد الرياضة بالكلية »

والثانى أن « الشيخ ينبغى أن ينظر فى مرض المريد وفى حاله وسنه ومزاجه وما تحتمله نفسه من الرياضة ، ويبنى على ذلك رياضته »

وقال فى تهذيب الصبيان : — « إذا ظهر من الصبى خلق جميل وفعل محمود فينبغى أن يكرم عليه ويجازى بما يفرح به ، ويمدح بين الناس . فإن خالف

ذلك فى بعض الأحوال مرة واحدة ، فينبغى للمؤدب أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكاشفه ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثل تلك المخالفة . فإنه إذا ظهر ذلك عليه ، فربما يفيده جسارة ، حتى لا يبالى بالمكاشفة . فإن عاد ثانيا ، فينبغى أن يعاتب سرا ، ويعظم الأمر فيه ، ويقال له : « إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا ، فتفتضح بين الناس » . ولا تكثر القول عليه بالعتاب فى كل حين . فإنه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه . وليكن الأب حافظا هيبة الكلام معه فلا يوبخه إلا أحيانا ، والأم تخوفه بالأب ، وتزجره عن القبائح »

(٦) فى المدخل للعبدرى : — « رب صبى يكفيه عبوسة وجهه عليه ، وآخر لا يرتدع إلا بالكلام الغليظ ، وآخر لا ينزجر إلا بالضرب والإهانة كل على قدر حاله »

وفى موضع آخر فى معنى آخر : « جاء فى الآثار أن الصلاة لا يضرب عليها إلا لعشر ، فما سواها أحرى . فينبغى أن يأخذ معهم (المعلم مع التلاميذ) بالرفق ما أمكنه . فإذا كان الصبى فى سن من يضرب على ترك الصلاة واضطر إلى ضربه ، ضربه ضربا غير مبرح . ولا يزيد على ثلاثة أسواط شيئا . بذلك مضت عادة السلف رضوان الله عليهم . فإن اضطر إلى الزيادة على ذلك ، فله فيما بين الثلاثة والعشرة سعة . لكن لابد أن تكون الآلة التى يضرب بها دون الآلة الشرعية التى تقوم بها الحدود . وهى ما ذكره مالك رحمه الله تعالى فى موطئه عن زيد بن أسلم أن رجلا اعترف على نفسه بالزنى على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فدعا صلى الله عليه وآله وسلم بسوط . فأتى بسوط مكسور ، فقال : « فوق هذا » . فأتى بسوط جديد لم تقطع ثمرته ، فقال : « دون هذا » . فأتى بسوط قد ركب به ولان . فأمر به صلى الله عليه وآله وسلم فجلد »

(وليحذر الحذر الكلى من فعل بعض المؤدبين فى هذا الزمان ! وهو أنهم

يتعاطون آلة اتخذوها لضرب الصبيان ، مثل عصا اللوز اليابس والجريد المشرح والفلقة ، وماأشبه ذلك مما أحدثوه . وهو كثير . ولايليق هذا بمن ينتسب إلى حملة الكتاب العزيز ، إذ حاله كما ورد فى الحديث : من حفظ القرآن ، فكأنما أدرجت النبوة بين كتفيه ، غير أنه لايوحى إليه »

(٧) وفى مقدمة ابن خلدون « أن الشدة بالمتعلمين مضرة بهم ... سيما فى أصاغر الولد ... ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أوالخدم ، سطابه القهر ، وضيق على النفس فى انبساطها ، وذهب بنشاطها ودعاه إلى الكسل ، وحمله على الكذب والخبث . وهو التظاهر بغير مافى ضميره خوفا من انبساط الأيدى بالقهر عليه ، وعمله المكر والخديعة لذلك . وصارت له هذه عادة وخلقا . وفسدت فيه معانى الإنسانية التى له من حيث الاجتماع والتمدن ، وهى الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله . وصار عيالا على غيره فى ذلك . وكسلت نفسه عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل ، فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيتها ، فارتكس وعاد فى أسفل السافلين . وهكذا حصل لكل أمة وقعت فى قبضة القهر ونال منها العسف . واعتبره فى كل من يملك أمره عليه ولاتكون الملكة الكافلة له رفيقة به ، تجد ذلك فيهم استقراء . وانظره فى اليهود وماحصل بذلك فيهم من خلق السوء حتى أنهم يوصفون فى كل أفق وعصر ، بالتخابث والكيد . وسببه ماقلناه . فينبغى للمعلم فى متعلمه والوالد فى ولده ألا يشتدوا عليهم فى التأديب »

الخلاصـــة : تدل الآثار السابقة على أن العرب عالجوا التربية الخلقية بوسائل متنوعة :

(١) الوسائل الدافعة : من القدوة الحسنة والبيئة الصالحة والاثابة على الإحسان ، والمحاسنة والملاينة والترغيب

(٢) الوسائل المانعة : كاتعاظ المرء بسواه ، وأنواع العقوبات . ومما

يحمد لهم فى ذلك حكمهم فى العقاب البدنى أنه شدة ضارة بالمتعلم ، وأنه شر لا يصار إليه إلا لدى الضرورة الملجئة والأحوال الحافزة . ومع هذا حتموا فى توقيعه الحذر والقصد

ويؤخذ من تلك الآثار كذلك :

(١) عملهم بالمثل « حسم الداء خير من علاجه » إذ يحوطون الفضائل بسياج من العناية والرعاية ، حتى لا تستحيل رذائل

(٢) سلوك مسلك المضادة فى محو السيئات

(٣) الوفاء بالعزم على مجاهدة الرذائل ، وعدم السماح بالاستثناء ولو قل

(٤) اختلاف طرق التهذيب باختلاف المرض الخلق والطبع والمزاج

آثار النهضة العربيـــة

العرب حملة لواء العلم بالعصور الوسطى : إنها لخدمة جليلة من العرب للعلم والتعليم ، أن أنقذوا الدنيا من آثار الجهل والتوحش اللذين ضربا بجرانهما بأوروبا فى العصور الوسطى . فى تلك العصور كانت أوروبا فى حالة يرثى لها . كانت فى انحطاط اجتماعى ، واضطراب سياسى وركود فكرى . وكانت الكنيسة الشرقية تعد علوم الاغريق خطرا يتهدد المسيحية ، فأغلقت معاهدها كما فعل جستنيان بمدارس أثينا سنة ٥٢٩ الميلادية ، واضطهدت مزاوليها من العلماء ، ووسمتهم بالوثنية والابتداع والزندقة والإلحاد والمروق من الدين . وشددت عليهم الخناق وضيقت المسالك ، ونكلت بمن عصاها منهم وسامتهم سوء العذاب . ففروا من وجهها إلى آسيا حيث أقاموا فى مأمن بسورية والعراق والجزيرة يزاولون العلوم الحكمية ، حتى فتح العرب تلك البلاد فورثوا تلك العلوم ، ومالوا إليها ، وعظم اشتغالهم بها ، وبخاصة أيام المأمون بالعراق ، وزمن الحكم وبعض ملوك الطوائف بالأندلس

بذلك كان اضطهاد الكنيسة للثقافة الإغريقية القديمة طامة أودت بما

كان بأوروبا من علم وفلسفة . ولولا أن قيض الله للعلوم والفلسفة من آواها من العرب وحاطها بعنايته حتى نمت وترعرعت فى حضانته ، لما وجدت العصور الحديثة إذ أقبلت ، من ترجع إليه لتأخذ عنه العلم والحضارة .

المستشرقون : اتصل الغرب بالشرق فى القرون الوسطى من نواحى الأندلس وصقلية وسورية وسائر البلاد التى شهدت معامع الحروب الصليبية . وقد أتيحت بذلك للاتينيين فرصة تعلم اللغات الشرقية . فمن أتقنها منهم قراءة وفهما ، اتخذوها أداة لدراسة علوم الشرق ومعارفه ، وبذلك تهيأ لهم ترجمتها والتعليق عليها . أولئك العلماء ومن خلفهم فى عملهم هذا من رجال الغرب منذ تلك العصور الخالية إلى الآن ، هم الذين تعرفهم باسم المستشرقين .

العلوم الإسلامية باللاتينية : للعرب الفضل الأعظم فيما كان بأوروبا من العلوم والمعارف أيام العصور الوسطى . ولولاهم ماتمتعت بمعظم ما كان لديها فى تلك الأيام من موارد الثقافة والتهذيب : فى تلك الأيام أخذ الفرنجة عن العرب فلسفتهم ، فكانت مفتاحا للتفكير العصرى الذى أخرج كثيرا من المذاهب الفلسفية الحديثة . فهم بجنى الفلسفة العربية الآن ينتفعون ، وفى ظلالها ينعمون .

قال ثور نديك :— «شهد القرن الثانى عشر الميلادى منذ بداءته إلى نهايته نشاط أوربا الشمالية للاستنارة بأنوار العلم التى أضاءت الأقطار العربية وبخاصة بلاد الأندلس . واستمر ذلك النشاط طوال القرن الثالث عشر . فكان من طائفة صالحة من المستشرقين أن ترجموا إلى اللاتينية من لغة العرب كثيرا من مؤلفاتهم فى الطب والفلك والرياضة والتاريخ والأدب والفلسفة» .

وقد بلغ من كثرة ماترجم على هذا الوجه ، أن كان حظ واحد فقط من

أولئك المستشرقين — جرار كريمونا الذى قدمنا لك ذكره — أن ترجم من العربية حوالى تسعين كتابا

وقد عنى المستشرقون بفلسفة ابن رشد عناية خاصة . فقد ترجموا مؤلفاته إلى اللاتينية ، ودرسوها بالجامعات الأوربية منذ العشرة الثالثة من القرن الثالث عشر . نقلها المستشرق «ميشيل سكوت» (١٠٧٥ — ١٢٣٤) بأمر من فردريك الثانى (١١٩٤ — ١٢٥٠) إمبراطور ألمانيا وملك صقلية . وقد كان مولعا بالفلسفة والعلوم الحكمية محبا لها

وقد بقيت الفلسفة العربية فى ثوبها اللاتينى عماد الجامعات الأوربية من القرن الثانى عشر حتى نهاية العصور الوسطى ، بل ظلت كذلك إلى ما بعد منتصف القرن السابع عشر

والعبرية أيضا : كان أحيانا يتوسط بين العربية واللاتينية فى النقل من الأولى إلى الثانية ، لغة ثالثة . فتترجم الكتب من العربية إلى هذه ومنها إلى اللاتينية . من ذلك ما كان من ريمند ، رئيس الأساقفة بطليطلة ، إذ أمر مستشرقا اسرائيليا فترجم أشهر المؤلفات العربية فى الفلسفة إلى لغة قشتالة ، ومن هذه نقلها رهبان الأديار إلى اللاتنية

ومن ذلك ما كان على أثر نكبة ابن رشد وتشتيت شمل تلاميذه من اليهود ، إذ رحل هؤلاء من الأندلس إلى مقاطعات البرانس شمالا ، وانقطع تكلمهم بالعربية لسانهم العادى والتعليمى ، ووجدوا الحاجة ماسة إلى أن ينقلوا من العربية إلى العبرية أهم مؤلفات العرب فى الفلسفة وسائر العلوم . عند ذلك أكبوا على الترجمة إلى العبرية حتى تم لهم ما أرادوا . وقد قضوا فى ذلك القرن الثالث عشر الميلادى والربع الأول من القرن الذى بعده

وبقى أكثر هذه التراجم على مر الزمان بأوربا أكثر من الأصول التى نقلت عنها . ووجدت بكثرة بدور الكتب الأوربية ، حتى أصبحت حاجة

المستشرقين إلى معرفة اللغة العبرية أشد من حاجتهم إلى تعلم اللغة العربية ليتسنى لهم ماقصدوا له من الإحاطة بعلوم المسلمين وفلسفتهم .

جامعات الإسلام نماذج : رأيت أن معظم مناهج التعليم بجامعات أوربا بالعصور الوسطى كان مما نقل المستشرقون إلى اللاتينية أو العبرية من العلوم الإسلامية . وبذلك كان العرب بحق أساتذة أوربا .

وكذلك كانت الجامعات الإسلامية نماذج للجامعات الأوربية . إذحاكتها فى طرقها وعاداتها . لم يكن مجرد اتفاق ومصادفة أن جرت هذه الجامعات على ماجرت عليه الجامعات الإسلامية من قبلها بسنين عدة ، من نظام الأمم ، واتخاذ الإرتحال ، وجوب الآفاق ، طريقا لطلب العلم . وإنما اتصل الأوربيون بالعرب طويلا بالأندلس وصقلية وسورية وسائر ميادين الحروب الصليبية ، فعرفوا لغتهم ، وأخذوا علومهم . ووقفوا على طرقهم فى طلب العلم ، ونظمهم فى إدارة الجامعات . فمعقول أن تكون طرق التعليم بأوربا فى العصور الوسطى والنظم التى سارت عليها جامعاتها ، من آثار العرب ، وعنهم أخذه الأوربيون .

رفع المستوى الاجتماعى : كما كانت نهضة العرب سبباً فى رفع المستوى العلمى بأوربا ، ساعدت على رفع مستواها الاجتماعى . فقد كانت فى العصور الوسطى من الجهل فى ظلام دامس . فانغمست فى حماة الرذائل ، وانتشرت بها الخرافات والأباطيل . وقد كان الأوربيون إذ ذاك فى فقر مدقع ، لايجدون العيش إلا شظفا . وكانوا على جهل بالوسائل الصحية ، فقاسوا من العلل والأمراض ماقاسوا . وكانو محرومين مما تمتع به الشرقيون من وسائل الرفاهية وبلهنية العيش . وقد كان حبهم للاستمتاع بتلك الوسائل الحافز الأول لتجارهم ومستكشفيهم إلى المخاطرة للوصول إلى الشرق بحرا ، إذ رأوا العرب يسدون الطريق إليه برا . فباتصالهم بالشرقيين بأى الطريقين — طريق البر القديم أو

طريق البحر الذى كشفه فاسكودى جاما — تعلموا منهم استعمال المنسوجات القطنية والحريرية ، والطنافس والحشايا والمصنوعات الصفرية والخشبية ، والسكر والقند والبن والبرتقال والتوابل ، وسائر ما تمتع به الشرقيون من وسائل الترف والنعيم .

وقد ظهر أثر ذلك فى لغاتهم ، إذ استعملوا فى الدلالة على تلك الأشياء ألفاظا اشتقوها من اللغات الشرقية ، كما يتبين لك من الجدول الآتى : —

اللفظ الفرنجى	اللفظ العربى	اللفظ الفرنجى	اللفظ العربى
Camphor	كافور	Jar	جرة
Candy	قنده عسل قصب (السكر المجمد)	Lemon	ليمون
Carat	قيراط	Lute	العود (آلة طرب)
Coffee	قهوه	Muslin	(نسج) موصلى
Cotton	قطن	Saffron	زعفران
Crimson	قرمزى	Sherbet	شراب (شربات)
Cumin	كمون	Syrup	شراب
Damasc	(نسيج) دمشقى	Sugar	سكر

وكذلك تلقى الفرنجة عن كل شىء عربى دروسا رقت مداركهم وحسنت حالهم : أخذوها عن شوارع المدن العربية ومبانيها وأضوائها وكل ما كان من وسائل الراحة والمتعة .

وقد نستطيع أن نتخيل كيف مثل الفرنجة المدينة العربية ، باعتبار حالهم فيما مضى بحالنا اليوم ، إذ نحاول تمثيل مدنية أوربا باستخدام مخترعاتها ومصنوعاتها ومحاكاتها فى القليل والكثير ، والعظيم والحقير . فالسكك الحديدية والكهرباء والبرق والمسرة والطباعة والسيارات — كل أولئك وما إليه ،

يحدث بالشرق الآن تطورا وانقلابا يشبهان التطور والانقلاب اللذين أحدثتهما المعاهد الإسلامية والمدنية العربية بأوربا فيما مضى من العصور والدهور .

فإذا أخذ الشرق الآن عن الغرب ، فمن قبل ما أعطى . وإذا ما أشرقت أنوار العرفان من المشرق على الغرب فى ظلمات العصور الوسطى ، فإنما استرد ما استودع . وإذا تتلمذ ناشئة الشرق لفلاسفة اليونان ، فمن قبل ما كان اليونان تلاميذ للشرقين ، إذ أخذوا عن المصريين والفينيقيين والعرب واليهود ثقافتهم وتلقوا عنهم دروسهم الأولى فى الخط لتدوين المعارف بالقلم على القرطاس ، وفى تقدير الأشياء فى المعاوضات بالمكاييل والموازين ، وتخرجوا عليهم فى الحساب والفنون والصناعات ، واهتدوا بما وضعوا لهم من الآداب الدينية وما نصبوا أمامهم من المثل العليا لمكارم الأخلاق .

وإذاً لا وطن للعلم ، ولا احتكار للثقافة . وإنما هى فرص تتاح للأمم أمة إثر أمة . فتقوم كل منها بقسطها من خدمة الإنسانية وترقية المدنية . فالشرق خدم الغرب أجيالا . والآن تقضى المدنية الغربيه دينا فى عنقها طوقها إياه الشرق منبع العلم ومهبط الحكمة ومهد الحضارة منذ القدم .

وإذا كان الشرق قد غزا الغرب بأفكاره وثقافته وآرائه فى الإنسانية يوما ما ، فبذلك ينبغى الآن أن يغزو الغرب الشرق ، لا بالحروب والظلم ووسائل العنف والقهر ومحاولة أهله أن يغلبوا أممه على أمرها .

النهضة العربية من عوامل النهضة الأدبية : ساهم العرب فى النهضة الأدبية الأوربية . فانه بفضل ما ترجم المستشرقون من مؤلفاتهم ، شغف أهل أوربا الغربية بالآداب الاغريقية ، وحبب إليهم الحصول عليها بلغتها الأصلية ، حتى إذا ما فتحوا القسطنطينية فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى ، بحثوا عن تلك الآداب وهم عارفون بما سمعوا منها من العرب أنهم إنما يبحثون عن أثمن

الـكنوز وأغلاها قيمة . وما أن عثروا عليها ، حتى أكبوا عليها درسا وترجمة . فأحيوا منها ما استطاعوا .

وكذلك كانت جهود العرب ، فى نقل علوم الإغريق إلى لغتهم والاحتفاظ بها حتى نقلها الفرنجة عنهم ، السبب الأول فى رغبة هؤلاء فى تعلم اللغة الاغريقية لتـكون الأداة المباشرة لتفهمهم تلك الآداب ، حتى إذا ما أتيحت لهم الفرصة المناسبة لذلك بزحف الأتراك نحو القسطنطينية ، رحبوا بعلماء الاغريق الذين نزحوا عنهـا إلى الغرب فرارا من وجه الزاحفين . فأنزلتهم إيطاليا وسـائر الأمم الأوروبية منهم منزلا مباركا ، واتخذوا منهم معلمين لأبنائهم يعلمونهم الاغريقية ويفقهونهم على آدابها . وبذلك كمل إحياؤها فكانت النهضة الأدبية .

وقصارى القول أنه على فلسفة العرب وحضارتهم بنت أوربا الحديثة صروح مجدها العلمى والمدنى .

رجال التربية الاسلامية

رجال التربية والتعليم من المسلمين كثيرون . منهم الجاحظ . فقد قدمنا لك رأيه فى المنزلة الاجتماعية للمعلمين . ونسب إليه ياقوت « كتاب المعـلمين » . ولـكنه لم يخبرنا بشىء من مادته ومحتوياته . ومنهم ابن سهل البلخى (القرن الرابع) . ذكر عنه ياقوت أنه كان من معلمى الصبيان الذين رفعهم علمهم وأدبهم إلى الدرجات العالية . وله « كتاب العلم والتعليم » الذى منه نسخة خطية بمكتبة برلين . ومنهم النمرى القرطبى (القرن الخامس) صاحب « جامع بيان العلم » الذى طبع بالقاهرة سنة ١٣٢٠ بمطبعة الموسوعات . ومنهم الغزالى صاحب « فاتحة العلوم » و « الاحيـاء » و « ميزان العمل » . والشهروردى (القرن السادس) صاحب « آداب المريدين » . والزرنوجى [١] (القرن الســابع) صاحب « تعليم المتعلم طريق التعلم » . وابن جماعة (القرن الثامن) صاحب

---

(١) نسبة إلى زرنوج (بفتح فسكون) من بلاد الترك حول نهر جيحون

« تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم » بمكتبة برلين . والعبدرى صاحب « المدخل » . وزكريا الأنصارى (القرن العاشر) صاحب « اللؤلؤ النظيم فى روم التعلم والتعليم » بالمكتبة الملكية . وابن حجر الهيثمى صاحب « تحرير المقال فى آداب وأحكام وفوائد يحتاج إليها مؤدبو الأطفال » بالمكتبة الملكية . وليس من مقاصدنا الآن أن ندرس أولئك العلماء الأعلام جميعا . فليس لدينا من الوقت ولا من المجهود ما نستطيع بذله فى ذلك . وإنما يعنينا خمسة منهم : نعطيك فذلكة من حياتهم ونقفك على شىء من آرائهم فى التربية وعلم النفس ، ونحيلك فيما وراء ذلك إلى مظانه لترجع إليه إذ حلا لك

١ — الفارابى

(٢٥٩ هـ — ٣٣٩ هـ)

حياته : هو أبو نصر محمد بن محمد . سمى الفارابى نسبة إلى فاراب ، وهى مدينة من بلاد الترك فى أرض خراسان وراء نهر سيحون . نسب إليها لأنه ولد بها ، فهو تركىّ مولدا ولكنه فارسى منتسبا

وقد كان بودنا لو تسنى لنا أن نعرف عن تربيته فى أطواره الأولى شيئا ولو يسيرا . ولكنا نرجع إلى كتب التراجم فلا نجد بها بغيتنا

رحل الفارابى كعادة أهل زمانه فى طلب العلم ، وتنقل فى الأمصار ، وجاب الآفاق : كان من أجل ذلك ببغداد أيام المقتدر . وهناك « أخذ صناعة المنطق عن يوحنا بن حيلان . فبذّ جميع أهل الإسلام فيها ، وأربى عليهم فى التحقق بها فشرح غامضها ، وكشف سرها ، وقرب تناولها ، وجمع ما يحتاج إليه منها فى كتب صحيحة العبارة لطيفة الإشارة ، منبهة على ما أغفله الكندى وغيره . . . . فجاءت كتبه فى ذلك الغاية الكافية ، والنهاية الفاضلة »[1]

---

(١) طبقات الأطباء عن طبقات الأمم لابن صاعد . وهو بالمكتبة الملكية

وكذلك أتقن العلوم الحكمية ، ودرس الفلسفة اليونانية ، وألف كتابا في « أغراض فلسفة أفلاطون وارسطوطاليس يشهد بالبراعة في صناعة الفلسفة والتحقق بفنون الحكمة . وهو أكبر عون على تعلم طريق النظر ، وتعرف وجه الطلب . . . . ولا أعلم كتابا أجدى على طالب الفلسفة منه (١) »

وببغداد أيضا تعلم النحو ، وبرع في العلوم الرياضية . ودرس الطب فكان له في صناعته علم بالأمور الكلية منها . ولكنه لم يباشر أعمالها . ولم يحاول جزئياتها

وقد زار مصر فيما شاهد من الأقطار والأمصار . فقد ذكروا أنه كان بها سنة ٣٠٨ ﻫ

ويظهر أنه عاد من مصر إلى بغداد . وهنا ابتدأ يؤلف كتاب « المدينة الفاضلة » ولكنه رحل إلى الشام سنة ٣٣٠ ﻫ قبل إتمامه . وإنما أتمه بدمشق سنة ٣٣١ﻫ . « وكان مدة مقامه بدمشق لا يكون غالبا إلا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض يؤلف هناك كتبه ، ويتناوبه المشتغلون عليه (١) »

وقد اتصل وهو بالشام بسيف الدولة الحمداني أمير حلب والموصل ذكروا في ذلك قصة إن صحت ، دلت على جرأته واعتداده بنفسه . حكوا أنه لما ورد على سيف الدولة ، أدخل عليه . فقال له سيف الدولة : اقعد . فقال : حيث أنا أم حيث أنت ؟ فقال حيث أنت . فتخطى رقاب الناس حتى انتهى إلى مسند سيف الدولة ، وزاحمه فيه حتى أخرجه عنه .

وكان الفارابي واسع العلم باللغات حتى التي ندر تداولها . يدل على هذا أنه كان على رأس سيف الدولة مماليك له معهم لسان خاص يسارّهم به قل أن يعرفه أحد . فلما كان ما كان من سلوك الفارابي الذي وصفنا إذ أذن له بالجلوس ، قال سيف الدوله لماليكه بذلك اللسان : — « إن هذا الشيخ قد أساء

---

(١) وفيات الأعيان

الأدب . وإنى لسائله عن أشياء إن لم يجب عنها فاخرجوا به » . فقال له أبو نصر بذلك اللسان : « أيها الأمير . اصبر فإن الأمور بعواقبها » . فعجب سيف الدولة منه . وقال له : « أتحسن هذا اللسان » . قال : « نعم . أحسن أكثر من سبعين لسانا » فكان ذلك مما أعظمه فى عين الأمير

وكان أبو نصر رحمه الله حديد الذهن ، عذب الكلام ، واسع الاطلاع ، قوى الذكاء . وقد تجلت تلك الصفات فى مجلس سيف الدولة . فقد كان يجمع الفضلاء فى جميع المعارف . فخاض معهم أبو نصر فى كل فن . فلم يزل كلامه يعلو وكلامهم يسفل . حتى صمت الكل . وبقى يتكلم وحده . ثم أخذوا يكتبون عنه مايقول . ففرقهم سيف الدولة وخلا به . وبذلك نال الحظوة لديه

وكان الفارابى عالما بالموسيقى . وله فيها كتاب الموسيقى الكبير . وكتاب فى إحصاء الإيقاع . وكان مع علمه بها ماهرا فيها ، بارعا فى التأثير فى السامعين دقيق الملاحظة لعيوبها — لما عظم فى عين سيف الدولة بما رأى من آيات فضله ، احتفى به . فلما أنس منه ميلا إلى السماع ، أمر سيف الدولة فحضر كل ماهر فى صناعة الموسيقى بأنواع الآلات . فلم يحرك أحد منهم آلته إلا عابه أبو نصر . وقال له : — « أخطأت » . فقال له سيف الدولة : « وهل تحسن فى هذه الصناعة شيئا ؟ » فقال « نعم » . ثم أخرج من وسطه خريطة . ففتحها وأخرج منها عيدانا وركبها . ثم لعب بها فضحك كل من كان بالمجلس . ثم فكها وركبها تركيبا آخر . ثم ضرب بها . فبكى كل من بالمجلس ؛ ثم فكها وغير تركيبها وعزف . فنام كل من فى المجلس ، حتى البواب فتركهم نياما وخرج

حكى ذلك ابن خلكان فى وفيات الأعيان . وليس لنا أن نكذبه حتى يقوم الدليل على استحالته عقلا أو نقلا .

وكان رحمه الله أزهد الناس فى الدنيا . عرض عليه سيف الدولة أن يجرى عليه مايعيش به عيشة رغدا . فأبى إلا الاقتصار على أربعة دراهم كل

يوم . فكان يخرجها فى شئون حياته . وما زال ذلك دأبه حتى مات سنة ٣٣٩ ﻫ رحمه الله رحمة واسعة .

آراؤه فى التربية :— للفارابى رسالة فى السياسة نشرتها مجلة المشرق الكاثوليكية فى سنتها الرابعة [١]. وقد أتى فيها على طائفة من آرائه فى التربية والتعليم . وقد ذكرنا منها طائفة مفرقة فى البحوث السابقة لصلتها بها . فلا نكرر ذكرها . وإنما نكتفى بالإشارة إليها مع ذكر صفحاتها الواقعة بها ليسهل الرجوع إليها ، فهو يرى وجوب مراعاة استعداد المتعلمين وطباعهم (ص ٧٨) ويرى أن أحسن الخلق إنما يكون بمراقبة النفس حتى يخضع الهوى لداعى العقل (ص ٩٤) ويرى نقد سلوك الناس والاتعاظ بهم خير الأوجه لسياسة النفس (ص ٩٧)

آراؤه فى القوى النفسية : يظهر أن آراء الفارابى فى القوى النفسية هى الأصل الذى تفرعت عنه آراء من لحقه من فلاسفة العرب كابن سينا وإخوان الصفاء . فأساس تقسيم تلك القوى لدى الجميع واحد ، وإنما الخلاف فى العبارة وفى زيادات طفيفة .

وإذا رجعنا إلى ماقاله الفارابى فى أجزاء النفس الإنسانية وقواها فى كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة» ، وجدناه يقسم تلك القوى إلى عدة أقسام

« فأول مايحدث فى الإنسان القوة التى بها يتغذى وهى القوة الغاذية ثم من بعد ذلك القوى التى بها يحس الملموس . . . والتى بها يحس الطعوم ، والتى بها يحس الروائح ، والتى بها يحس الأصوات والتى بها يحس الألوان والمبصرات . .

«والقوة الحاسة لها رئيسة ولها رواضع . فرواضعها هى هذه الحواس الخمس المتفرقة فى العينين والأذنين وسواها . والرئيسة منها هى التى يجتمع

---

(١) هى بدار الكتب الملكية رقم ١١٤ مجلات

فيها جميع ماتدركه الحواس الخمس بأسرها.

وكأن هذه الخمس هى منذرات تلك. وكأن هؤلاء أصحاب أخبار كل واحد منهم موكل بجنس من الأخبار، وبأخبار ناحية خاصة من نواحى المملكة. والرئيسة كأنها هى الملك الذى عنده تجتمع أخبار نواحى مملكته من أصحاب أخباره.

ثم يحدث فيه من بعد ذلك قوة أخرى يحفظ بها فى نفسه المحسوسات بعد غيبتها عن مشاهدة الحواس لها وهذه هى القوة المتخيلة. فهذه تركب المحسوسات بعضها إلى بعض، وتفصل بعضها عن بعض، تركيبات وتفصيلات مختلفة، بعضها كاذبة وبعضها صادقة. بعضها يتفق فيها أن تكون موافقة لما حس [١] (الصادقة) وبعضها يتفق فيها أن تكون مخالفة للمحسوس [٢] (الكاذبة)

«ثم من بعد ذلك يحدث فيه القوة الناطقة التى بها يمكن أن يعقل المعقولات، وبها يميز بين الجميل والقبيح، وبها يحوز الصناعات والعلوم. وهذه القوى الثلاث «الحاسة والمتخيلة والناطقة» يقترن بها نزاع النفس إلى مايحس أو يتخيل أو يعقل، فتشتاقه أوتكرهه.

«وهذه القوة النزوعية: هى التى بها تكون الإرادة. وإذاً فالإرادة نزوع النفس إلى ما أدرك أو عما أدرك مطلقا (بالحس أو بالتخيل أوبالقوة الناطقة) وحكمها فيه أنه ينبغى أن يؤخذ أو يترك.

«وللقوة النزوعية خدم بالبدن هى قوى متفرقة فى الأعصاب والعضلات السارية فى اليدين والرجلين وسائر الأعضاء التى يمكن أن تتحرك بالإرادة فتحدث الأفعال التى نزوع الحيوان والإنسان إليها.

«وإن فى الإنسان والحيوان من الأعصاب المذكورة صنفين: أحدهما

---

(١) التخيل الحضورى (٢) التخيل الاختراعى

آلات لرواضع القوة الحاسة فى أن يحس كل واحد منها الحس الخاص به . واسم هذا الصنف الأعصاب التى للحس . والآخر آلات أطراف البدن بها يتأتى لها أن تتحرك الحركة الإرادية . وهذا الصنف هو الأعصاب التى للحركة .

«وهذه الأعصاب طائفة منها مغارزها فى الدماغ ، وطائفة مغارزها فى النخاع النافذ . وهذا متصل من أعلاه بالدماغ»

مؤلفاته : للفارابى مؤلفات كثيرة فقد معظمها . وما بقى فمنها بضعة كتب فى المنطق متفرقة فى مكاتب أوربا منقول بعضها إلى اللاتينية أو العبرية ، ومنها ماهو فى متناولك بمصر ، مثل :

(١) الثمرة المرضية (٢) آراء أهل المدينة الفاضلة (٣) المجموع . وهى بمكتبة دار العلوم (٤) رسالة السياسة التى سبق ذكرها .

المراجع : راجع ترجمة الفارابى فى مثل المراجع الآتية

(١) ابن خلكان (٢) المجموع (٣) طبقات الأطباء ج ٢
(٤) تاريخ آداب اللغة لجورجى زيدان

٢ — ابن سينا
(٣٧٠ — ٤٢٨)

يمتاز ابن سينا عن الفارابى بأنه ذكر من أحواله ، ووصف من سيرته ما أغنى سواه عن التعريف به . ووجد من أصحابه من قاموا به ، ورووا مالم يروه هو من أخباره[1] .

نسبه ووطنه الأصلى : ابن سينا الملقب بالشيخ وبالرئيس ، هو أبو على الحسين بن عبد الله بن الحسن بن على بن سينا .

---

(١) راجع طبقات الأطباء ج ٢ . ووفيات الأعيان ج ١

كان أبوه من أهل بلخ فى شمالى أفغانستان . ثم انتقل إلى بخارى فى أيام نوح بن منصور السامانى .

تربيته : عنى أبوه بتربيته هو وأخيه . وقد مر فى نشأته بالأطوار الآتية :—

(١) طور الغلومة : وينتهى وهو ابن عشر . وفيه حصل العلوم الأولية : حفظ القرآن ، وأتى على كثير من الأدب .

(٢) طور المراهقة : وينتهى وهو ابن ست عشرة . وفيه درس الحساب وتعلم الفقه وأخذ مبادىء المنطق من كتاب ايساغوجى ، ثم مبادىء الهندسة من كتاب اقليدس ، ثم الفلك من كتاب المجسطى . ثم توفر على الطب علما وعملا ، فانفتح عليه الكثير من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة .

(٣) طور الشباب : وينتهى وهو ابن ثمان عشرة سنة . وفيه توفر على القراءة والعلم . فأعاد قراءة المنطق وجميع أجزاء الفلسفة حتى أحكم الطبيعيات والرياضيات .

ثم عدل إلى الإلهيات فقرأ كتاب الطبيعة لارسطو . واستعان على فهمه بكتاب للفارابى فى أغراض كتاب مابعد الطبيعة .

ثم اتصل بنوح بن منصور السامانى ، وكان مريضا بمرض حارت فى علاجه الأطباء فشاركهم فى مداواته ، وأتيحت له بتلك الصلة فرصة الاطلاع على مكتبة ذلك الأمير ، فوجد فيها من كتب الطب والعربية والشعر والفقه مالم يكن بسواها . فقرأ تلك الكتب ، وظفر بفوائدها .

أخلاقه وصفاته : تدلنا ترجمة حياة ابن سينا ومؤلفاته على كثير مما كان عليه من الأخلاق والصفات .

(١) معجب بنفسه : يظهر إعجابه بنفسه مما حكى عن نفسه ، ثم ماحكاه عنه صاحبه أبو عبيد الجوزجانى . فمن ذلك قوله : « أكملت العشر من العمر

وقد أتيت على القرآن ، وعلى كثير من الأدب ، حتى كاد يقضى منى العجب»

وكذا قوله : « ابتدأت بكتاب ايساغوجى على الناتلى — وكان يدعى المتفلسف — فلما ذكر لى حد الجنس . . . فأخذت فى تحقيق هذا الحد بما لم يسمع بمثله ، تعجب منى كل العجب ، وحذر والدى من شغلى بغير العلم . وكانت أى مسألة قالها لى أتصورها خيرا منه »

(٣) مستقل برأيه : تمت هذه الصفة بصلة متينة لصفة الإعجاب بالنفس . وقد ظهرت فى ابن سينا منذ صباه . يدل على ذلك قوله : « كان أبى يعد من الإسماعيلية . وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذى يقولونه ويعرفونه . وكذلك أخى . وكانوا ربما تذاكروا بينهم وأنا أسمعهم ، وأدرك مايقولونه ، ولا تقبله نفسى »

(٤) مجد فى طلب العلم : يدل على ذلك قوله : « ثم توفرت على العلم والقراءة سنة ونصفا . فأعدت قراءة المنطق وجميع أجزاء الفلسفة ، وفى هذه المدة مانمت ليلة واحدة بطولها ، ولا اشتغلت فى النهار بغيره »

(٥) متدين بلا زهد : يظهر الشق الأول فى قوله : — « كل حجة كنت أنظر فيها أثبت مقدمات قياسية ورتبتها . . . ثم نظرت فيما عساه تنتج ، وراعيت شروط مقدماته حتى تحقق لى حقيقة الحق فى تلك المسألة . وكلما كنت أتحير فى مسألة ولم أكن أظفر بالحد الأوسط فى قياس ، ترددت إلى الجامع ، وصليت وابتهلت إلى مبدع الكل ، حتى فتح لى المغلق ، وتيسر المتعسر . وكنت أرجع بالليل إلى دارى ، وأضع السراج بين يدى ، وأشتغل بالقراءة والكتابة . فمهما غلبنى النوم أوشعرت بضعف ، عدلت إلى شرب قدح من الشراب ريثما تعود إلى قوتى . ثم أرجع إلى القراءة . ومهما أخذنى أدنى نوم ، أحلم بتلك المسائل بأعيانها ، حتى أن كثيرا من المسائل اتضح لى وجوهها فى المنام »

وأما أن تدينه لم ينته به إلى الزهد والورع ، فيظهر من أقوال الجوزجانى الذى صحبه وخدمه خمسا وعشرين سنة : قال فى موضع (سألته أنا شرح كتب أرسطوطاليس فذكر أنه لا فراغ له إلى ذلك . « ولكن إن رضيت منى بتصنيف كتاب أورد فيه ما صح عندى من هذه العلوم بلا مناظرة مع المخالفين ولا اشتغال بالرد عليهم ، فعلت ذلك . » فرضيت به . فابتدأ بالطبيعيات من كتاب سماه كتاب الشفاء . وكان قد صنف الكتاب الأول من القانون . وكان يجتمع كل ليلة فى داره طلبة العلم . وكنت أقرأ من الشفاء . وكان يقرىء غيرى من القانون نوبة . فإذا فرغنا ، حضر المغنون على اختلاف طبقاتهم ، وهيىء مجلس الشراب بآلاته »

وقال فى موضع آخر : « كان الشيخ قوى القوى كلها . وكانت قوة المجامعة ، من قواه الشهوانية ، أقوى وأغلب . وكان كثيرا ما يشتغل به ، فأثر فى مزاجه » . وكان من ذلك أن أخذه قولنج مات به . فذلك حيث يقول فيه بعض أهل زمانه

رأيت ابن سينا يداوى الرجال وبالحبس مات أخس الممات
فلم يشف ما ناله بالشفا ولم ينج من موته بالنجاة

يريد بالحبس انحباس البطن من القولنج الذى أصابه ، وبالشفاء الكتاب الذى أشار إليه الجوزجانى ، وبالنجاة كتاب له لخص فيه الشفاء .

وليس « الشفاء » و « النجاة » من كتبه فى الطب كما قد يتوهم . فهما من كتبه فى الفلسفة ، وإنما قصد الشاعر بذكرهما إلى الجناس ليس غير .

(٦) لا يفوته الثأر : بل كان ينتقم لنفسه ممن أهانه ، ويدين إذا يدان . حدث الجوزجانى ، قال : « عنّ للشيخ التوجه إلى أصفهان . فخرج متنكرا وأنا وأخوه وغلامان معه فى زى الصوفية إلى أن وصلنا إلى طهران على باب أصفهان ، بعد أن قاسينا شدائد فى الطريق . فاستقبلنا أصدقاء الشيخ وندماء

الأمير علاء الدولة وخواصه ... وحضر مجلس علاء الدولة . فصادف فى مجلسه الإكرام والإعزاز الذى يستحقه مثله . ثم رسم الأمير علاء الدولة ليالى الجمعات مجلس النظر بين يديه بحضرة سائر العلماء على اختلاف طبقاتهم والشيخ من جملتهم ، فما كان يطاق فى شىء من العلوم .... وكان الشيخ جالسا يوما من الأيام بين يدى الأمير ، وأبو منصور الجبائى حاضر . فجرى فى اللغة مسألة تكلم الشيخ فيها بما حضره . فالتفت أبو منصور إلى الشيخ يقول : — «إنك فيلسوف وحكيم ، ولكن لم تقرأ من اللغة مايرضى به كلامك فيها» . فاستنكف الشيخ من هذا الكلام . وتوفر على درس كتب اللغة ثلاث سنين . واستهدى كتاب تهذيب اللغة من خراسان من تصنيف أبى منصور الأزهرى . فبلغ الشيخ فى اللغة طبقة قلما يتفق مثلها . وأنشأ ثلاث قصائد ضمنها ألفاظا غريبة من اللغة . وكتب ثلاثة كتب . أحدها على طريقة ابن العميد . وآخر على طريقة الصابى . والآخر على طريقة الصاحب . وأمر بتجليدها وإخلاق جلدها . ثم أوعز إلى الأمير فعرض تلك المجلدة على أبى منصور الجبائى . وذكر أنا ظفرنا بهذه المجلدة فى الصحراء وقت الصيد . فنحب أن تتفقدها وتقول لنا مافيها . فنظر فيها أبو منصور . وأشكل عليه كثير مما فيها . فقال له الشيخ : «إن ماتجهله من هذا الكتاب ، فهو مذكور فى (الموضع الفلانى) من كتب اللغة» ، وذكر له كثيرا من الكتب المعروفة فى اللغة كان الشيخ حفظ تلك الألفاظ منها ... ففطن أبو منصور أن تلك الرسائل من تصنيف الشيخ ، وأن الذى حمله عليه ماجبهه به فى ذلك اليوم . فتنصل واعتذر إليه . ثم صنف الشيخ كتابا فى اللغة سماه «لسان العرب» لم يصنف فى اللغة مثله ، ولم ينقله إلى البياض حتى توفى . فبقى على مسودته لايهتدى أحد إلى ترتيبه»

ولسان العرب لابن سينا غير لسان العرب المعروف طبعا . فإن هذا لابن منظور لا لابن سينا .

(٦) سريع التأليف والتصنيف : لم يكن ابن سينا من الفلاسفة الذين

لايكتبون بضعة أسطر إلا بعد التأمل والتريث ، وبعد أن يروّوا فيما يكتبون مليا ، وقد يلغون ما يكتبون ، لأنه على النقد لايعجبهم إذ يجدونه بهرجا ، فيستأنفون البحث ، ولا يخرجون للناس ثمار بحثهم قبل نضج فكرهم . فقد امتاز بسرعة تحديد أفكاره فى نفسه . ووجد فيها قيما كثيرا يستأهل أن يخرجه للناس . وسهل عليه جداً مايصعب على كثير سواه من صوغ مايجول بخاطره من المعانى فى قوالب الألفاظ .

وجمع إلى ذلك اعتداده بنفسه والجد والدأب . فكان من أسرع الفلاسفة إذاعة لفكره ، وأعظمهم نشاطا فى ميدان التأليف والتصنيف . وكانت دوحته من أحفل أدواح العلم ثمراً ، وأدناها للناس جنى . وكانت حياته على قصرها طويلة بما نجز فيها من الأعمال . كان بجواره رجل يقال له أبو الحسين العروضى ، فسأله أن يصنف له كتابا جامعا . فصنف له «المجموع» الذى أتى فيه على سائر العلوم سوى الرياضيات ولم يكن إذ ذاك يتجاوز الحادية والعشرين من عمره

وكان فى جواره أيضا رجل يقال له أبو بكر البرقى ، فقيه النفس متوحد فى الفقه والتفسير والزهد ، مائل إلى علوم زمانه . فسأله شرحا لها . فصنف له كتاب «الحاصل والمحصول» فى قريب من عشرين مجلدة ، وصنف له فى الأخلاق كتاب «البر والاثم» كل ذلك وهو لايزال فتى .

وطلب إليه الجوزجانى إتمام كتاب الشفاء فاستحضر الكاغد والمحبرة ، وبقى يومين يكتب رؤس المسائل بلا كتاب يحضره ولا أصل يرجع إليه . بل من حفظه وعن ظهر قلبه . فكان له من رؤس المسائل وحدها عشرون جزءاً . ثم ترك تلك الأجزاء بين يديه ، وأخذ الكاغد . فكان ينظر فى كل مسألة ويكتب شرحها . فكان يكتب كل يوم خمسين ورقة ، حتى أتى على جميع الطبيعيات والإلهيات ، ماخلا كتابى الحيوان والنبات .

ومن مصنفاته «المختصر الأصغر فى المنطق وهو الذى وضعه بعد ذلك فى

أول «النجاة» . وقد وقعت نسخة منه إلى شيراز ، فنظر فيها جماعة من أهل العلم هناك ، فوقعت لهم شبه فى مسائل منها ، فكتبوها ، وأنفذها قاضى شيراز إلى أبى القاسم الكرمانى ، وسأله عرضها على الشيخ واستنجاز أجوبته عنها . فوافى أبو القاسم ابن سينا عند اصفرار الشمس فى يوم صائف . وعرض عليه كتاب القاضى والمسائل التى اشتبهوا فيها .

ولما خرج أبو القاسم ، أمر ابن سينا الجوزجانى باحضار الورق وتقطيعه وشده أجزاء (كراسات) . فشد خمسة أجزاء كل واحد منها عشرة أوراق بالربع الفرعونى وصلوا العشاء ، وقدم . فأمر ابن سينا باحضار الشراب ، فشرب هو وأخوه وصاحبه الجوزجانى . ثم ابتدأ هو بجواب تلك المسائل وبقى يكتب ويشرب إلى نصف الليل حتى غلب عليه النوم فأمرهما بالانصراف . وفى الصباح أرسل إلى الجوزجانى فحضره وهو على المصلى وبين يديه الأجزاء الخمسة . فقال : خذها وصربها إلى الشيخ أبى القاسم الكرمانى ، وقل له . — «استعجلت فى الأجوبة عنها لئلا يتعوق الرسول» . فلما حمل الجوزجانى الأجزاء إلى الكرمانى ، تعجب كل العجب ، وصار هذا الحديث تاريخا بين الناس .

يؤخذ من ذلك ومن كثرة مؤلفات ابن سينا ومصنفاته مع قصر حياته ، أن من أظهر صفاته قوته على العمل وسرعته فيه واستسهاله إياه

(٧) لم يكن من فلاسفة الشك الذين شكوا كثيرا فى الآراء المنقولة وابتدعوا غيرها ، ولم يصلوا إلى الحقيقة إلا بعد عناء البحث عنها وطول افتقادها . وإنما تقبل ما تلقن فى صغره من آراء سلفه ، وثبت عليها فى كبره بعد أن أكملها وهذبها .

يدل على ذلك قوله : «فلما بلغت ثمان عشرة من عمرى فرغت من هذه العلوم كلها ، وكنت إذ ذاك للعلم أحفظ ، ولكنه اليوم معى أنضج . وإلا

فالعلم واحد ، لم يتجدد لى بعده شىء» .

مؤلفاته : مؤلفات ابن سينا كثيرة كما يعلم بالرجوع إلى تراجم حياته . منها ما يأتى :

١ — القانون فى الطب وقد قدمنا لك شيئا عنه [١] .

٢ — لسان العرب . فى اللغة العربية وقد عرفت حديثه .

٣ — هدية الأمير : رسالة فى القوى الانسانية بمكتبة دار العلوم

وقد ترجمت إلى غير العربية فى بدء النهضة الأوربية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر . وهى فى قصة ترجمتها صالحة أن تكون مثالا لما قدمنا لك من نقل العلوم الإسلامية إلى اللاتينية والعبرية . فقد ترجمها إلى اللاتينية فى القرن السادس عشر مستشرق إيطالى [٢] ترجمة طبعت بالبندقية سنة ١٥٤٦ - تلك الترجمة لاتزال بمكتبة فلورنسا عاصمة توسكانا

ولشاعر إسرائيلى [٣] من مشهورى القرون الوسطى كتاب «الحجة والدليل فى نصر الدين الذليل» ، موضوعه بيان فضل الدين الموسوى . وهو فى صورة محاورة بين مسيحى ومسلم واسرائيلى

وضعه بالعربية . وترجمه إلى العبرية يهوذا بن تبون فى بدء القرن السادس عشر . ونقله إلى اللاتينية المستشرق يوحنا بوكستورف حوالى سنة ١٦٦٠ م وقد جاءت «هدية الأمير» فى طيه . فنالها ما ناله من النقل إلى تينكم اللغتين .

٤ — الشفاء . وهو أوسع ماوضع فى الفلسفة ، بمكتبة دار العلوم أيضا

٥ — النجاة : ثلاث مجلدات . مختصر الشفاء ، بالمكتبة الملكية .

---

(١) راجع المقدمة صفحة ٨ (٢) هو أندراوس الباجس

(٣) هو أبو الحسن يهوذا بن صموئيل . عاش بين سنتى ١٠٨٠ و ١١٤٠ الميلاديتين . وكان من أهل قشتالة بالأندلس . ورحل فى شيخوخته إلى أرض فلسطين . وكان طبيبا من أشعر بنى عصره

٦ — الاشارات والتنبيهات . وهو آخر ماصنف فى الحكمة

٧ — رسالة فى السياسة . وهى الخامسة من ثلاث عشرة رسالة له تكوّن مجموعا منه نسخة بمكتبة ليدن المشهور بهولندة . هذه النسخة مكتوبة فى عهد ابن سينا نفسه . يدل على ذلك بعض حواشيها التى يفهم منها أن الكتاب بيع بيعا شرعيا للمسمى محمد بن محمد بن أحمد سنة ٤٠٨ أى ٢٠ سنة قبل وفاة ابن سينا .

وقد عنيت مجلة المشرق الكاثوليكية بنشر تلك الرسالة فى الأعداد ٢١ و ٢٢ و ٢٣ من سنتها التاسعة . والمجلة المذكورة بدار الكتب الملكية بقسم المجلات رقم ١١٤ كما تقدم

آراؤه : آراء ابن سينا فلسفية وغير فلسفية ، والفلسفية منها كثيرة متنوعة . منها مايتعلق بالطبيعيات ومنها مايتعلق بالالهيات . وتحت كل فروع وفصول . يعرف ذلك من يرجع إلى كتبه السالفة وسواها . وإنما يهمنا من آرائه صنفان : —

(١) فى القوى النفسية ، والمعاد فيهما من كتبه السابقة هدية الأمير والشفاء والنجاة والاشارات . وهو فى تلك الكتب يقسم القوى النفسية ثلاثة أقسام · — القوى النباتية ، والقوى الحيوانية ، والقوى الانسانية .

فأما القوى النباتية فهى التى فيها تشترك كل الكائنات الحية (النبات والحيوان والانسان) . وهى ثلاثة أقسام : — غاذية ، ومنمية ، ومولدة .

فالغاذية هى القوة التى تحيل الاطعمة مادة تشاكل الجسم فتجدد ما تهدم منه وتسدد ماثلمه التحلل . والمنمية قوة تزيد الجسم طولا وعرضا وعمقا حتى يبلغ كماله فى النشوء . والمولدة قوة تهيء من الجسم الحى جزءا يشبهه فى خواصه ليخلفه فى الحياة إذا أدركه الفساد . وبذلك تبقى الأنواع

وتنبعث المولدة متأخرة عن القوتين الآخريين . ويبطل عمل المنمية أولا . وتبقى المولدة والغاذية عاملتين معا حتى تقف المولدة . ثم تبقى الغاذية عمالة وحدها حتى تعجز فيحل الأجل

وأما القوى الحيوانية فهى التى يشترك فيها الحيوان والإنسان دون النبات وهى ثنتان :— محركة ومدركة

فالمحركة قسمان :— باعثة وفاعلة . فالباعثة هى القوة النزوعية الحاملة على الحركة . ولها شعبتان :— ١ - القوة الشهوانية . وهى قوة تبعث على حركات بها تدرك الأشياء الضرورية أو النافعة طلبا للذة — ٢ - القوة الغضبية . وهى قوة تبعث على حركات تدفع بها الأشياء الضارة أو المفسدة طلبا للنجاة والغلبة .

وأما المحركة الفاعلة ، فإنها قوة تنبعث فى أعصاب الجسم إلى أطرافه بها بعض العضلات ينقبض وبعضها ينبسط . فتحدث الحركة على وفق مطلوب القوة النزوعية .

وأما المدركة فقسمان أيضا :— ١ — مدركة من الخارج — ٢ — مدركة من الداخل . فالمدركة من الخارج هى القوة المودعة فى الحواس الظاهرة المعروفة والمدركة من الداخل خمس :— الحس المشترك ، والخيال ، والمتخيلة أو المفكرة ثم القوة الوهمية ، والحافظة والذاكرة .

فأما الحس المشترك فقوة تقبل جميع الصور المنطبعة فى الحواس متأدية منها إليها . هذا هو تعريف ابن سينا للحس المشترك كما فى كتاب النجاة . وقد جاء برسالة القوى النفسية ما يكشف عن مراده بوجه أجلى . قال :— « الحواس الظاهرة ليس شىء منها يجمع بين إدراك اللون والرائحة واللين . وربما لقينا جسما أصفر وأدركنا منه أنه عسل حلو طيب الرائحة سيال ، ولم نذقه ولا شممناه ولا لمسناه . فبين أن عندنا قوة اجتمعت فيها إدراكات الحواس الأربع [1] ، وصارت جملتها عندها صورة واحدة . ولولاها لما عرفنا أن الحلاوة مثلا غير السواد . إذ المميز بين شيئين هو الذى عرفهما جميعا . وهذه

---

(١) ولو قال الخمس لم يجانب الصواب . فان إدراكنا أنه عسل ناشىء من اقتران الاحساس السمعى للصوت « عسل » بالاحساسات الأربعة الأخرى .

القوة هى الموسومة بالحس المشترك وبالمتصورة » . يعنى أن الحس المشترك يطلق على الحالة النفسية التى فيها يحيى فى النفس إحساس حاضر آثار إحساسات مضت . يطلق على الحالة النفسية الناشئة من ارتباط خواطر انفعالية بخواطر استحضارية . وإذا يكون الحس المشترك هو المعروف لدينا باسم الإدراك الحسى.

وأما الخيال أو المصورة فقوة تحفظ ماقبله الحس المشترك من الصور . وبفضله تبقى فى النفس بعد زوال المحسوسات . وإذاً يكون للحس المشترك قوة قبول المحسوسات وليس له قوة حفظها ، ومثله مثل الماء له قوة قبول النقش ، وليس له قوة حفظه .

والخيال أو المصورة ، على مقتضى ما فسره ابن سينا ، نوع من الحافظة عندنا لا قسيم لها كما هو مذهبه .

وأما المتخيلة فقوة من شأنها أن تركب بعض ما فى الخيال مع بعض وتفصل بعضه عن بعض بحسب الاختيار .

وأما المتوهمة — وتسمى الوهمية والظانة والوهم [1] — فقوة فى الحيوان تحكم على الشىء بأنه كذا أو ليس كذا . وبها يهرب الحيوان من المحذور ، ويقصد المختار . مثل حكم الشاة على الذئب بأنه عدو ينبغى الهرب منه ، وحكمها على ولدها أنه حبيب ولىّ يعطف عليه .

ويمكنك أن تأخذ من تعريف ماسماه ابن سينا بالمتوهمة ، ومما ذكر لعملها من الأمثلة . أنها مرادفة لما نسميه نحن بقوة الحكم أو بالتصديق أو بإدراك النسب .

وأما الحافظة فقوة تحفظ ما تدركه المتوهمة فنسبة الحافظة إلى المتوهمة كنسبة الخيال إلى الحس المشترك

وارتاب ابن سينا فى الحافظة هل هى والذاكرة قوة واحدة . فقد قال فى القانون : « وهنا موضع نظر حكمى فى أنه هل القوة الحافظة والمتذكرة

---

(١) ليس الوهم هنا بمعنى الغلط والسهو

المسترجعة لما غاب عن الحفظ من مخزونات الوهم ، قوة واحدة أم قوتان ؟ »

وليت شعرى لم يرتاب ابن سينا والأمر بين فى أن الحافظة غير الذاكرة كما يؤخذ من تعريفه الحافظة ، ومن صيغة ارتيابه . أو ليست القوة التى تحفظ ما تدركه المتوهمة ، غير القوة المسترجعة لما غاب عن الوعى من مخزونات الوهم ؟

والقوى الإنسانية ثنتان : عاملة وعالمة . فأما العاملة — وتسمى بالعقل العملى — فقوة ذات سلطان على بدن الإنسان بها يقوم بأعمال الروية والتفكير التى تميزه — مع سواها — عن سائر الحيوان

وتختلف وظائفها باختلاف جهات النظر . فوظيفتها من حيث علاقتها بالقوة النزوعية فى الانسان أن تهيئه لتصدر عنه أفعال وانفعالات تخصه دون سائر الحيوان ، مثل الضحك والبكاء والخجل والحياء .

ومن وظائفها من حيث علاقتها بالمتخيلة والمتوهمة استنباط الصناعات الإنسانية .

ووظيفتها من حيث علاقتها بالقوة العالمة إدراك الآراء الذائعة المشهورة مثل أن الكذب رذيلة والصدق فضيلة ، وأن العدل حسن والظلم قبيح .

والقوة العاملة إن سادت القوى الحيوانية فنفذت فيها إشارة القوة العالمة نشأت النفس على الفضيلة . وإلا ، نشأت على الرذيلة .

وأما القوة العالمة — وتسمى العقل النظرى — فشأنها إدراك الصور الكلية المجردة عن المادة . فإن كانت مجردة بذاتها ، فذاك . وإن لم تكن فإنها مجردة بتجريدها إياها حتى لا يبقى فيها من علائق المادة شىء .

وهى قسمان : عقل بالقوة وعقل مستفاد . فأما العقل بالقوة فثلاثة أقسام : (١) عقل هيولانى (٢) عقل بالملكة (٣) عقل بالفعل . فيكون العقل هيولانيا إذا كانت النفس الإنسانية لم تقبل بعد شيئا من الكمال اللائق بها . ويكون عقلا بالملكة إذا أدركت البديهيات التى تحصل لها بإلهام إلهى من غير

تعلم ولا استفادة من الحواس مثل الكل أعظم من الجزء، والنقيضان لا يجتمعان، والكل يساوى مجموع أجزائه. ويكون عقلا بالفعل إذا كسب العلوم النظرية. ولكنه ليس يطالعها. بل كأنها مخزونة لديه. ومتى شاء عقلها. وهذا هو الفرق بين العقل بالفعل والعقل المستفاد. فإن العقل يسمى مستفادا إذا كانت الصورة المعقولة حاضرة فيه وهو يطالعها بالفعل. ونظيره الفرق بين قوة الكاتب المستكمل للصناعة إذا كان لا يكتب، وقوته وهو متلبس بالكتابة.

وبين أن العقل البشرى لدى العامة يحتاج فى انتقاله من المرتبة الثانية (العقل بالملكة) إلى المرتبة الثالثة (العقل بالفعل) إلى كثير من التجربة والتخريج والتعليم

وقد يؤتى الله من يصطفى من عباده من اليقظة العقلية وقوة الاستعداد مالا يحتاجون معه، فى الارتقاء من عقل الملكة إلى عقل الفعل، إلى تخريج أو تعليم، وما يغنيهم عند استنباط الأحكام عن الفزع إلى الروية والقياس المنطقى. وإنما يكفون مؤنة ذلك بالوحى والإلهام

تلك مرتبة العقل القدسى. ولا يحظى به إلا من اجتباهم ربهم للنبوة والرسالة عليهم الصلاة والسلام .

(ب) فى التربية: — برسالة السياسة لابن سينا فصل فى تدبير الرجل ولده. وقد تضمن فى التربية آراء قيمة وأفكارا سديدة ونصائح ثمينة، ونفائس غالية، فى لغة سامية وأسلوب ممتع. جاء فى بدئه: — «أن من حق الولد على والديه حسن تسميته، ثم اختيار ظئره كيلا تكون حمقاء ولا ورهاء (١) ولا ذات عاهة. فإن اللبن يعدى

«فإذا فطم الصبى عن الرضاع، بدىء بتأديبه ورياضة أخلاقه قبل أن تهجم عليه الأخلاق اللئيمة، وتفاجئه الشيم الذميمه. فإن الصبى تتبادر إليه مساوى الأخلاق، فما تمكن منه من ذلك غلب عليه، فلم يستطع له مفارقة ولا عنه نزوعا»

---

(١) سيئة الرأى

ثم تلا هذا البحوث المبينة رءوسها فى الجدول الآتى . وهى فيه مرتبة ترتيبها فى رسالة السياسة . وكان يصح أن نذكرها هنا بنصها وألا نكتفى ببيان صفحات هذا الكتاب التى جاءت بها تلك النصوص . لكنا آثرنا الأخرى على الأولى لأمرين . الأول خشية التكرار . الثانى أن تلك النصوص مذكورة فى مواضعها من الكتاب لمناسبات نحب أن يعرفها القارىء . وقد يكون معها ملاحظات يحسن به الوقوف عليها ، أو آراء لسوى ابن سينا من المربين من العرب يوازن بينها وبينها. ومن يرد فصل سياسة الولد من رسالة السياسة كاملا مرتبا ، فما عليه إلا يجمع ما تفرق من نصوصه فى هذا الكتاب مرتبة ترتيبها فى الجدول الآتى :—

الموضـــوع	صفحة هذا الكتاب أو صفحاته التى جاء بها
وسائل التربيـة الخلقية من الثواب والعقاب واللين والشدة ، والعقاب البدنى . ومتى يلجأ إليه ومتى يوقع	٩٧
منهج التربية العقلية للصبيان ، والحض على التدرج من السهل إلى الصعب ، وعلى حسن اختيار ما يحفظ الأولاد من الشعر	٤١ — ٤٢
الصفات التى ينبغى أن يتحلى بها مؤدب الصبى	٦٣
مزايا التعليم المدرسى وآثاره فى التربية العقلية والخلقية	٩٧ — ٩٨
اختـلاف مناهج التعليم الثانوى لطلاب الصـناعات والمناصب ، ومواد بعض تلك المناهج	٤٩
الحض على مراعاة استعداد المتعلم ، عند اختيار الطريق الذى يسلكه فى التعلم	٤٩ — ٥٠

وختم الفصل بذكر وسيلة لحمل المتعلم على اتقان صنعته والمهارة فيها - ويؤخذ من ذلك الختام ضمنا أنه كان يرى الغاية من التربية الاستقلال بأعباء الحياة ونفع المجتمع بقيام أفراده بما يحسنون من الأعمال ، ولو كانوا من ذوى اليسار والمال . قال :— « فإذا وغل الصبي فى صناعته بعض الوغول ، فمن التدبير أن يعرض للكسب ، ويحمل على التعيش منها . فإنه يحصل له بذلك منفعتان : إحداهما : إذا ذاق حلاوة الكسب بصناعته وعرف غناها وجداها عظيمين ، لم يضجع[1] فى إحكامها وبلوغ أقصاها . والثانية أنه يعتاد طلب المعيشة قبل أن يستوطىء حال الكفاية . فإنا قلما رأينا من أبناء المياسير من سلم من الركون إلى مال أبيه وما أعد له من الكفاية . فلما عول على ذلك قطعه عن طلب المعيشة بالصناعة ، وعن التحلى بلباس الأدب » .

كوتنليان وابن سينا : لابن سينا فى بعض آرائه التى جاءت برسالته بالسياسة سلف من رجال التربية القديمة : كوتنليان الرومانى الذى عاش بين سنتى ٣٥ و ٩٥ الميلاديتين ، والذى عرف فيما عرف به بكتاب له سماه « تربية الخطيب» ضمنه آراءه فى التربية ، ورسم فيه خطته فى تهذيب النشء . ويعد أول كتاب نظامى تصدى فيه صاحبه لمعالجة مسألة التربية من حيث أغراضها ومناهجها ، وأساليبها وسائر جهاتها . وله فيه آراء فى التربية تضارع آراء ابن سينا فيها . فمنها أنه يرى وجوب الاعتناء بانتخاب المرضع من الصالحات الفصيحات ، حتى يقتبس الطفل من كمالها وحسن بيانها مايشب عليه فى أعماله وأقواله[2] ومنها أنه يرى أن يحفظ الطفل فى سنيه الأولى منتخبا من أقوال الشعراء والحكماء[3] .

وبالكتاب فصل أسهب فيه كوتنليان فى بيان فضل المدرسة على المنزل .

---

(١) لم يقصر (٢) وازن برأى ابن سينا صفحة ١٢٦

(٣) وازن بابن سينا صفحة ٤٢

والسر فى ذلك أن الأسرة كانت منذ القدم أهم معاهد التربية لدى الرومان . وقد أصبح ذلك فيهم من التقاليد الموروثه والعادات المألوفة التى لا يسهل أخذهم بسواها على الرغم من سريان روح الفساد الخلقى فى الأسرة الرومية فى العهد الإمبراطورى

لذلك نرى كوتتليان يتعرض فى كتابه للتنصيص على فضل المدرسة على المنزل ، ويتصدى لدحض مايمكن أن يدعى من المساوى ضد التربية المدرسية ، ويدلى بالحجج المسهبة لإثبات فضلها ببيان محاسنها ، ولو أنا نعد ذلك الآن من فضول القول

وكأن الناس فى زمانه كانوا يشكون كما نشكو نحن الآن من خبث الروح المدرسية ، ويفضلون التعليم الفردى ، لذلك ولظنهم أن حظ التلميذ من عناية المعلم فيه أوفر . ولذلك بدأ هذا الفصل من كتابه بالدفاع عن المدرسة . فبين أن «خبث الروح المدرسية إنما نشأ من انحلال أخلاق الأسر فى العهد الإمبراطورى . فالأولاد فى سنيهم الأولى يعتادون كثيرا من الشرور . وفى المدرسة تظهر تلك الشرور . فهى لم تصبهم بها . وإنما هم نقلوها إليها من المنزل . وإذا فالمعوّل فى الحالين (التربية المنزلية والتربية المدرسية) على حسن القيام على الأطفال وهم بالمنزل فى سنيهم الأولى » . ورأى أنه « ليس من الصواب فى شىء أن نظن الطفل يحظى بعناية أعظم فى التعليم الفردى . فإن أحسن المدرسين مادة وأعظمهم عناية بتلاميذهم إنما يكونون فى الغالب بالمدارس . ومعلم تلميذ واحد لا يجد فى نفسه من القوة والنشاط مايجده معلم الفصل . وسائر الناس كذلك . لانرى لأحاديثهم الخاصة من الفصاحة والروعة مانجده لخطبهم العامة . ثم إن فى المدارس الطيب والخبيث . فعليك حسن اختيار المدرسة لطفلك . فإن فعلت فانتظر أن يحظى من عناية معلميه وهو فى الفصل مع إخوانه بما يحظى به لو كان وحده . فأما أن ترسل ولدك إلى مدرسة خبثت روحها ثم تشكو حال المدارس عامة فليس من السداد فى شىء »

ثم ذكر كوِنتليان، من حسنات التربية المدرسية أن العقول كالنيران، تشعلها مخالطة الأقران؛ وكالمرايا جلاؤها المعاشرة، وما تقتضيه من النقاش والمحاورة. وفى المدرسة يتهيأ من ذلك ما لا يتهيأ فى المنزل. فالعقول فى خلطة المدرسة تذكو وتصقل. أما فى عزلة المنزل فتخمد وتصدأ. والمنعزل فى المنزل عرضة لشر الزهو والإعجاب بالنفس والمغالاة بما فوق قيمتها. لأنه لا يجد معه من يقرن به نفسه. أما بالمدرسة فإنه يجد من أترابه من يفوقه أدبا ومقدرة. وذلك يطامن من جماحه، ويكف من غربه، ويرده إلى التواضع. وأنى للشاب الشارع فى خوض بحر الحياة أن يكتسب ما يعم جميع الناس من الرشد والبصيرة[1]، ما لم يخرج عن عزلة المنزل إلى خلطة المدرسة. ومربى المنزل لا يحصل إلا ما يعلم ولا يتعظ إلا بنفسه. أما مربى المدرسة فيحصل مع هذا ما يعلمه غيره ويعتبر بسواه. والمدرسة تتسع ميادينها لما يضيق عنه المنزل من استثمار كثير من الغرائز كالتقليد والمنافسة وحب الثناء. وصداقة المدرسة تبقى مدى الحياة عقدا مقدسا[2]

ثم إن تربية المدرسة ضرورية لمن سيكون فى النهاية خطيبا. فإنه ستضطره مهنته إلى أن يعيش فى الضح لا فى الكن، وأن يعتور كبير المنتديات وواسع المجتمعات، ويخاطب الجماهير. ويقضى ذلك أن يعتاد من صغره مخالطة الناس، وألا يربى فى عزلة المنزل وانفراده، لئلا ينشأ على الخجل والهيبة والارتباك كلما اتصل بالناس فى مقابلة أو مجالسة أو محادثة. ومن يرب على الخطابة فى المنزل دون المدرسة فتربيته لا محالة ناقصة. فهو كمن ينشأ فى الظلمة متى خرج منها عشى بضوء الشمس. وخليق بمثله أن يكبو جواده فى كل لحظة، وأن يلج به العثار فى كل خطوة. لأنه استعد فى عزلة المنزل وهدوئه لما لا يقوم به

---

(١) Common sense

(٢) وازن برأى ابن سينا فى مزايا التعليم المدرسى (ص ٩٨)

إلا فى هائج المجتمعات ومائج المنتديات »

٣ — إخوان الصفاء

من هم : إخوان الصفاء هم أرباب الرسائل المشهورة المنسوبة إليهم . وهم طائفة من فلاسفة الإسلام ، ألفوا جمعية سرية فى القرن الرابع الهجرى لدارسة الفلسفة ونشرها بين الناس . وقد كتموا أمرهم فلم يعرف عنهم إلا رسائلهم وأنهم نشئوا بالبصرة ، وأنه كان لهم فرع ببغداد .

رسائلهم : — دوّن إخوان الصفاء فلسفتهم فى إحدى وخمسين رسالة سموها باسم جماعتهم . وهى دئرة معارف فلسفية علمية ، تعرضت لكل ما كان معروفا من العلوم والفنون للأمم الإسلامية فى تلك الأيام . فأخذت من كل بطارف ، وذكرت « فى كل علم شبه المقدمة والمدخل إلى مافيه ليكون تحريضا على التمييز فيه والشوق إليه لأنه بالشوق إلى شىء يكون الحرص عليه » (١)

وهى أربعة أجزاء لكل منها فهرس مبين بحوثه وموضوعاته . فالجزء الأول فى الرياضة والصناعات والمنطق . والثانى فى الطبيعيات . فيه تعريف الهيولى والصورة والزمان والمكان والحركة ، ثم بحوث فى السموات والأفلاك ، ثم كلام فى المعادن والنبات والحيوان والإنسان والنفس . والثالث فى باقى بحوث النفس ومعنى الحياة والموت واللذة والألم وأنواعهما ، وفى بحوث فى اللغات وعلل اختلافها ، وفى النشوء والارتقاء ، وفى السمعيات كالبعث والقيامة . والرابع فى الإلهيات ومايتصل بالديانات والشرائع والتصوف .

ولرسائل إخوان الصفاء مزايا : منها أنها جمعت ماتفرق فى سواها من كتب الحكمة . فاقتناؤها وحدها قد يغنى عن اقتناء كثير غيرها . ومنها فهارسها المطولة التى تعين الباحث بتفصيلها فى العثور على مايطلب منها . وأهم مزاياها

---

(١) فيما خط تحته إشارة إلى مبدأ قيم من مبادى التربية الحديثة

سهولتها على المبتدئين لتخير ألفاظها وأساليبها مما يدركه جمهرة الناس ، ولاشتمالها على أنواع من التشبيه والأمثلة تعين على درك المقاصد الفلسفية . وإذاً تكون البداءة بدرسها قبل دراسة فلسفة الحكماء الآخرين أمثال الفارابى وابن سينا مما يساعد كثيراً على تيسير ما بهذه من العسر الفلسفى الذى كثيرا مازهد الناس فى الفلسفة القديمة .

وبالمكتبة الملكية كتاب اسمه « خلاصة الوفاء فى اختصار رسائل إخوان الصفاء » اشتمل على زبدة تلك الرسائل وخلاصة أهم موادها ، وهو مرتب على غير ترتيبها . وترتيبه أجود لأنه ابتدأ بالكلام على مبادىء الموجودات وأصول الكائنات . ثم تدرج فى ترتيب البحوث تدرجا طبيعيا . أما ترتيب الرسائل نفسها فقد روعى فيه ترتيب المذاهب الفلسفية اليونانية القديمة الأقدم فالأقدم . فبدىء بفلسفة فيثاغورس ، وتلاها فلسفة أفلاطون ففلسفة أرسطو .

والخلاصة المذكورة مطبوعة ببرلين سنة ١٨٨٦ بعناية المستشرق الألمانى فردريك ديتريصى . ويدل ذلك على عناية الفرنجة برسائل إخوان الصفاء ، كما يدل على غنائها فى نظرهم أن المستشرق المذكور له كتاب فى الفلسفة العربية فى ثمانية أجزاء عماده فيه تلك الرسائل . وكان السابق إلى العناية بإخوان الصفاء تاريخهم ورسائلهم وفلسفتهم ، المستشرق الفرنسى «سلفستردى ساسى[١]» . ثم تلاه «فلوجل» و «ديتريصى» و «باربييه دومينار»

---

(١) هو انطون اسحاق بارون سلفستردى ساسى

Antoine Isaac, Baron Silvestre De Saçy

وهو مؤسس مدرسة المستشرقين الحديثة . ولد بباريس سنة ١٧٥٨ وتعلم اللغات السامية الهامة واللغة الفارسية . وعرف التركية . وكسب الشهرة كمستشرق بما نشر من البحوث الشرقية بالصحف السيارة . كان موظف حكومة . ثم اعتزل الخدمة

الفرنسي رئيس تحرير المجلة الأسيوية

آراؤهم في التربية : إنما يهمنا الآن أن نعرف نماذج من آرائهم في التربية والتعليم ، غاياتهما وموادهما وطرقهما .

فهم يرون أنه ينبغي أن تكون الغاية من التربية دينية ، وأن «كل علم وبال على صاحبه ما لم يرد به وجه الله ولم تطلب به الآخرة »[1] . لكنهم يعترفون بأن للتربية فوائد اجتماعية ومادية وخلقية ، ولا يمانعون في أن «العلم يكسب صاحبه الشرف وإن كان دنيئا ، والعز وإن كان مهينا ، والغنى وإن كان فقيرا ، والقوة وإن كان ضعيفا ، والنبل وإن كان حقيراً ، والقرب وإن كان بعيدا ، والقدر وإن كان ناقصا ، والجود وإن كان بخيلا ، والحياء وإن كان صلفا ، والمهابة وإن كان وضيعا ، والسلامة وإن كان سقيما»[2] .

ويرون وجوب السير في التعليم من المحسوس إلى المعقول . وقد قدمنا لك من أقوالهم ما يفيد ذلك (ص ٨٤)

ويرون أن تشمل مناهج التربية العالية «علم النفس والعقل والمعقول والحاس والمحسوس والعلة والمعلول والبحث والنظر في أسرار الكتب الإلهية والتنزيلات النبوية ومعاني ما تتضمنه من موضوعات الشريعة ، والعلوم والرياضيات أعني العدد والهندسة والتنجيم . وأما أكثر العناية فينبغي أن تكون في البحث عن العلوم الإلهية التي هي الغرض الأقصى»

مؤثرا التوفر على درس الشرقيات . فترجم كتبا من الفارسية . وكان في أوائل القرن التاسع عشر رئيس معهد اللغات الشرقية وأستاذ الفارسية به . وهو مؤسس الجمعية الأسيوية . وكان لها رئيسا . ومن مؤلفاته « قواعد العربية» . وهو كتاب ذو جزأين . وقد ساعد مع سواه من مؤلفاته على تخريج كثير من نجباء المستشرقين العلماء بالعربية . توفي بباريس سنة ١٨٣٨ م .

(١) الرسائل ج ١ ص ٢٧٣

(٢) الرسائل ج ١ ص ٢٧٢

ويرون أنه لابد فى التعليم من «أمثال تضرب ليتقرب من فهم المبتدىء النظر فى العلوم وتسهل تصور الحقائق للمتأملين» . وقد وفوا لهذا المبدأ فى رسائلهم إذ ذللوا الصعوبات الفلسفية بضرب الأمثال وضروب التشبيه .

وبسطوا فى رسائلهم طريقة تعليم الخط قالوا : «ينبغى لمن يريد أن يكون خطه جيدا وكتابته صحيحة أن يجعل لها أصلا يبنى عليه حروفه ، وقانونا يقيس عليه خطوطه . والمثال فى ذلك فى كتابة العربية هو أن يخط الألف أولا بأى قدر شاء ويجعل غلظه مناسبا لطوله وهو الثمن . وأسفله أدق من أعلاه ، ثم يجعل الألف قطر دائرة ، ثم يبنى سائر الحروف مناسبا لطول الألف ولمحيط الدائرة التى الألف مساو لقطرها ، وهوأن يجعل الباءوالتاء والثاء كل واحد منها طوله مساو لطول الألف وتكون رءوسها إلى فوق الثمن . ثم يجعل الجيم والحاء والخاء كل واحد منها مدته من فوق نصف الألف ؛ وتقويسه من أسفل نصف محيط الدائرة التى الألف مساو لقطرها . ثم يجعل الدال والذال كل واحد منهما مثل طول الألف إذاقوس» . وهكذا استمروا ينسبون سائر الحروف الهجائية إلى الألف حتى الياء .

وهم يرون «أن قبول الصبيان تعلم الصنائع يختلف بحسب طبائعهم المختلفة ؛ واختلاف طباعهم بحسب مواليدهم . . . من الناس من هو مطبوع على تعلم صناعة واحدة أو عدة صنائع بسهولة فى قبولها ، حتى إن كثيرا من الناس من يتعلم صناعة بجودة قريحته إذا رأى أهل تلك الصناعة فى أعمالهم بأدنى تأمل كأنه قد وقف عليها . ومنهم من يحتاج إلى توقيف شديد وحث دائم وترغيب ، وربما لا يفلح فيها إذا لم يكن فيها موافقا للطبيعة وما أوجبه له مولده . ومن الناس من لا يتعلم الصناعة ألبته ، ويكون فارغا خلوا منها جميعا . والسبب فى ذلك أن الصناعة لاتأتى للمولود إلا بدلالة كوكب متولّ البرج العاشر من طالعه . وذلك أنه إذا استولى عليه من أحد

الكواكب الثلاثة واحد ، فلا بد من صنعة يتعلمها : وهى المريخ والزهرة وعطارد : وذلك أن كل صنعة فلا بد لها من حركة ونشاط وحذق فالحركة للمريخ والنشاط للزهرة والحذق لعطارد . وأربعة منها إذا انفرد أحدها بالدلالة ، فلا يعطى الصنعة ، ولكن يدل على مايشاكله من الأعمال . وهى الشمس وزحل والمشترى والقمر . وذلك أن من استولى فى مولده على الدرجة العاشرة من الشمس ، فهو لا يتعلم الصناعة لكبر نفسه مثل أولاد الملوك . وأما من استولى عليه المشترى ، فهو لا يتعلم ولا يعمل لزهده وورعه ورضاه بقليل من أمور الدنيا وإقباله على طلب الآخرة : مثل الأنبياء عليهم السلام ومن يقتدى بهم . وأما من استولى عليه زحل ، فإنه لا يعمل ولا يتعلم لكسله وثقل طبيعته عن الحركة ، ويرضى بالذل والهوان فى طلب معاشه كالمكدين والسؤال . وأما من استولى عليه القمر فإنه لا يعمل من أجل مهانته واسترخاء طبيعته وقلة فهمه مثل النساء وأمثالهن من الرجال»[1]

هذا رأيهم . فأما اختلاف الطباع والاستعداد فتوافق عليه التربية الحديثة . وأما ارتباط ذلك بالطالع فحديث خرافة وادعاء لا يذعن له عقل صحيح . وكذلك سوء ظنهم بالنساء ورميهن جميعا بلا تفرقة بالمهانة واسترخاء الطبيعة ، أمر لا يصدقه العقل ويكذبه الواقع .

ويرون «أن صناعة الآباء والأجداد أنجع فى الأولاد من صناعة الغرباء إذ يكونون فيها أحذق وأنجب» . وربما كان لهذا وجه من القبول ، وإذا كان ذلك ، فإنما يكون من تأثير البيئة . وربما كان للوراثة فيه شيء من الأثر .

ويرون «أخلاق الناس وطبائعهم تختلف من أربعة وجوه ، أحدها من جهة أخلاط أجسادهم ومزاج أخلاطها . والثانى من جهة تربة بلدانهم واختلاف أهويتها . والثالث من جهة نشوئهم على ديانات آبائهم ومعلميهم

---

(١) فصل فى قابلية الانسان الصنعة ج ١ ص ٢٢١

وأستاذيهم ومن يربيهم ويؤدبهم . والرابع من جهة موجبات أحكام النجوم فى أصول مواليدهم . . وهى الأصل وباقيها فروع لها» [1] . ونحن نوافق على اعتبار العوامل الثلاثة الأولى فى اختلاف الاخلاق والطباع . و لا يسعنا الموافقة على اعتبار الرابع لاأصلا ولافرعا

ويرون واجبا على المرء «التواضع لمن يتعلم منه ، والتعظيم له ، ومعرفة حقه وحرمته ، والرفق بمن يعلمه والشفقة عليه وقلة الضجر من إبطاء فهمه وحفظه ، وترك ضيق الصدر من تلقينه ، وقلة الطمع فى أخذ العوض منه ، وقلة المنة عليه بما يعلمه»

ويرون «طالب العلم يحتاج إلى سبع خصال : السؤال والصمت ثم الاستماع ثم التفكر ، ثم العمل به ، ثم طلب الصدق من نفسه ، ثم كثرة الذكر أنه من نعم الله ، ثم ترك الإعجاب بما يحسنه»

« وللعلماء » ، فى نظرهم الصائب ، « آفات وعيوب وأخلاق رذيئة تحتاج أن تتجنبها : منها الكبر والعجب والافتخار . وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم «من ازداد علما ولم يزدد لله تواضعا ، وللجهال رحمة ، وللعلماء مودة ، لم يزدد من الله إلا بعدا » . ومنها كثرة الخلاف والمنازعة فيه ، وطلب الرياسة به والتعصب والعداوة والبغضاء فيما بينهم . . . ومنها الخوض فى المشكلات والترخيص فى الشبهات ، وترك العمل بموجبات العلم . ومنها كثرة الرغبة فى الدنيا وشدة الحرص فى طلبها . فالحرص فى طلبها مرض . والعلماء أطباء النفوس . فالعالم الراغب فى الدنيا الحريص على طاب شهواتها كالطبيب المداوى غيره وهو مريض لايرجى صلاحه ، فكيف يشفى المريض بعلاجه »

المراجع : رسائل إخوان الصفاء . وهى مطبوعة طبعة حديثة بمقد متين فى التعريف بهم إحداهما للدكتور طه حسين والأخرى للبحاثة أحمد زكى باشا

---

(1) فصل فى وجوه اختلاف الأخلاق ج ١ ص ٢٢٩

٤ — الغــــزالى(١)

من هو : هو محمـد بن محمد بن أحمـد الغزالى . ويكنى أباحامد . ولد سنة ٤٥٠ ﻫ فى طوس (٢)

تلميذ الراذكانى (٣) : توفى أبوهوهوغلام . فأقام فى بيت أحمد الراذكانى الصوفى الفقيه . وكان لأبيه صديقا . فتلقى عليه مبادىء العلوم اللسانية والدينية

بنيسابور : — كان — رحمه الله — منذ حداثته فطنا محبا للتوسع فى العلم فلم يقنع بمـا كان منه بطوس وماحولها من القرى . وكانت نيسابور أقرب المدن الحافلة بالعلماء والفقهاء ، إلى بلده . فانتقل إليها لينهل من معارفها .

تلميـذ الجوينى : — لمـا حل بنيسابور قصد الجوينى الذى كان له بالمدرسة النظامية المحراب والمنبر والخطابة والتدريس ومجلس التذكير غير مدافـع ولامنازع . فانتظم فى سلك طلبته ، وتفقه عليه . وقد أظهر من الذكاء ماجعل أستاذه يعجب به ويفاخر أصحابه .

فقيه النظامية بيغداد : مازال الغزالىّ ملازما إمام الحرمين حتى توفى سنة ٤٧٧ ﻫ . ثم خرج من نيسابور إلى محلة قريبة منها تسمى العسكر . وكان يقيم بها نظام الملك . فرحب به وقربه إليه وبالغ فى الاقبال عليه ، لمـا سمع من الثناء على عقله وعلمه . وقد صدق الخبر الخبر . فقد كان نظام الملك يعقد المجالس

---

(١) الغزالى تخفف زايه — وهو المتداول على ألسنتنا — وتشد . قال فى وفيات الأعيان : — (الغزالى بتشـديد الزاى ، نسـبة إلى الغزال على عادة أهل خوارزم وجرجان . فانهم ينسبون إلى القصار القصارى ، والى العطار العطارى . وقيل : — « هى مخففة ، نسبة إلى غزالة وهى قرية من قرى طوس » . وهو خلاف المشهور ولـكن هـكذا قاله السمعانى فى كتاب الانساب)

(٢) طوس ناحية بخراسان بهـا مدينتان : الطابران (بفتح الباء) ونوقان (بفتح النون) ، وقرى كثيرة .

(٣) نسبة إلى راذكان (بفتح الذال) من قرى طوس

يقصدها العلماء والفقهاء للمناظرة . فحضر الغزالى بعض مجالسهم . وجادلهم فظهر عليهم . فازداد إعجاب نظام الملك به ، وبعلمه وقوة عارضته . ففوض إليه التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد سنة ٤٨٤ ﻫ

حجة الإسلام : — قضى الغزالى فى المدرسة النظامية أربع سنوات يعلم ويخطب . واطلع فى أثناء ذلك على كتب الفلسفة للكندى والفارابى وابن سينا وغيرهم . فوجد فيها مايخالف ظاهره قواعد الدين . فعمد إلى دراستها دراسة دقيقة . فشغله ذلك عن منصبه بالنظامية . فاعتزله سنة ٤٨٨ ليتفرغ لبحث المسائل الفلسفية ليكون أقوى على الردّ على مايخالف منها أصول الدين

. فقضى عشرة أعوام جوّاب آفاق . ذهب إلى بلاد الحجاز ثم فلسطين ثم سورية ، وهو يطالع ويباحث ويناظر . وبعد الدرس الطويل والفحص الدقيق ، تبين له أن الفلاسفة على ضلال . ورأى واجبا عليه الدفاع عن الدين . فحمل عليهم حملة صادقة . فألف الكتب وعلم وناظر وباحث ، فظهرت قوته فى الدفاع عن الدين بالأدلة الفلسفية . وحارب الفلاسفة بسلاحهم ، وجادلهم ببراهينهم . فسمى من أجل ذلك حجة الإسلام .

تهافت الفلاسفة : — له — أعلى الله مكانته — فى الرد على الفلاسفة كتب كثيرة أهمها « تهافت الفلاسفة » قال فى مقدمته أنه « رأى طائفة من الفضلاء ضلوا عن الدين . ومصدر كفرهم سماعهم أسامى هائلة كسقراط وبقراط وأفلاطون وأرسطو وأمثالهم ، وإطناب متبعيهم فى وصف عقولهم وحسن أحوالهم ودقة علومهم . فأحبوا التجمل باعتقاد الكفر تحيزا إلى غمار الفضلاء بزعمهم ، وانخراطا فى سلكهم وترفعا عن مساعدة الجماهير ، واستنكافا من القناعة بأديان الآباء » ؛ وأنه أحب أن يبين وجه الصواب بالبرهان العقلى والطبيعى . فقسم مايخالف به الفلاسفة سواهم من رجال الدين إلى مقبول وغير مقبول . فمن المقبول تعليلهم الحوادث الطبيعية بأسباب طبيعية محسوسة

كالخسوف والكسوف وغيرهما مما هو مبنى على العلوم الرياضية والطبيعية.

وقد أنصفهم الغزالى فى ذلك، إذ قال : — « من ظن أن المناظرة فى إبطال هذا التعليل، من الدين، فقد جنى على الدين وضعف أمره. فإن هذه الأمور تقوم عليها براهين هندسية وحسابية لاتبقى معها ريبة. فمن يطلع عليها ويتحقق أدلتها حتى يخبر بسببها عن وقت الكسوفين وقدرهما ومدة بقائهما إلى الانجلاء، إذا قيل له إن هذا على خلاف الشرع، لم يسترب فيها. وإنما يستريب فى الشرع. وضرر الشرع ممن ينصره لابطريقه، أكثر من ضرره ممن يطعن فيه بطريقه. وهو كما قيل : عدو عاقل خير من صديق جاهل »

ومن غير المقبول قولهم إن العالم أزلى، وأنه تعالى لايعلم الجزئيات، وإنكارهم البعث وحشر الأجساد والتلذذ والتألم فى الجنة والنار باللذات والآلام الجسمية. وقد ردّ عليهم فى ذلك رد منصف راسخ فى العلم غيور على الدين. جزاه الله تعالى عن الاسلام وأهله خير الجزاء.

آراؤه فى التربية : للغزالى كتاب « إحياء علوم الدين » وقد ضمنه آراءه فى التربية ومايتعلق بها. وقد اقتبسنا طائفة منها فى بحوث متفرقة من هذا الكتاب. ولك أن ترجع إليها فى مواضعها مستعينا بالجدول الآتى : —

أمنيـة لم تحقق : — بلغ الغزالى وهو يجوب الآفاق على الوجه الذى أشرنا إليه ، أن يوسف بن تاشفين صاحب مراكش يحب العلماء الذين يذبون عن الدين . فهم بالسفر إليه ليستنصره ضد الفلسفة والفلاسفة . لكنه بلغه خبر وفاته وهو بمصر . فعاد إلى طوس .

مدرّس بنيسابور : بعد أن أقام الغزالى بطوس مدة طلب إليه أن يقوم بالتدريس بنيسابور . فأجاب على كره منه . من ثمّ لم يلبث أن عاد إلى طوس تاركا التدريس .

الخاتمة : — عاش الغزالى مابقى له من الحياة الدنيا عيشة الصوفية فاتخذ خانقاه ومدرسة للمشتغلين بالعلم فى جواره . ووزع أوقاته على وظائف الخير من تلاوة القرآن ومجالسة المريدين والتدريس ، حتى توفى سنة ٥٠٥ ﻫ بالطابران قصبة طوس

٥ — ابن خلدون

التعريف به : من الناس من فيهم اعتداد بأنفسهم . وتتجلى فيهم تلك الصفة فى مظاهر شتى . منها أنهم يعدّون قيما مايعدّه سواهم تافها من حوادث حياتهم وتصرفاتهم فى مختلف شئونهم فيها . وتظهر ثمرة ذلك فى عنايتهم بتدوين تاريخ مفصل لحياتهم . فبينا ترى عامة الناس الذين لايعتدّون بأنفسهم تمرّ بهم حوادث حياتهم غير آبهين لها ولا واجدين فيها مايستأهل أن يدوّن ، إذ بأفذاذ الرجال لهم كتب تعريف بأنفسهم لاتغادر صغيرة ولا كبيرة من تجاربهم إلا أحصتها .

فمن هؤلاء ابن خلدون . فله كتاب قصّ فيه علينا تاريخا مفصلا لحياته منذ نشأته حتى قبيل وفاته . سماه كتاب التعريف بابن خلدون . وهو بدار الكتب الملكية تحت رقم ١٠٩ تاريخ . ومنه نسخة متداولة مطبوعة فى نهاية مؤلفه فى التاريخ « كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، فى أيام العرب والعجم

والبربر ». لكن النسخة التى تحتفظ بها دار الكتب كاملة. فالمتداولة تقص أخباره حتى مستهل سنة ٧٩٧ هـ على حين تصل بنا نسخة دار الكتب فى روايتها إلى ختام سنة ٨٠٧ هـ أى قبل وفاته بضعة شهور. هذا إلى أن هذه أتم وأوفى فى رواية الحوادث التى عرضت لها كلتا النسختين.

أصله : أصل ابن خلدون ، كما روى النسابة الأندلسى ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٧ هـ، عربىّ يمانى حضرمى. نزح بيته إلى الحجاز فكان لوائل بن حجر [1] من أجداده صحبة به صلى الله عليه وآله وسلم ، ورواية عنه. له ٧١ حديثا. ثم رحلوا إلى الغرب فدخلوا الأندلس أيام فتحها فيمن دخلها من جنود المسلمين. وقد استوطنوا قرمونة. ثم رحلوا عنها إلى أشبيلية. وقد عرفوا بالأندلس ببنى خلدون ، نسبة إلى خلدون — وهو فى الأصل خالد — ثامن أجداد المؤرخ. لأنه ولىّ الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد ابن الحسن بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون. وإنما نسبوا إلى « خلدون » لأنه أول من دخل منهم الأندلس مع الغزاة الفاتحين.

ولم يعرف بنو خلدون فى تاريخ الأندلس إلا فى أواخر القرن الثالث الهجرى أيام الأمير عبدالله بن محمد الأموى (٢٧٤ — ٣٠٠ هـ) إذ اضطرمت الأندلس بالفتن وثار معظم النواحى. وكانت أشبيلية فى مقدمة المدن الثائرة. وقد دخل بنو خلدون مع من دخل فى المغامرات السياسية. فكان منهم زعماء للثورة ، التى كانت نتيجتها أن استقل كريب [2] بن خلدون بإمارة أشبيلية. لكنه لم يلبث أن قتل. وبقى بنو خلدون بأشبيلية بلا زعامة ولا رياسة ، حتى إذا كان عهد الطوائف عاد لهم مجدهم ورقوا إلى مراتب الرياسة والوزارة فى دولة بنى عباد. ويظهر أنه لما دالت دول الطوائف واستولى المرابطون على الأندلس ، لم يبق ما كان لبنى خلدون من الجاه والسلطان ، حتى إذا قام

---

(١) حجر (كقفل)   (٢) كريب (كزبير)

الموحدون بالمغرب وانتزعوا الأندلس من المرابطين ، وولى بنو أبى حفص أشبيلية وغرب الأندلس ، اتصلوا بهؤلاء واستفادوا بعض ما كان لهم من العز والسيطرة

وفى سنة ٦٢٠ ﻫ نزح الحفصيون إلى بلاد البربر حيث دعوا لأنفسهم ضد الموحدين . وتبعهم بنو خلدون . فأكرموا وفادتهم ، وعطفوا عليهم ، فبقوا ينعمون بالجاه والسعة . وولى الجدّ الثانى لابن خلدون شئون الدولة الحفصية بتونس . ومازال على ذلك حتى قتله ابن أبى عمارة من الخوارج على بنى حفص . وولى جدّه الأول شئون الحجابة لحاكم بجاية من الحفصيين . وبقى على ذلك بعد مقتل أبيه . فخاض غمار المعارك التى نشبت بين بنى حفص والخوارج عليهم وبقى فى كنف بنى حفص ممتعا بالجاه والسلطان حتى سنة ٧١١ ﻫ إذ غلب الحفصيون على أمرهم بتونس وانتزعها منهم الأمير أبو يحيى اللحيانى زعيم الموحدين . وقد قربه هذا إليه وولاه حجابته . فبقى على مكانته ونفوذه فى الدولة حتى توفى سنة ٧٣٧ ﻫ

أما أبو المؤرخ ، فزهد فى السياسة ، وآثر الدرس والعلم . فبرّز فى الفقه وعلوم اللغة ونظم الشعر . وتوفى سنة ٧٤٩ ﻫ

وإذاً فقد كان ابن خلدون من أسرة نابهة ذات مجد مؤثل ، ومن بيت علم ورياسة .

نشأته ومغامراته : ولد ابن خلدون بتونس سنة ٧٣٢ ﻫ . ولما بلغ سن التعلم كان أبوه معلمه الأول . قرأ عليه القرآن وحفظه وتفقه فى القراءات السبع وكانت تونس إذ ذاك مركز العلماء والأدباء فى بلاد المغرب . وكانت منزل رهط من علماء الأندلس الذين شتتهم الحوادث أو ضاق بهم الوطن . فكان من هؤلاء وأولئك أساتذته ومعلموه . درس عليهم العلوم الشرعية من تفسير وحديث وفقه ، والعلوم اللسانية كاللغة والنحو ، والعلوم الفلسفية وبخاصة المنطق الذى

أبدى فيه تفوقا عظيما . فحظى بإعجاب أساتيذه ونال إجازاتهم .

وفى سنتى ٧٤٩ و ٧٥٠ الهجريتين جد أمران كان لهما أثر فى مجرى حياة ابن خلدون . أما الأول فحادث الطاعون الجارف الذى طمّ وعمّ والذى طاف الدنيا بأسرها شرقيها وغربيها إسلاميها ومسيحيها . وباء كان نكبة وصفها ابن خلدون نفسه بأنها « طوت البساط بما فيه » . وفيها « ذهب الأعيان والصدور وجميع المشيخة . وهلك أبواى رحمهما الله » فاستوحش ابن خلدون لذلك أيما استيحاش . وصعب عليه البقاء بتونس والاستمرار على الدرس فيها . وأما الثانى فهجرة معظم المفكرين والأدباء الذين كانوا بتونس من شيوخه وأقرانه ، إلى المغرب الأقصى مع سلطانه أبى الحسن صاحب دولة بنى مرين . ذلك السلطان ولى عرش فاس والمغرب الأقصى سنة ٧٣١ ﻫ . وكان منذ تولى ملك بنى مرين يعمل على توسيع رقعته . فغزا جبل طارق وانتزعها من أيدى النصارى . ثم زحف شرقا فاستولى على تلمسان وسائر المغرب الأوسط الذى كان بأيدى بنى عبد الواد . ثم استولى على تونس سنة ٧٤٨ ﻫ ولبث فيها عامين يوطد شئونها . ثم غادرها سنة ٧٥٠ ﻫ إلى المغرب الأقصى .

بذلك امتد سلطان بنى مرين على معظم بلاد المغرب أقصاها وأوسطها وأدناها فكانت لهم الغلبة فيها غير مدافعين .

وكان العلماء والأدباء دوما يلوذون بالدولة الغالبة ويؤثرون العيش فى ظل الدولة القوية الظافرة ، ويلتفون حول سلاطينها ، طموحا إلى اجتناء الجاه العريض والرزق الواسع فى كنفها . لذلك آثر علماء تونس وأدباؤها الذين أفلتوا من الوباء الجارف ، أن يلتفوا حول سلاطين بنى مرين . فلما غادر السلطان أبو الحسن تونس إلى المغرب الأقصى سنة ٧٥٠ ﻫ ، غادرها فى ركبه فيمن غادرها فيه من العلماء والأدباء ، معظم شيوخ ابن خلدون وأقرانه

وكانت هذه الأمنية تجيش بصدر ابن خلدون، لما كره من الإقامة بتونس للأمرين اللذين فصلنا : فعول على النزوح إلى المغرب الأقصى لولا أن صرفه عن ذلك محمد أخوه الأكبر . رضى ابن خلدون بالبقاء بتونس وقنع من تحقيق أمانيه فى المناصب العالية المناسبة لمقامه ومقام أسرته العريقة فى الزعامة والرياسة، بوظيفة كتابة العلامة التى دعاه إليها أبو محمد بن تافراكين . تفصيله أن أبا الحسن سلطان المغرب الأقصى لم يلبث أن غادر تونس حتى زحف عليها الفضل الحفصى . فاستردها واستوزر أبا محمد ابن تافراكين . لكن هذا لم يلبث أن خرج عليه، وانتزع العرش منه، وبوأه أخا للفضل طفلا ليبقى فى كفالة الوزير وتحت استبداده . وكان إذ ذاك أن استدعى ذلك الطاغية ابن خلدون لكتابة العلامة [1] عن محجوره وأسيره السلطان الطفل .

كان ذلك سنة ٧٥١ . وهو أول نزول لابن خلدون إلى ميدان الحياة العامة وقد رضى فيه بمنصف كتابة العلامة مؤقتا . ولم يلبث إن سنحت له فرصة النزوح إلى المغرب الأقصى التى اشتاق إليه ليعمل على تحقيق اطماعه فى أفق أوسع . ففى سنة ٧٥٣، زحف أمير قسنطينة الحفصى على تونس لينتزع تراث آبائه من قبضة الغاصب بن تافراكين . فسار هذا للقائه وسار فى ركبه ابن خلدون فلما التقى الجمعان كانت الدائرة على ابن تافراكين . وفر ابن خلدون خفية لينجو بنفسه . فسار مطوفا فى البلاد حتى ألقى عصا التسيار ببسكرة [2] حيث قضى الشتاء من ذلك العام .

وكان أبو الحسن سلطان المغرب الأقصى قد توفى سنة ٧٥٢ وخلفه ابنه أبو عنان . فسعى ابن خلدون حتى لقيه بتلمسان فأكرم وفادته . ولبث يسعى

---

(١) كتابة العلامة هى التوقيع باسم السلطان وشارته على المخاطبات والمراسيم الملكية
(٢) بكسر الأول وفتحه وفتح الثالث .

حتى ألحقه أبو عنان بيطانته، فتوجه إلى فاس سنة ٧٥٥، وعينه السلطان عضواً في مجلسه العلمي وكلفه شهود الصلوات معه. وفي العام التالي كان من كتابه وموقعيه.

بيد أن تلك الوظيفة لم ترض مطامعه الكبيرة: لأنه كان طموحاً إلى وظائف فوقها مقاماً وخطورة. لكنه من ناحية أخرى استطاع وهو بفاس أن يعاود الدرس والقراءة على العلماء والأدباء الذين نزحوا إليها من الأندلس وتونس وغيرهما وبذلك رقى معارفه ووسع معلوماته.

وفي بدء سنة ٧٥٨هـ نزلت بابن خلدون محنة لم تنجل إلا بعد عامين وقد كانت نتيجة لكفره نعمة أبي عنان، ومقابلته إحسانه بالإساءة، وهما أمران ذميمان حفزه عليهما أثرة ذميمة وحب للنفس ممقوت. ذلك أنه على الرغم من أن أبا عنان أكرمه ومنحه عطفه وولاه على حداثته منصب الكتابة واختصه بمجلسه للمناظرة والتوقيع عنه، تآمر عليه هو والأمير أبو عبدالله محمد حفيد أبي يحيى اللحياني. كان هذا صاحب بجاية منذ سنة ٧٤٦ فأنزله عنها أبو عنان وأخذه إلى فاس أسيراً. وكان بين أسرته وبني خلدون صلة قديمة أشرنا إليها. فعمل ابن خلدون لتحريره لاسترداد ملكه على أنه يوليه الحجابة متى تم له الأمر. فبلغ أبا عنان خبر المؤامرة. فسجنه. فألح في طلب العفو. لكنه لم يحظ بوعد به إلا في أواخر سنة ٧٥٩هـ. لكن أبا عنان توفي قبل أن يفي. فبادر الوزير الحسن بن عمر بإطلاقه، ورده إلى سابق وظائفه، وأولاه عطفه، وأحسن رعايته.

وقد يدل سلوك ابن خلدون في النبأ الذي سنقص، على أن سلوكه مع أبي عنان — إذ حاول ممالأة الأمير أبي عبد الله محمد عليه، لم يكن هفوة صدرت منه بلا قصد. بل كان وليد نزعة ذميمة، وثمرة لمبدأ سيء في نفسه ثابت. مبدأ انتهاز الفرص بأية طريقة، وتبرير الوصول إلى المقاصد بأية وسيلة. وقد يخفف التبعة عن ابن خلدون أنه في الحقيقة كان يعامل رجال سوء في

الحالين . أساء أبو عنان إلى أبيه فى حياته إذ انتزع منه عرش الملك . وأساء إلى أخيه أبى سالم وسائر إخوته إذ قبض عليهم ونفاهم إلى الاندلس ليأمن شر منازعتهم إياه فيما اغتصب من الملك . ولما توفى فعل الوزير الحسن بن عمر فعلة دلت على أنه كابن تافراكين ، طاغية ظالم مغتصب مستبد . كان المستحق للملك بعد أبى عنان ولده وولى عهده أبا زيان . فأقصاه الحسن بن عمر وأقام طفلا له على العرش وقتل منافسيه من الوزراء ليستبد بالدولة . فرجلان ، كأبى عنان والحسن بن عمر ، هذه أخلاقهما ، قد يعد من الانتقام الإلهىّ منهما أن يدخل رجل كابن خلدون فى مؤامرة ضدهما ولو كانا من المحسنين إليه العاطفين عليه .

وبعد فهذا هو النبأ الذى أشرنا إليه : ذلك أنه لما توفى أبو عنان ، وكان من الحسن ما كان ، وثب عليه منصور بن سليمان — وهو من ولد يعقوب ابن عبد الحق مؤسس دولة بنى مرين بفاس والمغرب الأقصى — فانتزع من يده السلطان . فما كاد ابن خلدون يعلم تغلب منصور حتى نسى فضل الوزير عليه — إذ أطلقه من الأسر وأحسن إليه وأثابه ، فترك جانبه إلى جانب خصمه ، وتولى الكتابة له كأن لم يصبه من إحسان الوزير أيام السراء ، ما توجب عليه الأخلاق الفاضلة من أجله أن يقف بجانبه أيام الضراء .

ولعلّ ابن خلدون رأى السياسة لا قلب لها كما يراها ساسة العصر الحاضر . وبهذا يفسر سلوكه مع الملك الجديد ، كما يفسر سلوكه مع أبى عنان ووزيره : فإنه لم يثبت على ولائه له كما لم يثبت على ولائه لهما . لما توفى أبو عنان بادر أخوه أبو سالم بالسعى لاسترداد العرش . فعبر من الأندلس إلى بلاد المغرب ودعا بالملك لنفسه . وبعث إلى ابن خلدون كتابا يرجو منه فيه بث دعوته والتمهيد لعوده ، ويعده ، أن هو فعل ، أجمل خير وحظوة . فنسى ابن خلدون أو تناسى ولاءه لابن سليمان . وقام بتحريض الزعماء والشيوخ حتى استجابوا لدعوة أبى سالم وأجمعوا أمرهم على تأييده . عنـــد ذلك ترك ابن خلدون

منصور بن سليمان . وقصد أبا سالم . فعرض عليه خطة رآها لخلع منصور . فسار أبو سالم في جموعه ، وابن خلدون في ركابه ، إلى فاس . ففر ابن سليمان وجلس أبو سالم على عرش أبيه .

وقد بلغ ابن خلدون بذلك بغيته . فلماذا لا يرى الوسيلة حميدة ، ولو كانت الغدر بعينه ؟ ألم يكن بفضلها أن عينه أبو سالم كاتب السر والانشاء ، وأن جعله موضع ثقته وعطفه ؟ . فليحى سلف مكيافلي[1] !

لبث ابن خلدون كاتب السر والانشاء والمراسيم السلطانية لأبي سالم عامي ٧٦١ و ٧٦٢ . وقد نهج في كتابة الرسائل نهجاً جديداً إذ نحا فيها منحى السهولة والارسال ، فحرر نفسه من قيود السجع التي كانت القاعدة أن يكبل الكاتب نفسه بها . وقد قوبلت طريقته في النثر في دوائر الأدب العربي لعهده بالاستحسان والاستجادة . ولذا نجد الوزير لسان الدين محمد بن الخطيب أشهر كتاب الأندلس وشعرائها لعهده ، يصف في كتابه « الاحاطة في أخبار غرناطة » ، رسائل ابن خلدون السلطانية بأنها « خلج بلاغة ، ورياض فنون ، ومعادن إبداع » .

وكنا نود كثيراً لو أن ابن خلدون عني بتدوين رسائله السلطانية لنتبين

---

(١) هو نيكولا مكيافلي Nicola Machiavelli الايطالي الكاتب المؤرخ السياسي الكبير . ولد سنة ١٤٦٩ وتوفي سنة ١٥٢٧ له كتاب الأمير الذي ألفه ليرشد أمراء عصره الى أمثل طرق الحكم وأمثل الوسائل لسيادة الشعوب التي يحكمونها . وهو يبني نظرياته على حوادث التاريخ ، وبخاصة ماشاهده منها في عصره . لكنه يرى الوسيلة حميدة ماأدت إلى غاية حميدة ولو نافتها مبادئ الأخلاق المثلى فالأمير والسياسي الأمثل في نظر مكيافلي طغاة لجئوا في تأييد سلطانهم إلى أروع الوسائل وأشنعها . ومن ثم كانت نظرياته في السياسة مضرب الأمثال للسياسة الغادرة التي لا ضمير لها ولا وازع ، والتي جردت من كل نزاهة وعفة ، وتغاضت عن كل المثل الانسانية والأخلاقية .

منهـا ، فيما تتبين ، قوة بيانه ومقدرته على النثر المرسل . لكنا قد نقف على ذلك بما دوّنه فى كتاب التعريف من رسائله إلى ابن الخطيب . وربما أثبتنا فى المواضع المناسبة فيما يلى من الترجمة ، نبذاً من وصفه لبعض المحافل والمشاهد والأخلاق ، تدل على قوته فى البيان .

وكذلك تفتحت شاعرية ابن خلدون فى هذين العامين . فنظم شعراً كثيرا قال هوعنه إنه « يتوسط بين الاجادة والقصور » . ووصفه ابن الخطيب بأنه « انثال عليه جوده [1] ، وهان عليه صعبه ، فأتى منه بكل غريبة » .

فمن شعره البديع قوله فى مطلع قصيدة من الكامل :—

أسرفن فى هجرى وفى تعذيبى وأطلن موقف غربتى ونحيبى
وأبين يوم البين موقف ساعة لوداع مشغوف الفؤاد كئيب
لله عهـد الظاعنين وغادروا قلبى رهـين صبابة ووجيب
غربت ركائبهم ودمعى سافح فشرقت بعدهمو بمـاء غروبى

ومنـه فى قصيدة أخرى من الطويل أيضا فى وصف زرافة فى هدية أهداها ملك السودان إلى السلطان :—

ورقيمة الأعطاف حاليـة موشية بوشائح البرد[2]

(١) الجود (كالثوب) المطر الغزير . وقد يأتى وصفاً فيقال : هاجت لنـا سماء جود ، ومطرنا مطراً جودا . وانثال عليه القول ، تتابع وكثر فـلم يعرف بأيه يبـدأ .

(٢) البرد (كقفل) اسم جنس جمعى واحده بردة وهى الثوب المخطط . وجمعه أبراد وأبرد وبرود . والوشائح والوشح (بضمتين) والأوشحة بمعنى . كلها جمع وشاح (بضم الواو وكسرها) وهو كرسان (بكسر فسكون . أى فرعان) من لؤلؤ وجوهر منظومان يخالف بينهما معطوف أحدهما على الآخر . و - شبه قلادة ينسج من أديم عريض يرصع بالجواهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها .

وحشية الأنساب ما أنست في موحش البيداء بالغرد[1]
تسمو بجيد بالغ صعدا شرف الصروح بغير ما جهد
طالت رءوس الشامخات به ولربما قصرت عن الوهد[2]

وفى أواخر سنة ٧٦٢ ﻫ ثار رجال الدولة وأولوا الرأى فيها على السلطان أبى سالم بزعامة الوزير عمر بن عبد الله صهر السلطان (زوج أخته) وكبير أمنائه . فنادوا بخلع أبى سالم وتولية أخيه تاشفين سلطانا مكانه . واستبد الوزير عمر بالأمر . وانضم اليه ابن خلدون ، فأقرّه فى وظائفه وزاد فى اقطاعه ورزقه . لكن ابن خلدون لم يرضه ذلك ، لأنه ، كما قال ، كان « يسمو بطغيان الشباب إلى أرفع مما كان فيه » . كان يرجو أن يظفر بمناصب الدولة العليا من حجابة أو وزارة ، بما كان بينه وبين الوزير عمر من صداقة قديمة . لكن هذا لم يحقق له أملا . فغضب واستقال من وظائفه . فتنكر له الوزير . فاستأذن فى الارتحال عنه وشفع الشفعاء له فى ذلك عند الوزير . فأذن له .

اختار ابن خلدون الرحلة إلى غرناطة . فقد كان ملكها محمد بن يوسف ابن اسماعيل بن الأحمر النصرىّ . وكان وزيره ابن الخطيب . وكان بينه وبين الملك ووزيره صداقة متينة . وكان له عليهما أياد بيضاء .

قصد سبتة فى أوائل سنة ٧٦٤ ﻫ . ثم جاز منها إلى الأندلس ، حتى إذا وصل غرناطة اهتم الملك والوزير بمقدمه ، واحتفيا بلقائه ، وأكرما مثواه . ونظمه الملك فى أهل مجلسه . وقربه اليه ، وآثره بصحبته وأسماره . واختصه بالسفارة بينه وبين ملك قشتالة لاتمام صلح كانا يزمعانه ، ولتنظيم العلائق السياسية بينهما . فأدى ذلك بنجاح . فلما عاد أقطعه الملك قرية بمرج غرناطة . فزاد رزقه ، واتسعت أحواله .

---

(١) الغرد (كسهم وخدر) والغريد (كسكير) وصف من غرد الطائر (كفرح فعلا ومصدرا) إذا رفع صوته فى غنائه وطرب به .

(٢) الوهد (بضم ففتح) جمع وهدة وهى الأرض المنخفضة .

لكنه سرعان ماحسده ابن الخطيب فسعى به لدى الملك فأعرض عنه . فأدرك أنه لم يبق طيب العيش بغرناطة ، وأن الرحيل عن الأندلس كلها أصبح أمرا لامحيص عنه . ووافق ذلك أن أرسل اليه صديقه الأمير أبو عبد الله محمد أمير بجاية ينبئه أنه استرد ملكه ، ويدعوه إليه . فاستأذن ملك غرناطة فى الرحيل فأذن له وشيعه مكرما . فركب إلى بجاية فى منتصف سنة ٧٦٦ ه . فاستقبله أميرها وأهلها أجمل استقبال ، كما ينبئ قول ابن خلدون : — « فاحتفل السلطان بقدومى ، وأركب للقائى ، وتهافت أهل البلد على من كل أوب يمسحون أعطافى ، ويقبلون يدى . وكان يوما مشهودا » .

وتولى ابن خلدون الحجابة لأمير بجاية . فكان له « الاستقلال بالدولة ، والوساطة بين السلطان وأهل مملكته لا يشاركه فى ذلك أحد » .

لكنه لم يمتع بذلك المنصب السامى إلا قليلا . فقد كانت بجاية مطمح أنظار أبى العباس أمير قسنطينة وابن عم أبى عبدالله . ففى سنة ٧٦٧ قصدها بجموعه فهزم أبا عبد الله وقتله ودخلها ظافرا . وقد كان الوفاء لأبى عبد الله يقضى أن يدعو ابن خلدون لأحد أبنائه ، كما أشار عليه بعض الزعماء . وكان فى مقدوره العمل بتلك المشورة الصائبة . لكنه لم يكن له هم سوى أن ينال ماطمح إليه من المراتب العليا من السلطان تحت أى لواء . لذلك بادر بالخروج لتحية أبى العباس . فأكرمه هذا وأقره فى منصب الحجابة . بيدأنه مالبث أن أنكره ورغب عن خدمته . فاستأذن فأذن له أبو العباس بالانصراف إلى أحد الأحياء القريبة . ثم بدا له أن يقبض عليه . ففر إلى بسكرة لصداقة بينه وبين أميرها . فاعتقل أبو العباس أخاه يحي مكانه . وفتش بيوتهم ، وصادر أموالهم . لكنه لم يلبث أن أطلق سراح يحي .

أقام ابن خلدون ببسكرة يرقب مجرى الأمور . فلم يلبث أن حانت له فرصة للمغامرة من طريق آخر . كان الأمير أبو حمو موسى بن عبد الرحمن

سلطان تلمسان يطمع فى بجاية . فوجه إليها جنوده يحاول أخذها . لكنه هزم . ففكر فى الاستعانة بابن خلدون لما له من الجاه والمنزلة لدى أهل بجاية . دعاه لأمرين . الأول أن يتولى الحجابة له بتلمسان . الثانى أن يدعو له ليؤلب القبائل حول بجاية له ضد أبى العباس . فأناب عنه أخاه يحيى فى الأولى وتولى بنفسه الأخرى . ثم خرج مع صاحب بسكرة ومن استمال من الزعماء ومعهم جنودهم ، لنصرة أبى حمو . لكن أبا العباس هزمهم .

كان ذلك سنة ٧٧١ هـ . وفى العام التالى تحول ابن خلدون عن أمير تلمسان إلى عدوه عبد العزيز بن أبى الحسن سلطان فاس والمغرب الأقصى . ذلك أن هذا كان يطمع فى بجاية كما كان يطمع فيها أمير تلمسان . فبدأ بفتح تلمسان للقضاء على سلطان بنى عبد الواد . ففر أبو حمو بجنوده . وألقى السلطان عبدالعزيز القبض على ابن خلدون . فعنفه على تركه مؤازرة بنى مرين وتحوله إلى أعدائهم . فاعتذر بما كان بينه وبين الوزير عمر . فقبل عذره . وكاشفه برغبته فى فتح بجاية . فوعده المساعدة . فأطلق سراحه .

وكان على السلطان عبد العزيز أن يتعقب أبا حمو ليأمن شره . فدعا ابن خلدون القبائل لمؤازرة السلطان عبدالعزيز والانسلاخ عن أبى حمو . ثم شارك هو ومن استمال من القبائل فى الحملة التى كلفها السلطان عبدالعزيز مطاردة أبى حمو . وقد نجحت إلى حد ما . فإنها دهمته فى أعماق الصحراء ومزقت معسكره . لكنه نجا بنفسه تحت جنح الظلام . وبقى السلطان عبدالعزيز على وجل منه ومن القبائل التى كانت ثائرة فى المغرب الأوسط فى كل مكان . فعهد إلى ابن خلدون تدبير حملة مع وزيره أبى بكر بن غازى لقمع الثوار . فلما وضعا خطة العمل بالصحراء حيث كان الوزير ، عاد إلى بسكرة . لكن مقامه بها لم يطل . لأنه آنس من أميرها ميلا إلى الثورة . عند ذلك هم بالعودة إلى تلمسان حيث كان السلطان . لكنه وافاه وهو فى الطريق نبأ وفاته وتولية ابنه السعيد مكانه فى كفالة الوزير ابن غازى وتحول البلاط كله من تلمسان إلى فاس ، واستيلاء

أبى حمو ثانية على تلمسان فعول على التحول إلى فاس . لكن أبا حمو حرض عليه بعض الأشقياء فانقضوا عليه فى الصحراء ونهبوا متاعه ولم ينج بنفسه إلا بصعوبة . فوصل فاس فى حالة يرثى لها . لكن الوزير ابن غازى عوضه خيرا . فإنه أكرم مثواه وغمره برعايته . فأقام بفاس موقرا مبجلا .

كان ذلك فى سنة ٧٧٤ هـ . وفى سنة ٧٧٦ قامت ثورة بالمغرب الأقصى أضرم نارها زعماء كانوا يدعون للأمير أحمد ابن السلطان أبى سالم ضد الوزير ابن غازى ومكفوله السعيد بن عبد العزيز . وقد نجح الثوار فأذعن لهم ابن غازى وخلع الملك السعيد واستوى السلطان أحمد على عرش فاس . ووشى بابن خلدون إلى الحكومة الجديدة فقبض عليه حينا . ثم أفرج عنه . فأزمع الرحلة من فاس . لكنه وجد أبواب الرحيل فى وجهه موصدة . أما إلى الأندلس فقدمانعت فيه حكومة فاس خشية مؤامراته بها ضدها . وأما إلى تونس وبجاية ، فقدمنع منه عداء ما بينه وبين سلطانهما أبى العباس [1] وأما إلى تلمسان ، فقد صد عنه ما بينه وبين أبى حمو من النفرة . وكان أخوه يحيى قد عاد إلى أبى حمو . ففضل أن يعالج فتح باب الرحيل إلى تلمسان فوسط فى ذلك بعض أصدقائه من بنى عريف . فشفعوا له عند أبى حمو حتى رضى عنه وأذن له . فسار إلى تلمسان فوصلها فى عيد الفطر سنة ٧٧٦ هـ .

العزلة والتأليف : كان ابن خلدون فى ذلك الوقت قد مل حياة المغامرات السياسية بعد أن جربها وذاق خلوها ومرها مدة ربع قرن من الزمان وصحت منه النية على العزلة للقراءة والدرس والتأليف . فلما أراده أبو حمو على خوض

---

(١) استولى أبو العباس على تونس سنة ٧٧١ هـ وقد كانت مطمح أنظاره منذ استولى على بجاية . لكنها كانت بيد أخيه أبى إسحاق . وكان قويا . فلم يقو أبو العباس على انتزاعها من يده وهو عليها ، حتى إذا ما خلفه عليها ولده وكان طفلا ، سهل على أبى العباس أخذها منه .

غمار السياسة من جديد غادر تلمسان ميمما شطر بنى عريف . فنزل بهم وأكرموا مثواه وأنزلوه بقصر لهم فى قلعة سلامة من أعمال توجين . وهنا قضى أربعة أعوام هادئا مستقرا بعيدا عن قلق البيئات السياسية . فأكب على الدرس والتأليف . ولم يلبث أن أخرج لنا مقدمته وكتابه فى التاريخ . وهما يعدّان من أنفس الذخائر التى خلفها للعالم طرّا الذهن العربى الإسلامى .

مقدّمته . موضوعها : قضى ابن خلدون من حياته ربع قرن خبر فيه بنفسه من الناحية العملية البيئة العربية الطبعية والاجتماعية والاقتصادية ، وعرف آثارها فى السياسة والملك . وكذلك درس ما كان معروفا لعهده فى ذلك من الناحية النظرية . وكان مع ذلك ذا ذكاء ممتاز ، قديرا على إبراز فكره فى صورة منطقية صحيحة . فاجتمعت له — رحمه الله — مع عزلته المباركة فى مقامه الهادىء النائى عن كل المشاغل ، ثلاث خصال التجربة والعلم والذكاء . وهى خصال لابد منها لمن يتصدى للتأليف فى علم « العمران البشرى والاجتماع الإنسانى ، وبيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته » . وذلك هو موضوع مقدمة ابن خلدون . وهو علم وصفه لنا بأنه « مستحدث الصنعة غريب النزعة ، غزير الفائدة » وأنه علم بمثابة « قانون فى تمييز الحق من الباطل فى الأخبار ، والصدق من الكذب ، بوجه برهانىّ لا مدخل للشك فيه » .

ما يتعلق منها بالتربية : لابن خلدون بمقدمته نظريات فى الفلسفة التاريخية والاجتماعية والاقتصادية تجعله بحق أستاذ الاوربيين فى هذه الميادين . فإنهم لم يطرقوها إلا بعده بعصور طويلة . وليس من شأننا فى بحوثنا هذه أن نعرض لهذه النظريات . وإنما الذى يهمنا ما جاء بمقدمته متعلقا بالتربية والتعليم . وقد قدمنا لك طائفة منها مفرقة فى مواضعها من هذا الكتاب . وإنما نلخصها فى الجدول الآتى مع الإشارة إلى فصولها فى المقدمة ليسهل الرجوع إليها بها : —

كتاب العبر : قضى ابن خلدون خمسة أشهر فى عزلته المباركة « سالت فيها شآبيب الكلام والمعانى على الفكر » . فلم يواف منتصف سنة ٧٧٩ هـ حتى أكمل المقدمة . ثم أخذ يكتب تاريخه المعروف . فكتب منه تاريخ العرب والبربر وزناته .

والظاهر أن قصده الأول كان لا يزيد على ذلك ، كما يدل عليه قوله فى مقدمة « كتاب العبر » : — « وأنا ذاكر فى كتابى هذا ما أمكننى منه فى هذا القطر المغربى . . . . . لاختصاص قصدى فى التأليف بالمغرب وأحوال أجياله وأممه وذكر ممالكه دون ما سواه من الأقطار ، لعدم اطلاعى على أحوال المشرق وأممه » . لكنه عاد فعدل خطته ، ورأى أن يكتب تاريخا عاما للخليقة .

عودته إلى تونس : ولما كانت تعوزه المراجع فى تلك الخلوة ، أزمع الرجوع إلى تونس لتوافر مواد المراجعة والدرس بها . فكتب إلى سلطان أبى العباس سنة ٧٨٠ هـ يسأله العفو ويستأذنه فى العودة . فعفا عنه وأذن له فى الرجوع . فلما عاد أمر له أبو العباس بما تكون به راحته من المسكن والمعاش . فأقام فى دعة وأمن وسعة . وعكف على الدرس والمراجعة والتأليف حتى أتم « كتاب العبر » فى أوائل سنة ٧٨٤ هـ

وفى تلك السنة أراده السلطان أبو العباس على العودة إلى المغامرات السياسية والحربية . لكنه كان قد مل تلك المغامرات . فتظاهر بأنه يريد الحج فاستأذن فأذن له السلطان . فغادر وطنه فى حفل حاشد من الأعيان والأصدقاء والتلاميذ خرجوا معه ليودعوه وكلهم أسى وحزن كأنهم أحسوه الوداع الأخير لأستاذ عظيم وزعيم طال ما كان له فيهم من نفوذ بعيد المدى .

فى القاهرة : — وصل ابن خلدون إلى الإسكندرية . ولم يقصد مكة للحج كما أظهر للسلطان أبى العباس . وإنما يمم شطر القاهرة . فرأى لأول مرة « حاضرة الدنيا وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر ، وإيوان الإسلام »

وكرسىّ الملك ، تلوح القصور والأواوين فى جوه ، وتزهو الخوانق والمدارس والكواكب بآفاقه ، وتضىء البدور والكواكب من علمائه ، قد مثل بشاطىء نهر النيل ، ومدفع مياه السماء يسقيه العلل والنهل سيحه ، ويجبى إليه الثمرات والخيرات ثجه » (١) .

وقد كان صيت ابن خلدون سبقه إلى القاهرة . فلما وصلها تلقاه أهلها بالإكرام ، وأكثروا ملازمته والتردد عليه . وتصدر للإقراء بالجامع الازهر مدة .

وقد كان ملك مصر إذ ذاك السلطان برقوق . فعمل ابن خلدون على التقرب منه والاتصال به . فأكرم وفادته « وأبرّ مقامه ، وآنس غربته ووفر عليه الجراية من صدقاته ، شأنه مع أهل العلم » (٢)

وعينه السلطان فى منصب للتدريس بالمدرسة القمحية بجوار جامع عمرو . فشهد مجلسه الأول فى ذلك المعهد جمهرة من الأكابر أرسلهم السلطان لشهوده . فألقى فيهم خطابا تكلم فيه عن فضل العلماء فى شدّ أزر الدولة الإسلامية . ثم أشار بما لسلاطين مصر من فضل فى نصرة الإسلام وإعزازه ، وهمة ونشاط فى إنشاء المساجد والمدارس ورعاية العلم والعلماء والقضاة ، وبخاصة السلطان برقوق . ثم قال منوها بفضل الملك فى توليته ذلك المنصب : « ولما سبحت فى اللج الأزرق ، وخطوت من أفق المغرب إلى المشرق ، حيث نهر النهار ينصب من صحوة المشرق ، وشجرة الملك التى اعتز بها الإسلام تهتز فى دوحه المعرق ، وأزهار الفنون تسقط علينا من غصنه المورق ... ، أولونى عناية وتشريفا ، وغمرونى إحسانا ومعروفا ، وأوسعوا غمتى إيضاحا ونكرتى تعريفا . ثم أهلونى للقيام بوظيفة السادة المالكية بهذا الوقف الشريف » الخ

(١) هذا الوصف لابن خلدون نفسه أثبتناه كما وعدنا ليكون نموذجا لبيانه

(٢) ابن خلدون .

وفى سنة ٧٨٦ هـ عين قاضيا لقضاة المالكية . وفى ذلك يقول ابن خلدون نفسه : — « وأقمت على الاشتغال بالعلم وتدريسه إلى أن سخط السلطان قاضى المالكية يومئذ فى نزعة من نزعاته الملوكية . فعزله واستدعانى للولاية فى مجلسه وبين أمرائه . فتفاديت من ذلك وأبى إلا امضاءه » .

وكان يسود القضاء بمصر فساد واضطراب وميل إلى الهوى والأغراض . فحاول إصلاح ما فسد ، وأن يحكم بالعدل . وفى ذلك يقول : — « فقمت بما دفع إلىّ من ذلك المقام المحمود ، ووفيت جهدى بما أمننى عليه من أحكام الله لا تأخذنى فى الله لومة ، ولا يرغبنى عنه جاه ولا سطوة ، مسوّيا بين الخصمين : آخذا لحق الضعيف من الحكمين (؟) ، معرضا عن الشفاعات والوسائل من الجانبين ؛ جانحا إلى التثبت فى سماع البينات ، والنظر فى عدالة المنتصبين لتحمل الشهادات . فقد كان البر منهم مختلطا بالفاجر ، والطيب متلبسا بالخبيث . والحكام ممسكون عن انتقادهم ، متجاوزون عما يظهر عليهم من هناتهم ، لما يموهون به من الاعتصام بأهل الشوكة . فإن غالبهم مختلطون بالأمراء ، مغلمون للقرآن وأئمة للصلاة ، يلبسون عليهم بالعدالة . فيظنون بهم الخير ، ويقسمون (؟) الحظ من الجاه فى تزكيتهم عند القضاة والتوسل لهم . فأعضل داؤهم ، وفشت المفاسد بالتزوير والتدليس بين الناس منهم . ووقفت على بعضها ، فعاقبت فيه بموجع العقاب ، ومؤلم النكال » .

لكن محاولة إصلاح مافسد ، ومضيه فى سبيله « من الصرامة وقوة الشكيمة » ، واحتقاره شفاعات الأعيان والأكابر ، مخالفا ما اصطلح عليه سائر القضاة من قبولها — كل أولئك لم يلبث أن أثار عليه السخط من كل ناحية . فسلقته جميع الألسن وكثرت فى حقه السعاية لدى البلاط :

وأمر آخر . ذلك أن منصب القضاء من أهم مناصب الدولة . وكان هو ومنصب التدريس دائما مطمح أنظار الفقهاء والعلماء المصريين . وقد كان ابن خلدون مغربياً . فكان من الطبيعى أن يثير حقدهم عليه وحسدهم إياه

حظوته دونهم لدى السلطان وفوزه دونهم بذينكم المنصبين الجليلين .

لذلك كثر السعى فى حقه والاغراء به واتهامه بجهل الأحكام واصطلاحات القضاء . قال ابن خلدون : — « ووافق ذلك مصابى بالأهل والولد . وصلوا من المغرب فى السفين . فأصابها قاصف من الريح . فغرقت وذهب الموجود ، والسكن والمولود . فعظم المصاب والجزع ، ورجح الزهد واعتزمت على الخروج عن المنصب » ، إلى أن قال : — « وشملتنى نعمة السلطان — أيده الله — فى النظر بعين الرحمة ، وتخلية سبيلى من هذه العهدة ، التى لم أطق حملها ، ولا عرفت فيما زعموا مصطلحها . فردها إلى صاحبها الأول ، وانشطنى من عقالها . فانطلقت حميد الأثر ، مشيعاً من الكافة بالأسف والدعاء ، وحميد الثناء ، تلحظنى العيون بالرحمة ، وتتناجى الآمال فىّ بالعودة » .

حزن « الكافة » إذا لتنحى ابن خلدون عن منصب القضاء سنة ٧٨٧ هـ . أى بعد عام فقط من ولايته ، وإن كان قد فرح له خصومه الذين حسدوه من أهل ذلك المنصب . وكذلك لم يؤذن تنحيه بسخط السلطان عليه ، بدليل بقائه فى منصب التدريس بالقمحية ، ثم تعيينه بعد قليل للتدريس بالمدرسة « الظاهرية البرقوقية » التى أنشأها السلطان برقوق فى حىّ بين القصرين .

وما زال يتولى منصبى التدريس حتى كان موسم الحج سنة ٧٨٩ هـ فاعتزم أداء تلك الفريضة . فاستأذن فأذن له السلطان .

ولما عاد فى أوائل سنة ٧٩٠ هـ ولاه السلطان منصب التدريس بمدرسة أخرى بدل المدرسة الظاهرية البرقوقية . ثم عين شيخا لخانقاه بيبرس وهى يومئذ أعظم الخوانق أو ملاجىء الصوفية . فزادت جرايته ، واتسعت موارده .

وفى سنة ٧٩١ هـ غلب السلطان برقوق على العرش . ففقد ابن خلدون مناصبه وأرزاقه كلها أو بعضها . ولما استرد السلطان العرش فى السنة التالية

أعاد إليه ما كان أجراه عليه من نعمته .

ولبث ابن خلدون منذ تلك السنة منقطعاً للتدريس بعيداً عن منصب القضاء حتى إذا كان النصف الثانى من سنة ٨٠١ هـ، أعاد اليـه السلطان منصب القضاء . وفى تلك السنة توفى السلطان الظاهر برقوق وخلفه ابنه الناصر فرج . فأبقى لابن خلدون منصب القضاء . بيد أنه لم يقم بشىء من أعماله أو كاد . ذلك أنه لم يلبث أن تولى السلطان الجديد وهدأت الفتن التى ثارت على أثر توليته ، حتى استأذن ابن خلدون فسافر إلى فلسطين لمشاهدة آثارها . ولم يعـد إلا فى رمضان سنة ٨٠٢ هـ . وبعد ثلاثة أشهر عزل ثانية من منصب القضاء .

عود إلى المغامرات : فى أوائل سـنة ٨٠٣ هـ جاءت الأنباء مصر أن تيمورلنك قد انقض بجيوشه على الشأم ، وانه فى طريقه إلى دمشق . ففزعت مصر . وأسرع الناصر بجيوشه لصدّ ذلك المغير التترى . وأخذ معـه ابن خلدون فيمن أخذ من القضاة والفقهاء . فلـا وصلوا دمشق نزل ابن خلدون ومن معه فى المدرسة العادلية . واشتبك جند مصر مع جند الفاتح لصد هؤلاء عن دمشق . ثم كر الناصر راجعا إلى مصر وحده مخافـة على ملكها أن يخرجه من قبضته جماعة علم بهم من المتآمرين عليه . ثم وقع شقاق بين قواد جيش مصر خشى ابن خلدون معـه أن تقع دمشق فى يد الفاتح فيكون نصيبه الموت أو النكال إن هو بقى مع المصريين . فصمم على أن يقصد معسكر الفاتح ليستأمنه على نفسه .

فلما وصل إلى المعسكر أذن له بمقابلة تيمورلنك . وفى وصف مقابلته إياه يقول ابن خلدون : — « ودخلت عليه بخيمة جلوسه ، متكئا على مرفقه ... فانحنيت بالسلام وأوميت إيماءة الخضوع . فرفع رأسه ومدّ يده إلىّ فقبلتها وأشار بالجلوس . فجلست حيث انتهيت . ثم استدعى من بطانته الفقيه عبد الجبار بن النعمان من فقهاء الحنفية بخوارزم فأقعـده يترجم بيننا » .

والظاهر أن مفاوضة جرت بينهما ، فى شأن تسليم المدينة للفاتح ومنحه أمانا للقضاة والرؤساء والعمال ، على أثرها سلمت المدينة وصدر الأمان المطلوب .

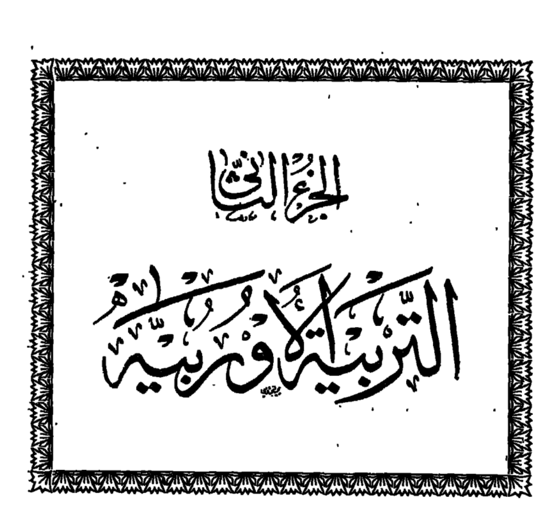
ماأحبه للمنصب ! : أكبر الظن أن ابن خلدون أراد من هذه المغامرة الأخيرة فيما أراد أن يتمتع بالحظوة لدى الفاتح الجديد كما تمتع لدى ملوك المغرب ومصر . لكنه لم يوفق هذه المرة . ولذا لم يمض عليه شهران بدمشق حتى مل البقاء بها . فغادرها فى رجب سنة ٨٠٣ ، عائدا إلى مصر .

ولم يلبث أن استقر بمصر حتى سعى لمنصب القضاء . لم يكن طلبه لذلك المنصب عن حاجة مادية . فقد كان ماتولى من مناصب التدريس يدر عليه الخير الكثير . وإنما سعى له لأنه من مناصب النفوذ والجاه التى استمرأها واعتادها منذ شب . فلم يكن من السهل عليه أن يزهدها ولو أنه بلغ الرابعة والسبعين من عمره . هذا إلى أن النزاع المتكرر بينه وبين طالبي هذا المنصب من القضاة والفقهاء المصريين ، أثار فيه غريزة حب الغلبة التى متى هاجت لم تقنع بما دون الظفر بالبغية والانتصار على الخصوم .

فلا غرابة إذا رأينا النزاع حول هذا المنصب يشتد بين الفقهاء وابن خلدون فى السنوات الخمس التى بقيت له من حياته . فقد عزل عن منصب قضاء المالكية فى المحرم سنة ٨٠٣ كما قدمنا . والظاهر أنه بقى شاغرا حتى توجه ابن خلدون إلى سورية للقاء تيمورلنك . والظاهر كذلك أن خصومه كانوا يخشون إذا لم يشغله أحدهم فى غيبته أن يولاه هو متى حضر . لذلك أشاعوا أنه هلك فى حوادث دمشق . وعلى أثر ذلك الإرجاف كان ماظنوا أنهم به أدركوا بغيتهم ، إذ أصدر السلطان أمرا أن يشغل ذلك المنصب الأقفهسى من خصوم ابن خلدون . لكن ابن خلدون لم يلبث أن عاد حتى عزل هذا وولى هومكانه . فلبث فيه عاما . ثم عزل عنه للمرة الثالثة فى رجب سنة ٨٠٤ هـ ، ووليه البساطى من خصومه ، ليعزل سريعا ويخلفه ابن خلدون

فى ذى الحجة ؛ ليلبث فيه عاما وشهرين . ثم يعزل للمرة الرابعة فى ربيع الأول من سنة ٨٠٦ ه ، ليعاد البساطى ثم يعزل ويعاد ابن خلدون فى شعبان سنة ٨٠٧ ه ليعزل للمرة الخامسة فى أواخر ذى القعدة من تلك السنة ، ويتولى الأقفهسى ثلاثة أشهر فقط ، ثم يعزل ليخلفه التنسى لمدة يومين بعدهما يعاد البساطى . فيبقى له المنصب من ربيع الأول سنة ٨٠٨ إلى شعبان من السنة نفسها ، ثم تكون الغلبة فى النهاية للمؤرخ إذ يتولى المنصب بعد عزل البساطى.

وفاته : هكذا ترى ابن خلدون قد غالب خصومه من قضاة مصر ولم يقعد به ضعف الشيخوخة عن مغالبتهم حتى غلبهم . لكن القدر المحتوم لم يلبث أن وافاه . فقد توفى فى السادس والعشرين من شهر رمضان سنة ٨٠٨ ه وهكذا أطفئت سرج حياة وثابة مليئة بالحركة والنشاط والمغامرات وذلك مصير الحياة الدنيا (كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام)


الجزء الثاني
التربية الأوربية

مقـــدمة

نقدم بين يدى بحوث التربية بأوروبا فى العصور الوسطى - التى هى قصدنا الأول من هذا الجزء من الكتاب ، بيانا موجزا عن أثر النصرانية فى مجال التربية وغايتها ومناهجها باوربا ، وعن المواقف المختلفة التى كانت لآباء الكنيسة إزاء الآداب القديمة ؛ وعن مختلف المدارس التى كانت بأوروبا فى القرون المسيحية الأولى . فنقول وبالله التوفيق

أثر النصرانية فى شئون التربية بأوربا : بنيت نظريات التربيتين اليونانية والرومانية على أساس العبادة الوثنية . وقد جاءت المسيحية للقضاء على تلك العبادة والدعوة إلى عبادة رب العالمين . فكان طبعيا أن يحدث انتشار المسيحية بأوروبا تغييرا خطيرا فى مسائل التربية

(١) التربية حق للكل : لم تعتبر المسيحية تفاوت الناس فى الدرجات موجبا لاختلافهم فى استحقاق التربية كما كان شأن اليونان والرومان . وإنما سوت بين العبد والحر ، وبين الغنى والفقير ، وبين الرفيع والوضيع . فلا جرم كانت التربية فى عهد المسيحية من حق الناس جميعا على السواء .

(٢) غرضها تطهير الروح : لم تنظر المسيحية فى غرضها من التربية إلى مصلحة الفرد من الوجهة العقلية - كما فعل أفلاطون وارسطو وسواهما من فلاسفة اليونان ، إذ جعلوا الغاية من التربية الإقدار على التأملات العقلية والبحوث الفكرية والحياة الفلسفية . وكذلك لم تنظر إلى التربية كمسألة عملية دنيوية كما فعل الرومان . وبعبارة أخرى : لم تنظر إلى الفرد من حيث هو ، ولم تنظر إليه من حيث علاقته بالمجتمع . وإنما نظرت إليه من حيث علاقته بخالقه . فلم تقصد فى التربية لإظهار الفرد شخصيته ولا لاصلاح المجتمع بصلاحه . وإنما قصدت لرياضة النفس وتطهير الروح

(٣) منهجها دينى : من أجل ذلك قام تعليم العقائد وإقامة الشعائر الدينية مقام التربية العقلية . وقام تهذيب النفس ورياضتها مقام التربية البدنية والتدريب على الخطابة والكتابة وحسن البيان .

(٤) معلموها آباء الكنيسة . وهم القديسون أتباع المسيح عليه السلام الذين عملوا على نشر النصرانية فى البلاد كما فهموها ، والذين قاموا بترجمة الأناجيل وتفسيرها للناس :

فريقان : آباء الكنيسة فريقان : الاغريق أو آباء الكنيسة الشرقية ؛ واللاتينيون أو آباء الكنيسة الغربية . فالأولون هم قديسو القسم الشرقى من الامبراطورية الرومانية الذين اتخذوا بوزنتيه والاسكندرية وسواهما من مدن الشرق ، مراكز لهم يبثون فيها ومنها مبادئهم الدينية . ومن أشهرهم القديس كلمنت الاسكندرى (١٦٠م - ٢١٥م) والقديس أوريجين (١٨٥ ٢٥٤) والقديس بازل (٣٣١ - ٣٧٩)

وأما الآخرون فهم قديسو الكنيسة الغربية أو القسم الغربى من الامبراطورية الرومانية . ومن أشهرهم القديس ترتليان (١٦٠ - ٢٣٠) والقديس جيروم (٣٣١ - ٤٣٢) والقديس أو جستين (٣٥٤ — ٤٣٠)

عداء اللاتينيين للآداب القديمة : اختلفت آراء الفريقين المذكورين من آباء الكنيسة بالنسبة إلى فلسفة القدامى وثقافتهم . فوقف اللاتينيون آباء الكنيسة الغربية موقف العداء والمناوأة . يدل على ذلك مانسب إلى القديس أوجستين من أنه هو الذى حمل مجلس قرطاجنة على إصدار قراره القاضى بتحريم الفلسفة والثقافة القديمة . ومن المأثور عنه فى تثبيطه الهمم عن تلك الآداب والتنفير منها ، قوله : « للجهلاء مملكة السماء »

وقد قوى ذلك العداء وأكده رؤيا رآها القديس جيروم . وماهى بالرؤيا الهينة ! إنها لرؤيا قديس ! وماكانت فى نظر المعاصرين إلا وحيا يوحى !

رأى أن القيامة قامت ، ونصب الميزان ، وجلس للحساب ، وسيق هو للمحاكمة . فسئل : — من أنت ؟ فأجاب أنه مسيحي . ولكنه كاد يموت حسرة ويقضي يأسا إذ سمع القضاء فيه والحكم عليه : سمع راداً يرد عليه في غضب قائلا : — « هذا كذب ! ماأنت بالمسيحي ولا محب المسيحية ! إنما أنت سيسروني ! سيسرو كنزك النفيس وذخرك الغالي ! فله قلبك ومحبتك ، وإليه حنينك وميلك ! »

أسباب العداء : يرجع ذلك العداء إلى أسباب منها :

(١) كان آباء الكنيسة الغربية لا يزالون يذكرون استهزاء الفلاسفة بالمسيح وأنواع الذل والضيم الذى أصابهم على أيدى الممثلين لتلك الثقافة .

(٢) رأى أولئك الآباء أن الدين والعقل ضدان لايجتمعان ـ وأنه متى استخدمت الفلسفة فى الأمور الدينية كانت الزندقة والالحاد .

(٣) كانوا يعتقدون نزول المسيح على رأس الألف الأول من الميلاد وأنه عما قليل يظهر ليحكم بين الناس بما أنزل الله .

(٤) كان أنصار المسيحية فى أول أمرها من العبيد والفقراء الذين لم يكونوا بطبعهم وتقاليدهم ميالين إلى آداب وثقافة لم تتهيأ لمن تحلوا بها إلا بإذلالهم وامتهانهم . ثم كان أنصارها بعد سقوط الدولة الغربية من أمم الشمال المتوحشين الذين لم تسم نفوسهم بعد إلى أعظام تلك الثقافة وقدرها حق قدرها

ولاء الإغريق لتلك الآداب : هذا ما كان من موقف الآباء الغربيين إزاء الثقافة القديمة والأسباب التي دعتهم ليقفوا موقف العداء لها . أما الإغريق آباء الكنيسة الشرقية فقد كانوا فلاسفة قبل أن يكونوا مسيحيين . وكانوا جميعا تلاميذ أفلاطون وأرسطو قبل أن يكونوا من أتباع المسيح وتلاميذه .

من أجل ذلك والوا الثقافة القديمة وشجعوا دراسة الفلسفة . فهذا كلمنت يقول : — « ما النصرانية إلا أفلاطونية مهذبة . وما أفلاطون إلا موسى اليونان »

وكان من تعاليمه أن فلسفة الأوثان مرشد يهدى إلى المسيح . وكان دائما يرمى إلى التوفيق بين العقل والدين . وكان من مبادئه أن الله أخذ على ابن آدم أن يكون ذا قانون وإنجيل وحكمة .

ومع ذلك لم يقف كل الآباء الشرقيين ذلك الموقف المطلق عن كل شرط وقيد . فهذا بازل فى ختام بحث له فى تربية الصبيان يجمل مافصل فى ذلك البحث ، مخاطبا قارئه وسامعه . ستقول متعجبا . « أفنفهم مما ذكرت أنه يجب أن نطرح الثقافة الوثنية جانبا » ؛ ثم يجيب إجابة احتراس وتحفظ فيقول : — إنى لا أقول ذلك . ولكن الذى أقول : هو أنه لاينبغى لنا قتل النفوس . لنا أن نختار إحدى خلتين : إماتربية أدبية نحصل عليها بإرسال أولادنا إلى مدارس الآداب ، وإما انقاذ أرواحهم بإرسالهم إلى الأديار ؛ إما تربية العقول بالعلم ، وإما تربية الأرواح بالدين . فأيّ هذين نفضل أن يكون له الغلب ؟ إذا كنت تستطيع التوفيق ، فافعل بلا تردد . فإن عجزت فاختر الأنفس الأولى .

المدارس فى العصور المسيحية الأولى

(١) مدرسة الحياة : اشتغل المسيحيون الأول بنشر الدين ودفع المعارضين عن إنشاء المدارس . فكانت التربية المسيحية الأولى عملية يحصل عليها معتنقو المسيحية من إقامة الشعائر وشهود حفلات الكنيسة وسماع النصح والإرشاد .

(٢) مدارس التعميد : التعميد تطهير الداخلين فى المسيحية بغمسهم فى الماء المقدس أو غسلهم به . ولم تكن حفلة التعميد تقام للجدد مباشرة على أثر اعتناقهم المسيحية وإنما كانت تمضى مدة اختبار وتجربة يدرب فيها المسيحيون الجدد على آداب الكنيسة وإقامة الشعائر ويعلمون العقائد ومما ينبغى أن يعرفه كل مسيحى من أمور الدين . وقد أنشئوا لذلك التدريب والتعليم أمكنة خاصة عرفت بمدارس التعميد أو مدارس طالبي العماد .

(٣) مدارس اللاهوت بالشرق : انتشرت مدارس التعميد بالبلاد المسيحية في أوائل القرن الثاني وكان منهجها في التربية ضئيلا قاصرا كما وصفنا. وبتوالي الزمن رؤي أن ذلك المقدار من التعليم غير كاف. فقد تصادم أئمة المسيحية بالاسكندرية وسواها من مدن الشرق بالأفكار الفلسفية الاغريقية. فكان من الضروري إعداد القساوسة وأئمة الكنيسة للنجاة من ذلك التصادم بتربيتهم تربية إغريقية دينية (لاهوتية)

وقد سبقت الاسكندرية إلى تهيئة الفرصة لتلك التربية وبقيت لعدة قرون مركز ذلك العرفان العقلي اللاهوتي ففي سنة ١٨٩ كان باتتينوس (رواقي تنصر) رئيس مدرسة من مدارس التعميد في الاسكندرية. فرأى مسيس الحاجة إلى توسيع منهج الدراسة بمدرسته ومدارس التعميد عامة. فأدخل الفلسفة والبلاغة وكل الثقافة الإغريقية. وساعده على ذلك ميله وتربيته الأولى. وقد خلفه في ذلك اثنان من أشهر آباء الكنيسة هما كلمنت وأوريجين واضعا أصول الديانة المسيحية. وتبع الاسكندرية سواها في إدخال الآداب الاغريقية بمدارس التعميد. وكان غرضهم خدمة الدين بالأدب. ومن ثم سميت المدارس ذات المنهج الجديد باسم مدارس اللاهوت

(٤) مدارس الكنائس بالغرب : بتوالي الزمن دخلت مدارس اللاهوت تحت إدارة القساوسة وأصبح الغرض منها تخريج رجال يخدمون الدين. وصارت علاقتها بالكنيسة أظهر وأمتن. ومن ثم عرفت بالغرب باسم مدارس الكنائس. ولما سنت القوانين التي نظمت بها حياة القساوسة، كان منها قوانين بها أصبح تنظيم العمل بتلك المدارس ميسورا : ففي القرنين الخامس والسادس قررت مجالس الكنائس أن يبكر بالانتظام في سلك تلك المدارس كل من مآلهم أن يكونوا قساوسة. وبعد سقوط الدولة الغربية أصبحت مقاليد التربية كلها بأيدي الكنيسة. وأصبحت هذه المدارس مع مدارس الأديار مدارس الغرب الوحدة.

التربية بأوربا فى العصور الوسطى

بالأديار بأيدى الرهبان . تطلق العصور الوسطى على القرنين السابع والخامس عشر ومابينهما . وتكاد تكون أزمة التربية والتعليم فى هذه المدة بأيدى الرهبان وحدهم دون سواهم . وتكاد تكون الأديار المعاهد الوحدة لهما .

الرهبان والرهبانية : من القساوسة من وهبوا حياتهم للكنيسة ، وعاشوا فى عزلة الدير والخلوة بعيدين عن الدنيا وأهلها زاهدين فيها وفيما بأيديهم منها ، متفرغين للنسك والعبادة ، آخذين أنفسهم بالتقشف ، محملين أجسامهم أنواع الآلام كإطالة الصيام والإقلال من الطعام والنوم والملابس وغير ذلك مما يميت الشهوات البهيمية ويقتل النزعات الحيوانية ، ليخلص العقل وتفرغ الروح للاهتمام بما هو أولى أن يهتم به من العمل للحياة الروحية الخالصة . أولئك هم رهبان الغرب ونساك الشرق من آباء الكنيسة . ومذهب الأولين الرهبانية ومذهب الآخرين العزلة والانفراد .

وأساس المذهبين رياضة النفس . وهى عنصر من عناصر كل الديانات وكل مذاهب الفلسفة فى كل العصور لدى كل الأمم والطوائف وبخاصة لدى اليهود والفرس والمصريين والفيثاغوريين والرواقين والكلبيين وسواهم ممن اتصلت بهم النصرانية فى أيامها الأولى من الأمم والطوائف . من أجل ذلك ظهر هذا النوع من الرياضة أولا بين نصارى الشرق . ثم ذاعت هناك ومال إليها كثير من النصارى اقتداء بالقديس انتونى «٢٥١ — ٣٥٦» من آباء الوجه القبلى بمصر الذى تصدق بماله على الجيران والفقراء وآثر العزلة والانفراد للنسك والعبادة بجوار قريته . ثم خرج إلى الصحراء حتى البحر الأحمر حيث بنى خلوة أقام بها وحيدا صابرا عن الشهوات محملا نفسه أنواع التعذيب والكفارات . أما برومة فقد ظهرت الرهبانية على يدى

القديس اتانيوس (٢٦٩ — ٣٧٣) وأصبحت سنة الغرب برضى القديس جيروم عنها وميله إليها .

وبظهور الرهبانية بالغرب أصبح رجال الدين طائفتين : —

(١) العالميون وهم الذين يخدمون الكنيسة وهم على اتصال بالدنيا وأهلها . وكانت تربية هؤلاء بمدارس الكنائس التى أشرنا إليها فيما مضى

(٢) الرهبان أو رجال الدين الخالصين . وكانت تربيتهم بالأديار

قوانين الديورة [١] والتربية

نشأتها : كان نساك الشرق يخلو أحدهم بنفسه ، فلا يخالط العامة من غير رجال الدين ، ولا يخالط إخوانه من النساك والزهاد مثله . فلم يكونوا فى حاجة إلى قوانين . فان القوانين إنما تكون فى المجتمعات لتنظيمها وتحديد الحقوق والواجبات

أما رهبان الغرب فكانوا يعيشون جماعات وطوائف ، لكل طائفة دير يقيمون به ويتعبدون فيه . من أجل ذلك كانت لهم قوانين تنظم حياتهم بالديورة فى كل شىء حتى أدق الشئون وأصغر الأمور .

قوانين بندكت . من طوائف الرهبان «طائفة بندكت» . وهى منسوبة إلى القديس بندكت (٤٨٠ — ٥٤٣) . وكان من بطارقة الرومان وأشرافهم . وقد هالته المفاسد التى كانت فى عصره منتشرة بمجامع رومة . ففر منها مؤثرا عليها عزلة الدير . واختط لنفسه فى النسك والعبادة خطة أعجبت كثيرا من الناس ، فتبعوه وانضموا إليه ، وعرفوا باسمه .

وفى سنة ٥٢٩ وضع لطائفته قوانين يسيرون عليها . ولحسنها جعلها البابوات جزءا من قوانين سائر الأديار . وكانت موادها فوق السبعين ، بها

---

(١) يجمع الدير على أديار وديورة كبعل وبعولة . أما جمعه على (أديرة) فالظاهر أنه من اللحن الشائع

حدت واجبات رئيس الدير ، وواجبات الرهبان ، ونظمت العبادة وبينت أنواع التأديب والكفارات وجزاء الذنوب والخطيئات ، وكيف تدار الديورة ويستقبل الزائرون . وما يتحلى به الرهبان من الآداب فى الحل والترحال ، وغير ذلك من دقائق الأمور والشئون .

تحتم أعمالا يدوية . إنما يهمنا من قوانين بندكت ماله علاقة بالتربية والتعليم . ذلك أنها تضمنت مواد تحتم [1] على الراهب أن يقضى من وقته كل يوم سبع ساعات فى عمل يدوى نافع ، مع خضوعه التام فى اختيار ذلك العمل وطريق آدائه لإرادة رئيس الدير .

وقد كان الغرض من الأخذ بتلك الأعمال مجرد صون الرهبان من مفسدة البطالة والفراغ وشرورهما . وليس ذلك كل الغرض الذى من أجله نأخذ أحداثنا بالأشغال اليدوية . فلنا مع هذا الغرض أغراض أخر : مثل كسب المهارة باخضاع عضلات الحركة وأعصابها لسلطان الإرادة ، والاستعانة بكثير من الأعمال على تفهم الأطفال كثيرا من الحقائق والمصطلحات كمبادئ تقويم البلدان والهندسة ، وإرضاء نزعات الأطفال ومحبتهم للعمل والحركة . بيد أن فكرة الرهبان فى الأعمال اليدوية وماتضمنتها من المعانى الخلقية والاجتماعية ، كانت أنفع وأجدى من فكرة اليونان القدامى فيها .

توجب القراءة : كما حتمت قوانين بندكت على الرهبان القيام ببعض الأعمال اليدوية ، أوجبت عليهم أن يقضى كل منهم فى القراءة من ساعتين إلى خمس من وقته كل يوم . وعينت الأجزاء التى تقرأ من الإنجيل أو وصايا الآباء القديسين . وقضت بمراقبة الرهبان حتى لا يقضوا أوقات القراءة فى لهو أو حديث أو نوم

القيمة الاجتماعية لتلك القوانين : كان للعمل بتلك القوانين نتائج طيبة

---

(١) مضارع حتم (كضرب) . والظاهر أنه لا يستعمل مضعفا كما هو الشائع .

عادت على المجتمعات حول الديورة بالخير العظيم . بفضل تلك القوانين كانت الديورة ملاجىء للفقراء ، مستشفيات للمرضى ، مأوى للمصابين والبائسين . وقد تنوعت الأعمال التي قام بها الرهبان تنفيذا لتلك القوانين : قاموا بأعمال أدبية وأعمال اقتصادية وأخرى صحية . نسخوا الكتب لحفظوا العلوم من الضياع . وزرعوا الحقول ، واستنبتوا الأزهار ، وغرسوا الأشجار بالحدائق والبساتين ، وبنوا الديورة ، وغزلوا الصوف ، وحاكوا المنسوجات وخاطوا الملابس ، ودبغوا الجلود ، وصنعوا الأحذية . فكانوا في ذلك قدوة لسواهم من أهل الدنيا . وكانت أعمالهم نماذج للزارع والصناع من كل الأصناف والأنواع . وكذلك ردموا البرك والمستنقعات حول الديورة . لحسنوا حال المدن والقرى من الوجهة الصحية . ومانظرية مندل في الوراثة وكيفية توزيع الصفات على الأعقاب إلا حسنة من حسنات الديورة وثمرة من ثمار تلك الأعمال التي قام بها الرهبان تنفيذا لقوانينها . أجل أن مندل من رهبان القرن التاسع عشر . ولكن قوانين الديورة في ذلك القرن وفي العصر الحاضر ترجع في نشأتها إلى قوانين بندكت التي كان معمولا بها في القرون الوسطى .

أغراضها التربيبية : [1] : ربما كانت قوانين الديورة مختلفة متباينة في تفاصيلها . ولكنها كانت جميعا ترمي إلى أغراض واحدة يجمعها كلمة واحدة : الورع . ولذلك كان أفضل الرهبان أقدرهم على ابتكار طرق جديدة لتعذيب الجسم وإماتة شهواته . كانوا يتوسلون لذلك بالصوم ، والإقلال من النوم ، وتخفيف الملابس ، وتناولهم من رديء الطعام قليلا لا يقوم بحاجة الأجسام من الغذاء ، واتخاذهم في قيامهم وجلوسهم أوضاعا متعبة للجسم مضنية له وبقائهم على تلك الأوضاع أزمانا طويلة قد تبلغ الأشهر أحيانا ، وعدم تعهد الجسم

---

(١) نسبة إلى التربية بعد رد اللام إلى أصلها . فان ربى أصلها ربب كما أن أملى أصلها أمل ، وتمطى ، تمطط ، وأخصى ، أخص

بالنطاقة والاستحمام ، وتقييد الأطراف بالأغلال ، وحمل السلاسل والأثقال وسائر الذرائع المضعفة للشهوات الجسمية .

ذلك نظام فى العبادة أخرق . وقد يضعف العقل أو يذهب به ، أو يجعله على الأقل نهبا للهواجس والوساوس وتصورات الصرعى والمجانين . وعلى الرغم من هذا يظهر أنه قل من الرهبان من لاحظ الخطر الذى قد ينجم من اتباع مثل تلك الخطط القاسية . هى رهبانية قال الله فى ذمها وذم منتحليها : — « ابتدعوها ما كتبناها عليهم » . فيها من المشقة مالا تقتضيه التكاليف الدينية . ولذا نهى الدين الإسلامى عن أن يحمل المكلف نفسه مثل تلك المشقة ، ولم يقبل التقرب إلى الله تعالى بها ، وأوجب الإتيان بالتكاليف مجردة عنها . يدل على هذا ما أخرج البخارى وأبو داود عن ابن عباس قال : — (بينا النبي صلى الله عليه وآله وسلم يخطب إذ هو برجل قائم . فسأل عنه . فقالوا : — أبو إسرائيل نذر أن يقوم فى الشمس ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم وأن يصوم » . فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : — « مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه » . نذر هذا الرجل الصيام قائما فى الشمس . فأمره الرسول بإتمام الصيام وفاء بالنذر ، ونهاه عن تعذيب نفسه بالتعرض لحر الشمس قائما . هكذا يكون الاعتدال فى العبادة ، وهكذا يكون الاعتدال فى التكليف . أما أن نفعل ما كان يفعل الرهبان فى العصور الوسطى فليس من الدين فى شىء . وانظر إلى الشرع الشريف كيف دفع المشقة بتشريع الرخص . رخص فى الفطر للمسافر والمريض . وقال : — « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » . ورخص فى القعود فى الصلاة لمن عجز عن القيام . وحكم الله فى ذلك أن العابد إن أخذ فى ذلك ونحوه بالرخص ، فقد تخير لنفسه مااختاره له ربه . وإن أراد العمل بالعزيمة ، فليس له ذلك إذا علم أو ظن أن ذلك يترتب عليه فساد فى نفسه أو جسمه . وإذا أتى العزائم غير ظان سوء النتيجة وجب عليه تركها إذا عرض له منها فساد . يدل على ذلك

ما روى مسلم والنسائى والترمذى عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج إلى مكة عام الفتح فصام حتى بلغ كراع الغميم وصام الناس معه فقيل له : — إن الناس قد شق عليهم الصيام . فدعا بقدح من ماء بعد العصر . فشرب والناس ينظرون إليه. فأفطر بعضهم وصام بعضهم . فبلغه أن أناسا صاموا . فقال : — « أولئك العصاة . أولئك العصاة » .

وفى البخارى عن أنس بن مالك أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم دخل المسجد فإذا حبل ممدود بين ساريتين . فقال : — « ما هذا الحبل ؟ » فقالوا : — « هذا حبل لزينب . فإذا فترت تعلقت » . فقال : — « لا . حلوه . ليصل أحدكم نشاطه . فإذا فتر فليقعد » . فأين من هذا التيسير تعسير الرهبان ؟ .

ومع هذا هم يزعمون أنهم إنما عملوا على إضناء الجسم لتقوى الروح ، وعلى إماتته لتحيا وتنشأ على الفضيلة والخلق الحسن !

تلك كانت وسائل التربية التى سادت الديورة فى القرون الوسطى ، وتلك كانت الغاية التى يرمون إليها .

وكثيرا ما عبروا عن تلك الغايات مجموعة كلها فى ثلاث كلمات : الإنابة والثبات والطاعة .

مساوى ومحاسن : إن الرهبانية بغاياتها الثلاث قوامها الإعراض عن الدنيا ولذاتها ، فهى نوع من التربية التهذيبية لا يخضع له إلا من لا يحسب حساب أمر ذى شأن عظيم فى كل مجتمع بشرى . ذلك هو الأسرة . لم يكن الراهب كسائر الناس . لم يكن همه أن يكون له بيت يرعى فيه زوجه وأولاده ويربيهم لينشئوا أعضاء عاملين فى أمتهم . وإنما كان كل همه التقرب إلى ربه بما تخيله أنجع الوسائل وأنجحها . لم يكن لأمته ولا لأسرته ولا للحياة الاقتصادية حوله ، عليه من سلطان . وإنما خضع لسلطان الكنيسة والدين ، ونسى كل ما عداه حتى نفسه .

أين من هذا تنوع المطالب الإسلامية التى يكلفها المسلم . أنها ليست كلها حقوقا لله تعالى . بل منهـا مايتعلق بالخالق . ومنها مايرجع إلى المرء نفسه من رعاية الجسم والنفس . ومنها مايرجع إلى ولده . ومنها مايرجع إلى أهله . ومنها مايرجع إلى قومه . من ثمّ يـكون ملوما إذا أوغل فى عمـل شاق قد يقطعه عن أعمال أخرى أو يجعله يقصر فيها ، فيبوء بإثم تركها أو الوقوف فيهـا دون حدّ الـكمال . يدل على هذا ماروى البخارى من أنه صلى الله عليه وآله وسلم آخى بين سلمان وأبى الدرداء . فزار سلمان أبا الدرداء . فرأى أم الدرداء وهى زوجه ، متبذلة . فقال لهـا : — « ماشأنك ؟ » قالت : — « أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة فى الدنيا » . فجاء أبو الدرداء ، فصنع له طعاما ، فقال له : — « كل فإنى صائم » . فقال . — « ما أنا بآكل حتى تأكل » . فأكل . فلما كان الليـل ، ذهب أبو الدرداء يقوم . فقال : — « نم » . فنام . ثم ذهب ليقوم . فقال : — « نم » . فلما كان من آخر الليل ، قال سلمان : — « قم الآن » . فصليا . فقال له سلمان : — « إن لربك عليك حقا ، ولنفسك عليـك حقا ، ولأهلك عليك حقا فأعط كل ذى حق حقه » . فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فقال : — « صدق سلمان » .

لـكنا إذا قرنا طاعة الرهبـان وتواضعهم وخضوعهم للسلطان ، بصلف الرومان ، وفردية الأفاقين من برابرة الجرمان ، وميلهم إلى الاستقلال إلا عن سلطان أنفسهم وأهوائهم — إذا وازنا تلك الموازنة ، وجدنا أن الرهبانية بمـا نصبت من المثل العليا لحياة الزهد والورع كانت معوانا على قيام النظم الاقتصادية التى سادت أوربا فى القرون الوسطى ، وماشهدت من الحروب الدينية ، ثم نشأة المدينـة الحديثـة التى تتمتع الآن بثمارها . فمن يدرى لعل النظام الأقطاعى — ومبناه كما تعرف الطاعة والخضوع — لم يتيسر لأوربا إلا لسيادة مبـادئ الرهبانية بين أهلها . والغالب أنه لولا الرهبـانية ، ما كانت الحروب الصليبية — وهى ماهى لدى المسيحيين . ولولاها أيضا ماخضع الجفاة

غلاظ الطباع من التوتون لسلطان المدنية الحديثة ولا تذوقوا مزاياها وثقافتها ولبقوا فى بربريتهم سادرين زمانا لا يدرى مداه إلا الله تعالى .

التربية المدرسية غير مقصودة : مما تقدم يبين أن الرهبانية إنما كانت لغايات خلقية دينية محضة ، ولم تكن للتربية الفنية ولا للثقافة المدرسية بمعناها المعروف . ولذا رأى كثير من المنصفين مجانبا للسداد أن يؤخذ على الرهبان قلة ما بذلوا فى سبيل نشر التربية والتعليم . فأى معهد أنشىء لغايات محدودة ، لا يلام القائمون بأمره إذا لم يهيئوا به فرصا لغايات أخر . ولكن اللوم على الأديار والكنائس معا إنما هو من ناحية أخرى : ذلك أنها تآلبت على ألا تنبت فى أذهان الناس فكرة فى التربية تخالف فكرتها فيها ، وعلى ألا تقام للتربية معاهد سواها . فبقيت الأديار المعاهد الوحدة للتربية والتعليم تقريبا حتى القرن الثالث عشر .

إنما كانت بها عرضا : ليس معنى ما قررنا فى الفصل السابق أنه لم يكن بالأديار تعليم ودرس وتحصيل كالذى بالمدارس الآن . فقد كان بها . لكنه كان عرضا غير مقصود . كان من حظ بعض الرهبان فى أديار قليلة عرفت فى التاريخ بأنها كانت مراكز ممتازة لتحصيل العلوم والمعارف ، منها دير « فلدا » بألمانيا ، ودير « تورز » بفرنسا ، و « سنت جال » بسويسرة ، و « مونت كازينو » بإيطاليا ، و « كنتربرى » بانجلترا . وقد كان بجانب هؤلاء القليل الممتازين بتفوقهم فى العلم وتبحرهم فى المعرفة ، جمهرة من الرهبان فى معظم الأديار اتخذوا شعارهم : « أحب درس الكتب المقدسة تكره المعاصى » .

وقد رأيت كيف قضت قوانين الأديار أن يقطع الراهب طائفة من زمانه كل يوم فى القراءة . ويقتضى ذلك طبعا سبق تعلمه كيف يقرأ ، كما يقتضى سبق وجود الكتب التى يقرؤها ، ولم تكن المطابع معروفة فى تلك الأيام ، فلم يكن بد من نسخ الكتب التى يقرؤها الرهبان . وذلك يوجب

أن يتعلم القراءة والكتابة نساخو الكتب من الفتيان الذين كانوا يهبون أنفسهم للأديار .

ثم أننا بصدد عصور ساد فيها الاضطراب ، وكثر النزاع والخصام ، وعمت الفوضى ، وزعزعت الحروب أركان الطمأنينة والسلام . فكان محب العلم ، المحتاج من أجله إلى الهدوء والخلاص من الهموم ، لايجد ماينشده إلا بين الرهبان وفى خلوات الأديار .

وقد كانت الأديار ، كما مر ، حمى من لاحمى لهم ، وملجأ من رزىء في الأهل والخلان . وكانت القراءة والدراسة فيها سلوى له لايجدها فى سواها ، وكان من أضنتهم أعباء الحياة ، وعضتهم وحشية الناس ، وحزتهم إلى العظم سورة الأيام وقلة المبالاة بهم والاكتراث لهم ، يجدون فيها للراحة موطنا هادئا ، وفى مسرات التأملات الفكرية والتوفر على الدرس ترضية وتعويضا عما خسروا ، وتكفيرا من الدهر عما حملهم من المحن والارزاء

وقد عرفت كذلك أن الرهبان كانوا ينسخون الكتب : فعلوا ذلك أما شغلا لأنفسهم فى وقت الفراغ تنفيذا لقوانين الأديار ، وأما محبة للعلم وشغفا به . ومهما يكن من السبب الذى دعاهم ، فان الدلائل تدل على أنهم لم يقفوا عند حد النسخ الآلى ، وإنما كانوا يعملون على تفهم مايكتبون ليعملوا به . فاستفادوا بذلك عقليا وخلقيا . كانت عملية النسخ هذه فى حجرة من حجرات الدير تخصص لها أو «تكرس» كما يقولون . وقد كان هذا التخصيص عادة يصحبه دعاء أثر منه مايأتى : «ربنا هب لهذه الحجرة — حجرة خدمك وعبيدك — بركة منك ، وارزقهم من الفهم مابه يدركون مرامى مايكتبون ، وامنحهم من الهداية والتوفيق ليعملوا بما منه يعلمون ويفهمون» .

بهذه المجهودات قامت الأديار بما تقوم به المدارس من التعليم ، وبما تقوم به الجامعات من البحوث العامة ، وبما تقوم به المطابع من نشر الكتب ،

وبما تقوم به دور الكتب من حفظ العلوم والمعارف . وفيها دون سواها تخرج العلماء . لأنه لم يكن فى عصرها مدارس سواها . غير ان شيئا من ذلك لم يذكر نصا فى قوانينها . وإنما جاء عرضا ، وليتأتى تنفيذ ما نص عليه القانون

مدارس الأديار

عرفت أن الرهبان كانوا فى حاجة إلى القراءة ، وانهم كانوا لذلك فى حاجة إلى تعلم القراءة وفى حاجة إلى الكتب ، وإن الكتب كانت تنسخ ولا تطبع ، وإنهم من أجل ذلك احتاجوا إلى تعليم بعض الصبيان القراءة والكتابة ليقوموا بعملية النسخ . من هذا نشأت مدارس الأديار . وقد تقلبت فى أطوار مختلفة من حيث تلاميذها ومنهاجها ومدة الدراسة فيها ، واختلفت تبعا لذلك قيمتها ونتائجها .

فقد كان التعليم بها أول الأمر دينيا مقصورا على الرهبان أو من مآلهم الرهبانية من الصبيان . وكان هؤلاء وأولئك يتعلمون مع مايتلقون من أمور الدين ، مبادىء القراءة والكتابة والحساب ، ويدربون على الغناء ، وكانت مدة التدريب على تلك الفنون قصيرة غير كافية لاتقانها .

ثم سنت قوانين قضت ألا تقل سن الراهب عن ثمانى عشرة سنة ، وأن يقضى الصبي فى مدارس الأديار سنتين قبل أن يكون راهبا . ولما كان كثير من الصبيان يدخلون الأديار قبل الثالثة عشرة ، كان طبيعيا مع القيد السابق أن تطول مدة تعليمهم بمدارس الأديار

وعلى أية حال فان تلك المدارس ظلت قليلة وظل التعليم بها أوليا مقصورا على الرهبان والأولاد الذين وهبوا حياتهم للرهبانية ، حتى نهاية القرن الثامن الميلادى . ثم كثرت وارتقى بها التعليم وعم خيرها الرهبان والمرشحين للرهبانية وسواهم . وقد كان ذلك بفضل النهضة التى قام بها شرلمان كما يأتى .

وقد بقيت مدارس الأديار المعاهد الوحدة للتعليم تقريبا ، حتى القرن

الحادى عشر ، كما بقيت مناهج التربية بلا تغيير يذكر حتى القرن الثالث عشر : كان كل دير مدرسة طول تلك المدة . وفيها كانت كل تربية اما بالدير وإما تحت إشراف الرهبان

كان الأوربيون فى تلك العصور فى درجة الوحشية تقريبا : أكثر ميلهم إلى الحرب والتدمير لاإلى التربية والتعليم . فلا لوم على الأديار فى أن لم تكن المدارس أكثر مما كانت ، وأنه لم تكن مناهجها أحسن وأشمل .

وكفى الأديار فضلا أنها فى تلك العصور المظلمة حافظت على كثير من العلوم من أن تعدو عليها عوادى النسيان أو تمتد إليها أيدى الضياع والفناء

التأديب بها : اتبع الرهبان والقساوسة فى تأديب تلاميذهم الشدة دون اللين ، والمخاشنة دون المحاسنة . والإيحاش دون الإيناس ، والترهيب دون الترغيب ، حتى لقد كانت العصا الوازع الوحيد للتحلى بالفضائل ، والتخلى عن الرذائل . قال بعض المربين من الفرنجة : «ليس العقاب البدنى المزرى بشرف بعض المدارس الأوربية إلا سيئة من السيئات التى ورثوها عن أسلافهم من القساوسة والرهبان» . وإذا كان من ثمار تلك القسوة أن ألفوا أبناء مدارسهم يقتل بعضهم بعضا ، ويحرقون الأديار ثأرا وانتقاما ، ويبتكرون من مظاهر التمرد وسوء الأدب أصنافا وألوانا — فانما حصدوا مازرعوا ، وجنوا ثمار مابذروا . وإنك لاتجنى من الشوك العنب (١) .

حظ الرهبان من التدوين : الرهبان رجال دين . فكان طبيعيا أن يكون ميلهم محدودا ، وأن يكون مجال اهتمامهم ضيقا . ولكنهم مع ذلك دون سواهم تقريباهم الذين قاموا بتدوين آداب القرون الوسطى قبل انتشار آداب اللغات الوطنية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر . وإذا كان نتاج علماء

---

(١) وازن بآراء المربين من عرب الاسلام فى وسائل التربية الخلقية . هذا الكتاب صفحة ٩٦ وما بعدها

الكلام فى النصف الثانى من القرون الوسطى أهم من نتاج الرهبان فانما كان الأولون رهبانا قبل أن يكونوا علماء كلام .

وقد شمل ما ألفه الرهبان فى العصور الوسطى تراجم القديسين وحكايات أدبية ذات مغاز تهذيبية ، وعظات منبرية ، وتفسير الانجيل وتاريخ الأديار .

الفنون السبعة

العصور الوسطى كما يؤخذ من اسمها عصور توسطت بين القديمة والحديثة . وقد ورثت من القرون القريبة منها نتفا من معارفها ، كما نشأت فيها العلوم التى نضجت فى القرون التى تلتها . تلك المعارف التى ورثتها ، على قلتها وضآلتها ، لم تستقها العصور الوسطى من مصادرها الأصلية ، ولم تحصل عليها كما تركها أربابها من القدماء . وإنما وصلتها فى أجف الصيغ والقوالب من علماء القرون المسيحية الأولى وبخاصة كابلا [١] وأوجستين [٢] من علماء القرن الخامس

وقد كانت ، كما وصلتها من هؤلاء ، مختصرة مقسمة إلى الفنون السبعة الأدبية . وهى النحو والبلاغة والمنطق والحساب والهندسة والموسيقى والفلك وقد شملت تلك الفنون كما فهموها فى تلك العصور مالا تشمله الآن .

---

(١) هو مارتيانوس كابلا رومانى من شمالى إفريقية ، كان عليما بالآداب القديمة والثقافة الوثنية . كتب فيما بين سنة ٤١٠ وسنة ٤٢٧ فى الآداب السبعة كتابا سماه قران المعرفة والاله هرمس . وقد كان بين كتب الآداب القديمة أكثرها استعمالا بمدارس أوروبا بالنصف الأول من القرون الوسطى

(٢) هو القديس أوجستين السالف الذكر . وقد كان معلم البلاغة والخطابة حتى منتصف حياته . وله موسوعة فى الآداب السبعة . وبعد أن كان راضيا بتعلم الآداب عاطفا عليها انقلب فضن بذلك العطف وثبط الهمم عنها ، حتى لقد قيل : إنه كان مسئولا عن قرار مجمع قرطاجنة القاضى بتحريمها . وقد تقدم ذكر ذلك .

فالهندسة مثلا شملت مبادىء تقويم البلدان ، ودرست الطبيعة تحت اسم الفلك . وشمل النحو والبلاغة التاريخ وآداب اللغة .

ولكن المقدار الذى حصلوه من الآداب القديمة فى دروس النحو والبلاغة كان يختلف باختلاف الأديار ونزعات القائمين بالأمر فيها . فيروى عن رهبان سنت جال بسويسرة ورهبان منت كازينو بايطاليا أنهم لم يتركوا علما إلا حصلوه ولا عملا إلا أتقنوه . ويروى من جهة أخرى أن الكون [1] كان فى أخريات أيامه ضد المعارف والآداب القديمة ، وإنه كان يقول لتلاميذه فى تورز : «إن الشعر المقدس فيه كفايتكم . ولا داعى إلى تكدير صفو عقولكم بشعر فرجل «شاعر رومانى»

ويمكن أن يقال إن النزعة التى غلبت على الرهبان بالأديار أنهم كانوا يحاربون الآداب القديمة للأسباب التى عادتها من أجلها الكنيسة الغربية .

الاصلاح المدرسى فى عهد شرلمان

نشر الثقافة القديمة : جعل قسطنطين المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية . وقد نشرت بين الجرمان بما بذلته من الجهود الكنيسة الكاثوليكية المقدسة . ثم نقل إليهم شرلمان المدينة الرومانية من الوجهة السياسية والقانونية بما أسس بينهم من الإمبراطورية الرومانية المقدسة . وبقى عليه من مقاصده فيهم أن يحيى العلوم القديمة بينهم ، وأن يأخذهم بالثقافة الرومانية ، حتى يتم لهم انتحال جميع العناصر المقومة للمدنية الرومانية «الدين

---

(١) ألكون عالم انجليزى من أهل يورك (٧٣٥ — ٨١٤) كان رئيس مدرستها وقد دعاه شرلمان إلى فرنسا كما سيأتى ليساعده فى الاصلاح المدرسى الذى قام به . ومنحه رياسة دير تورز من مدن فرنسا على نهر لوار . وقد كان محبا للآداب القديمة ولكنه فى كبره مال إلى الرجعية . فزهد فيها كما ترى فى خطابه لتلاميذه بتورز

والقانون والعلم، ليتخذوها أساسا لما قدرأن يكون نصيبهم من تشييد المدنية الحديثة والحضارة الحاضرة .

مدرسة القصر : كان الكون الذى أشرنا إليه فيما سبق رئيس مدرسة يورك بانجلترا . فاستدعاه شرلمان إليه ليساعده فيما قصد له وشجعه بمنحه رياسة دير تورز . فأنشأ الكون مدرسة بالقصر الإمبراطورى انتظم فى سلك طلبتها الأمراء وأبناء الأشراف والرهبان . وعلى رأسهم جميعا الإمبراطور نفسه . فقد كان أميا . وعلى الرغم من كبر سنه زاول وهو كبير من تعلم القراءة والكتابة مالا يقوى عليه بسهولة إلا صغار السن من الأطفال والصبيان . ولكنه توفر على ذلك ليكون مع الأمراء وأبناء الأشراف قدوة لرعيته فى محبة الثقافة والأدب .

تربى البرهان فى مدرسة القصر تربية حسنة . ثم بثهم شرلمان فى الأديار المنتشرة بأقطار الإمبراطورية ليكونوا مناهل للعلوم يردها الواردون ، وشموسا للعرفان يقتبس من نورها الراغبون . مثال ذلك ربانوس (٧٧٦ - ٨٥٦) أنجب تلاميذ الكون بمدرسة القصر . أسندت إليه رياسة دير فلدا بألمانيا الشمالية ، فكان له فى تلك الجهات وما حولها من حميد الأثر ما كان لأستاذه بفرنسا . وقد كان ميالا إلى المنطق عارفا لقيمته حتى سماه علم العلوم وعلم التعليم والتعلم .

وبقى قليلا لمدرسة القصر بعد شرلمان والكون ما كان لها فى حياتهما من النشاط فى خدمة العلم . والفضل فى ذلك لأشهر خلفاء الكون بها جان الإسكتلندى « ٨١٠ - ٨٧٥ » : دعاه من الجزر البريطانية تشارلس الجسور كما دعا شرلمان الكون من قبل . وكان يفوق كلا من الكون وربانوس علما ومقدرة . ولذلك أحيا دراسة اللغة الإغريقية . ودرس قران المعرفة لكابلا دراسة جدية . وعنى بالمنطق وشجع على الجدل الدينى . فخرّجت مدرسة القصر لعهده علماء لم يربين التوتون مثلهم غزارة مادة وسعة معرفة بالعلوم القديمة .

نظم شرلمان المدرسية : رأيت كيف نشر شرلمان العلم بأرجاء الإمبراطورية المقدسة بتقريبه العلماء وتشجيعه إياهم ، وإنشائه مدرسة القصر لتعليم الناس ، وتحبيبه إليهم العلم وتزيينه فى قلوبهم بتوفره بنفسه على طلبه . وزاد أن وضع للتربية نظما عدّها بعضهم أساس النظم الحديثة . وقد حتم فيها على الرهبان والقساوسة أن يكونوا على علم بالآداب قديمها وحديثها . وأن يكون لكل دير مدرسة يعلم بها الصبيان المزامير والموسيقى والغناء والحساب والأجرومية . وأوجب أن تكون الكتب التى يعطاها الصبيان بريئة من الغلطات والأخطاء ، وأن يؤخذ الصبيان بحفظها من الدنس والتمزيق وهم يقرءون فيها أو يكتبون منها .

إصلاح المدارس : عنى شرلمان بمدارس الكنائس فأصلحها فى عدة مدن فسهل التعليم الأولى على طالبيه من أبناء الطبقة الدنيا ، حتى لقد قيل إن المدارس الأولية كانت بفرنسا فى القرن الثامن أكثر انتشارا منها فى بدء القرن التاسع عشر .

مدارس الجدل

متى كانت : لم تلبث أن ماتت مساعى شرلمان بموته . فبكته التربية . لأنها لم تجد لها من معظم خلفائه نصيرا . ولذا كان القرنان العاشر والحادى عشر أيام جهل ووحشية أكثر من القرن التاسع . أما القرنان الثانى عشر والثالث عشر فقد شهدا مساعى علماء الكلام .

نشأتها : — قيدت الكنيسة الحرية الفكرية . فكان الغالب على الناس فى النصف الأول من القرون الوسطى التسليم والانقياد لما يجىء به أئمة الدين ، وتحريم الشك والمعارضة ، وتقبل العقائد والأقوال والأفعال التى تقرّها الكنيسة وترتضيها . أما النصف الآخر منها فقد تطلب موقفا آخر .

فإن الشرق تسرب منه إلى الغرب بدع رأى علماء الكلام وجوب إزالتها بالجدل والبرهان كما تجب محاربتها بالسلاح والكراع

غرضها : — من أجل ذلك قام علماء الكلام بتأسيس مدارس الجدل. وغرضهم تقوية الدين بالعقل ، وصوغ العقائد الدينية فى قوالب منطقية ، والدفاع بالبراهين العقلية،وإزالة الشكوك بالمناظرة ، وردالاعتراضات بالمجادلة

موادّها : — وقد كانت وسيلتهم إلى تلك الأغراض دراسة المنطق وفلسفة اليونان وبخاصة فلسفة ارسطو ؛ ثم تطبيق تلك الدراسة بصوغهم فى قوالب منطقية مسائل التثليث والقضاء والقدر والجبر والاختيار والعشاء الربانى ونحوها ، وإيرادالاعتراضات عليها لدفعها بالأجوبة المسكتة ، ورد كل تأويل للكتب المقدسة لا يتفق هو والدين الصحيح .

موازنة : — بما قدمنا لك تجد شبها كبيرا بين مدارس الجدل المسيحية وعلم الكلام لدينا فى النشأة والغرض والوسيلة والبحث . فإنما مست الحاجة إليه لما اتصل المسلمون بفلاسفة الإغريق والرومان والفرس والهنود الذين دخلوا فى دين الله أفواجا . ومن أجله أكب المسلمون على دراسة المنطق والفلسفة . وبذلك استطاعوا أن يحمعوا العقائد الإسلامية ضد الشبه الوثنية بالبراهين العقلية المصوغة فى قوالب منطقية (١)

نجاحها : صادفت مدارس الجدل بأوربا نجاحا عظيما وأقبل الناس على علماء الكلام ليأخذوا عنهم علوم الثقافة القديمة . وقد ساعدهم فى ذلك أمور . منها أن الشرق صقل عقول الغرب لما اتصلا فى الحروب الصليبية . ومنها أن القيود التى قيدت بها الكنيسة الحرية الفكرية كانت مثار التمرد النفسى ، وأن منعها الناس من العلوم الفلسفية كان باعثا لهم على حبها والإقبال عليها

---

(١) راجع ماقال الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده عن نشأة علم الكلام فى رسالة التوحيد.

لأن كل ممنوع متبوع وبعض اللوم اغراء. ومنها أن مدارس شرلمان بعثت في نفوس الناس الاهتمام بالمنطق وسائر العلوم العقلية.

جامعات أوربا بالعصور الوسطى

نشأتها : يمتاز القرن الثانى عشر من القرون الوسطى بأنه شهد نشأة الجامعات بأوربا الغربية. ويمكن ارجاع العوامل فى تأسيسها إلى ما يأتى : —

(١) من قبل هذا العهد بدأت الحروب الصليبية فأخرجت الغرب عن عزلته فاتصل بالشرق، وأخذ عنه ما امتاز به دونه من حرية الرأى والمجاهرة به، ومحبة البحث والنظر. وانتقلت إليه منه الثقافة العربية، ورد إليه ما اؤتمن عليه العرب أحقابا طويلة من آراء أرسطو وحكمة الإغريق.

(٢) فى القرنين العاشر والحادى عشر ترك التوتون حياة الهجرة والخصام الداخلى، وقبلوا حياة الاستقرار والوئام فكان القرن الثانى عشر بأوربا عهد هدوء وسلام نسبيين فرغت بفضلهما أوربا للاهتمام بتأسيس حضارة ثابتة الأركان متينة الدعائم. فكان فيما اهتمت به شئون الثقافة والتربية العالية - تربية الجامعات.

(٣) حوالى هذا العهد نشطت التجارة الأوربية وأنشئت الحكومات المحلية وبخاصة بالمدن الإيطالية. فبعث ذلك فى النفوس اهتماما بالشئون الدنيوية وفى مقدمتها العلوم والمعارف

(٤) ثم ظهر على المسرح علماء الكلام فوجدوا الناس متطلعين لمن يرقى بهم صعدا ويدفعهم قدما. فما لبثوا أن فكوهم من القيود التى غلت بها الحركة الفكرية وأعدوهم لقبول البحوث النظرية والتأملات العقلية. وذلك عمل الجامعات

بهذه العوامل أنشئت مدارس فى الأنحاء المختلفة بأوربا كانت فى القرن

الثانى عشر والقرون بعده نواة منها نبتت الجامعات . فمن ذلك جامعة بولونا بشمالى إيطاليا ، وجامعة نابلى ، وجامعة باريس ، وجامعتا اكسفورد وكمبردج

ومااتجهت الأفكار نحو إنشاء الجامعات حتى نمت بسرعة فبلغت ١٩ جامعة بالقرن ١٣ و٤٤ بالقرن ١٤ و٧٤ فى القرن ١٥

وقد خالفت الجامعات الأديار من جهتين

١ ــ كانت بالمعمور من المدن . أماالأديار فكانت بالخلوات

٢ ــ كانت حكومتها ديمقراطية وحكومة الأديرة استبدادية للرئيس الآمر وعلى الرهبان الطاعة

وكانت لأساتذتها وطلبتها ماللقساوسة ورجال الكنيسة من الامتيازات

(ا) كالإعفاء من الخدمة العسكرية إلافى أحوال استثنائية ، مثال ذلك بباريس ألايعفى الطالب إذا كان العدو على بعد خمسة فراسخ من المدينة، (ب) والإعفاء من الضرائب (ج) والمحاكمة الداخلية (د) ومنح الدرجات ونظيرها عندنا فى بعض هذه الامتيازات دار العلوم والمعاهد الدينية الأزهرية

وكان الأساتذة والطلبة يقسمون باعتبار اللغة والوطن إلى أمم على نحو ماترى بالأزهر من تقسيم طلبته إلى مغاربة وشوام وأكراد وغيرها . وكان بيد كل أمة محاكمة من يخرق من أبنائها سياج القوانين الخلقية أو المدنية أو الدينية

وكان الحاصلون على درجات الجامعة يقسمون باعتبار العلوم طوائف (هيئات) كطائفة القانون وطائفة الطب وطائفة الفنون . وكان بيد كل طائفة من هذه الطوائف منح درجة العلم الذى تنتمى إليه للطلبة المرشحين للعالمية فيه .

وكان يدير الجامعة رئيس يختاره سنويا فى الغالب مجلس تنتخب له كل أمة وكل طائفة عضوا منها يمثلها فيه . وبذلك كان حكم الرئيس بالنيابة عن

الأمم والطوائف وقوته مستمدة منهم . ولكنه بتوالى الزمن تحكمت السياسة فى تعيين الرؤساء فلم يواف القرن ١٦ إلا وقد فقدت أمم الجامعات ما كان لها من السلطان فى هذه الناحية .

وإذ كان أساتذة الجامعة يقسمون طوائف أوهيئات باعتبار العلوم كما تقدم لزم أن تكون الدراسة فى كل جامعة أقساما عدة . ولكن الذين تصدوا لتاريخ التربية لم يشيروا إلا إلى منهج قسم واحد هو قسم الآداب . وقدقالوا فى ذلك أن الجامعة كانت تخرج طلبتها فى الفنون السبعة الأدبية التى سبق ذكرها وبخاصة المنطق وآراء ارسطو فيه . وكان غرضهم من ذلك القدرة على البحث والمناظرة والمهارة فى صوغ الأفكار والبراهين فى قوالب منطقية كان الطالب ينتظم بسلك الجامعة وهو ابن ١٣ أو ١٤ وينتمى إلى أستاذ من أساتذتها يكون مسئولا عن سيره فى درسه . وكان يبقى متوفرا على الدرس من ٣ إلى ٧ سنوات . ثم كان من بعد ذلك يعطى دروسا لصغار الطلبة تحت إرشاد أستاذه ليقوى على البحث والمناظرة ، حتى إذا أنس من نفسه القوة تقدم لامتحان العالمية . كان يجلس من أجل ذلك للدروس وتحضره طائفة الآداب ليباحثوه ويناظروه ويناقشوه ، حتى إذا اقتنعوا بجدارته منحوه العالمية ولكنها لم تكن إلا إجازة للتدريس العام .

وقد كانت لجامعات القرون الوسطى آثار أهمها ثلاثة :

(١) — كانت أول نموذج للديموقراطية . كانت منبت الحرية الفكرية فى مسائل السياسة والكنيسة وأصول الدين . فكثيرا ما عاضدت الرأى العام ضد الملك أو الكنيسة على الرغم من أنها كانت من هؤلاء تستمد براءتها وامتيازاتها . ومن هنا كان لجامعات فرنسا وانجلترا واسكتلندة حق التمثيل فى المجالس النيابية .

(٢) — ومن هنا أيضا كان بيدها ميزان القوة والفصل فى الخصومات التى

كانت تحصل بين الملك والكنيسة أو بين أحد هذين والامة . فإن مسألة طلاق هنرى الثامن التى كانت نزاعا بين الملك والكنيسة عرضت على الجامعة للفصل فيها . وينبئنا التاريخ أن الجامعات انضمت إلى ملك فرنسا ضد الكنيسة فى موقفين . ففى موقف ألجأت البابا إلى الاعتذار والتنازل عن آرائه . وفى الآخر انتهى الأمر بعزل رئيس الكنيسة الذى كان موضوع النزاع . وكثيراً ما سمعت كلمة الجامعة فى الفصل فى مسائل الزندقة والالحاد وفيما يختلف فيه من مسائل الاعتقاد . وبذلك خففت من حدة ما كان يبديه البابوات أو ممثلوهم من الآراء المتطرفة .

(٣) — وقد نظمت الجامعات الحياة العقلية كما نظمت الكنائس الحياة الدينية وكما نظمت الحكومات الحياة السياسية . وكفاها فضلا أنها ربت أمثال دنتى وبترارك وكوبرنيق من رجال النهضة الأوربية

تربية النظام الاقطاعى

أو نظام الفروسية

ساد غربى أوربا فى القرن العاشر والثالث عشر وما بينهما نظام عرف بالنظام الإقطاعى . لأنه بمقتضاه كان الملك يقطع الأمراء بنواحى مملكته قطائع من الأرض يستغلونها نظير خدمات عسكرية يؤدونها له عند الحاجة . وكانت تلك القطائع واسعة لا ينهض الأمير باستغلالها وحده . فكان يقسمها بين من دونه من الأشراف والأغنياء ليستغلوها نظير إمداده بالرجال الذين يحتاج هو إليهم فى قمع ما يحدث فى قطائعه من الثورات ، أو الذين يطلبهم منه الملك لحروبه الدينية والدنيوية .

وعلى هذا لم يكن النظام الاقطاعى نظاما زراعيا فحسب . وإنما كان مع ذلك نظاما حربيا . وقد اقتضى من هذه الناحية نظاما خاصا للتربية العسكرية . ذلك النظام هو المعروف فى التاريخ بنظام الفروسية . فهو نظام للتربية الغرض

منه تكوين فرسان مدربين على حمل السلاح ، عارفين بطرق الكفاح ، ليخدموا الملوك أوالأمراء عندالحاجة فى حروبهم الدينية والدنيوية

معاهدها القصور : تربية دنيوية هذه أغراضها لم تكن ميسورة بالاديار وسواها من المدارس الدينية التى سادت فى تلك العصور . من أجل ذلك اتخذت قصور الأمراء والأشراف والأغنياء معاهد لها . فقد كان لكل من هؤلاء قصر أو أكثر يؤمه من بلغ سبعا من أولاد حاشيته ورعيته من زراع ضيعته ، ليقيموا فيه ويربوا على المبادىء التى يرتضيها رب القصر . وقد كانت هذه التربية فى بعض الأحوال مدرسية . ولكن الغالب أنها كانت عملية عمادها حسن نظام القصر وإحكام الخدمة فيه .

مناهجها : كانت تربية الفارس على ثلاث درجات .

١ — فقد كان الأولاد من سبع إلى أربع عشرة يلازمون القصور ، لخدمة ربات الخدور . وكانوا فى أثناء ذلك يؤخذون بحسن السلوك ويعودون اللطف ودماثة الخلق ليحبهم الناس ويستعبدوا قلوبهم . ومن ثم عبروا عن التربية فى هذا الدور بأنها الاخذ بمبادى الحب والاستعباد

٢ — وفيما بين الرابعة عشرة والحادية والعشرين كانوا يصحبون رب القصر فى غدواته وروحاته ، ويقومون بخدمة الموائد فى الولائم ، ويؤخذون بمبادىء الحرب فيمرنون على الركوب والصيد والضراب والطعان واستعمال السلاح ، ويعودون من الأخلاق تحمل مشاق الحياة وعدم الاكتراث لآلامها وأوجاعها والصبر على الجوع والعطش

٣ — ومتى بلغوا الحادية والعشرين أخذوا بمبادىء الدين وأقسموا فى حفلة رهيبة (ليحمن الدين وليقاتلن المارقين وليبجلن القساوسة وليذودن عن المرأة والضعيف وليعملن على نشر لواء السلام بالبلاد وليقفن مظاهرين لإخوانهم من بنى الإنسان حتى الممات) . وسموا بعدئذ فرسانا

وقد قل العنصر العقلى فى تربية الفارس حتى لقد كانوا فى بدء أيام الفروسية يعيبون عليه القراءة والكتابة . وبتوالى الزمن مال إلى تعلمها كل من ينتمى إلى الطبقات العليا رجالا ونساء .

وكانت الفرنسية لغة الفروسية . فكان تعلمها ضروريا . ولم يكن لهم فيما وراء ذلك حظ من التربية العقلية ، إلا الموسيقى وقرض الشعر .

موازنة بين الفروسية والرهبانية : تمتاز الفروسية على الرهبانية بأنها : —

١ — اعترفت بحق البدن فمنحته ما منعته الرهبانية من حظه من التربية

٢ — عرفت قيمة التربية الخلقية المنزلية فى تكوين الأخلاق

٣ — عملت للدين والدنيا معا .

٤ — أعطت المرأة حقها من الاحترام والحماية .

وتمتاز عليها الرهبانية بأنها : —

١ — هيأت للتربية العقلية فرصا أكثر

٢ — حفظت العلوم والمعارف بنسخ المخطوطات وإيداعها دور الكتب .

٣ — كانت عماد التدوين والتأليف فى العصور الوسطى

٤ — خرجت رجالا كانوا من أهم عوامل النهضة الحديثة .

٥ — عنيت بالتربية الروحية .

جهود أخرى فى التربيـــة : — فى القرن الرابع عشر والخامس عشر لم يبق حظ التربية الابتدائية من العناية كما كان فى العصور السالفة أقل من حظ التربية الثانوية . فقد شهد هذان القرنان قصور الأديار ومدارس الكنائس عن الوفاء بالمطالب الجديدة ، ووجدا مسيس الحاجة إلى إنشاء كثير من المعاهد لنوعى التعليم جميعا

١ ـ مدارس الأوقاف والصدقات : ـ كانت مدارس الأوقاف والصدقات أكثر هذه المعاهد الجديدة انتشارا وأعمها نفعا. وقد كان منشؤها أوقاف الكنائس. وهي ضياع كان يحبسها المحسنون على القسيسين ليعيشوا بغلتها نظير أدعيتهم لهم ولأهليهم أو قراءة أحزاب من الكتب المقدسة. فهي من هذه الناحية الأخيرة تشبه أوقاف المقارئ لدنيا.

وبتوالى الزمن وجد الذين يميلون إلى هذا النوع من البر والإحسان أن القسيسين لا يصرفون إلا القليل من زمنهم لتنفيذ شروط الواقفين. فشرطوا في وقفياتهم أن يصرف جزء من ريع أوقافهم على مدارس يقوم القسيسون بالتعليم فيها. فكان من ذلك أنواع من المدارس مختلفة باختلاف شروط الواقف. كان بعضها لعدد خاص وطائفة معينة من التلاميذ، وبعضها كان مفتح الأبواب لكل الطالبين. وكان التعليم في بعضها بأجور وفي بعضها بلا أجور. وكان في بعضها أوليا مقصورا على المبادىء البسيطة، وفي بعضها راقيا شاملا للأجرومية وسواها من الفروع والمواد.

تلك المدارس تشبه في نشأتها وعملها المدارس الأولية المنتشرة بالقاهرة والتي تعتمد في نفقاتها على أوقاف المحسنين من دولة المماليك وسواهم.

٢ ـ مدارس المدن : ـ أدى نشاط التجارة وإنشاء الشركات الصناعية بإيطاليا وسواها من ممالك أوربا الغربية إلى إنشاء المدارس للتربية الابتدائية الوطنية كما أدى إلى تأسيس الجامعات وتهيئة الفرص للتربية العالية وإحياء الثقافة القديمة

والأصل في نشأة هذه المدارس حاجة الصناع والتجار إلى تعليم أولادهم. فكانوا أول الأمر يستخدمون لذلك القسيسين نظير أجور يعطونها. ففتح هؤلاء مدارس لذلك الغرض. وقام بعض طوائف الصناع بإنشاء تلك المدارس بأنفسهم ودون وساطة القسيسين

وقد كانت العادة الغالبة على تلك المدارس كما قدمنا أن تعلم تعليما ابتدائيا باللغة الوطنية . علمت التاريخ وتقويم البلدان وعنيت بما يهم تلك الطوائف من المسائل التجارية والصناعية وسائر الشئون الاقتصادية . وفى كثير من الأحيان كانت بها فصول راقية لتعليم اللاتينية .

ولما أنشئت المجالس البلدية أصبحت إدارة هذه المدارس بيد السلطات المحلية لها مراقبتها وعليها نفقاتها . ومن ثم عرفت باسم مدارس المدن :

ولم تعلم تلك المدارس أبناء المدن التى أنشئت بها فحسب . بل فتحت ابوابها للتلاميذ المهاجرين الذين كانوا ينتقلون من أجل العلم من بلد إلى بلد ومن معهد إلى معهد معتمدين فى حياتهم على الشحاذة واستجداء المحسنين : وقد اقتدوا فى ذلك بالرهبان فانتشرت تلك العادة بين النشء بلا فرق بين طلبة الجامعات وتلاميذ المدارس .

٣ — جماعة إخوان الحياة المشتركة . لا يسعنا ونحن نتكلم على التربية بأوروبا فى القرون الوسطى أن نغفل مابذلته من الجهود فى سبيل التربية والتعليم طائفة إخوان الحياة المشتركة الذين كانوا شمالى هولاندة على شواطىء نهر يزل بمدينة دفنتر .

وتسمى هذه الطائفة أيضا باخوان جروت نسبة إلى جرار جروت (١٣٤٠ — ١٣٨٤) وهو هولاندى قصد باريس فدرس الفلسفة الكلامية بجامعتها . ولما عاد إلى بلاده أسس هذه الجماعة بدفنتر .

وقد وهبت حياتها للأعمال الطيبة النافعة وبخاصة تعليم النشء ونشر المعارف بين العامة . وقد أسسوا تربيتهم على الإنجيل . ولكنهم لم يغفلوا الثقافة القديمة . بل درسوا فرجل وهورس وبلوتارك وهيرودوت وأفلاطون وأرسطو وسيسرو وسواهم من كتاب الإغريق والرومان وفلاسفتهم . ورقوا اللاتينية صحة مادة ، وجودة أسلوب ، ونفثوا فى نفوس العامة ببلادهم

من حب الآداب القديمة والبراعة الأدبية مالم يكن ألاحظ القليل من الخاصة بإيطاليا . وألفوا دائرة معارف جغرافية تاريخيـة شاملة كل ما كان ضروريا لطالب العلم فى زمنهم أن يعرفه .

وقـد كانوا كما تقدم فى بدء أمرهم بدفنتر من مدن الشمال بهولندة : ثم انتشرت مجهوداتهم بهولندة كلها . ثم تجاوزتها إلى بلجيكا وألمـانيا وفرنسا . وقـد عظم الإقبال على مدارسها حتى غصت بالطلبة . فكانوا فى بعضها ألفا أو يزيدون . وبذلك كانت لهـا مدة القرن الخامس عشر السيادة فى ميادين التربية بالشمال بلا نزاع .

وقد كان من أخص صفاتهم البساطة ونـكران النفس . وكان معتمدهم فى حياتهم على دخلهم من نسخ المخطوطات . فلما انتشرت الطباعة غاض معينهم فكان آخر العهد بهم : لـكنهم لم ينقرضوا حتى خلفوا للتربية أعظم علمائهم قدراً ، وأحسنهم ذكراً وأعلاهم منزلة . ذلك هو أراصمص الذى وصل القديم بالحديث إبان النهضة بطريقة لم تتسن لأحد من العلماء سواه . وقد كان ذلك لحدة ذكائه وشهوده العصرين ، وفهمه لروح القديم ، وفرط محبته للجديد

تم بعون الله تعالى

فهـــرس

التربية في العصور الوسطى

الجزء الأول

الصفحة الموضـــوع

الصفحة الموضوع

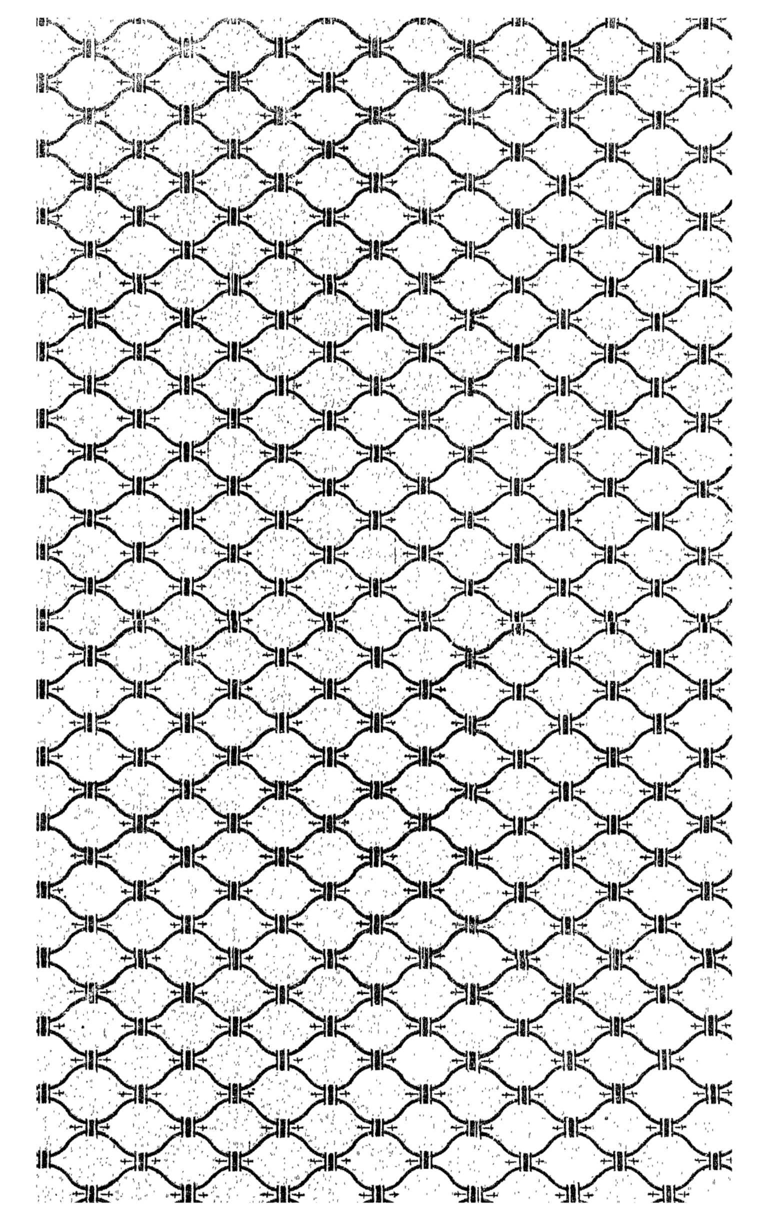
الصفحة الموضوعات

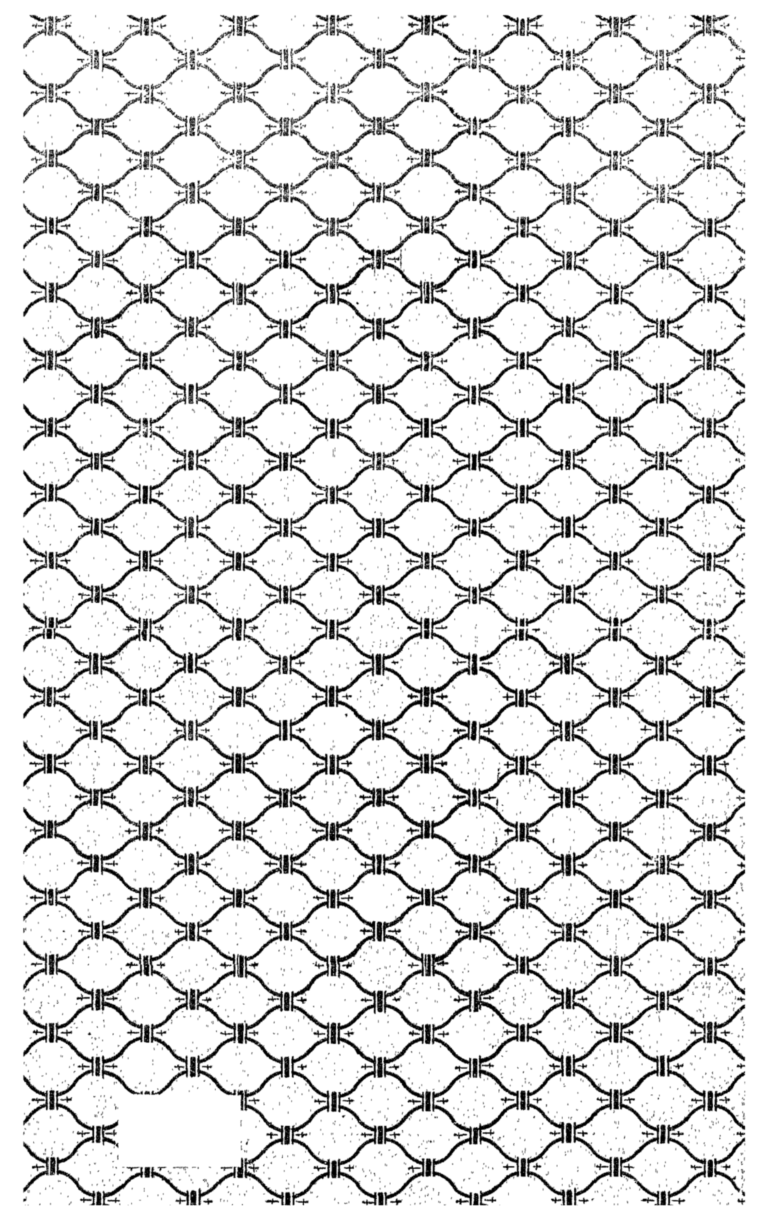


الصفحة　　　　　　　　الموضوعات

الصفحة | الموضوعات

تم الفهرس بعون الله تعالى






Bibliotheca Alexandrina
0480328